I B R A H I M A L J A B I N





إبراهيم الجبين

عين الشرق

هايبرثيميسيا 21







إبراهيم الجبين

عين الشرق

هايبرثيميسيا 21



عين الشرق

هايبرثيميسيا 21

عين الشرق (هايبرثيميسيا 21) / رواية عربيّة
إبراهيم الجبين / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى، 2016



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
محمد سيف ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف الأماميّ: **يوسف عبدلكي** / سوريّة
صورة المؤلّف (الغلاف الخلفيّ): **نوري الجرّاح** / سوريّة
الصفّ الضوئيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-729-5

المؤلف في سطور

إبراهيم الجبين كاتب وإعلامي سوري يقيم في ألمانيا .

صدر له

رواية:

- «يوميات يهودي من دمشق» ـ دار خطوات ـ دمشق 2007 .

شعر:

- «البراري» ـ دار المستقبل ـ دمشق ـ بيروت 1994 .
- «يعبرُ اليَم» ـ دار الطليعة ـ دمشق ـ بيروت 2002 .
- «تنفّسْ هواءها عني» ـ دار الشرق ـ دمشق 2010 .

دراسات:

- «لغة محمد» ـ الشركة العربية الأوروبية ـ كوبنهاغن 2003 .
- «الطريق إلى الجمهورية» ـ مركز القرار ـ دبي 2012 .

أفلام وثائقية وبرامج

- «أسامة بن لادن في سوريا» ـ إخراج نبيل المالح ـ 2002 .
- «مطموراً تحت غبار الآخرين» ـ إخراج علي سفر 2008 .
- «الأمير عبدالقادر الجزائري في دمشق» ـ إنتاج اليوروميد 2009 .
- «أهل الرأي» ـ قناة الرأي 2007 .

- «علامة فارقة» ـ الفضائية السورية 2008 .
- «باسم الشعب» ـ قناة أورينت 2011 .
- «الطريق إلى دمشق» ـ قناة أورينت 2012 .
- «أبو القعقاع السوري» ـ قناة الجزيرة ـ مشاركة إعداد ـ 2015 .

«وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ دِمَشْقَ: هُوَذَا دِمَشْقُ تُزَالُ مِنْ بَيْنِ الْمُدُنِ وَتَكُونُ رُجْمَةَ رَدْمٍ».

سفر إشعيا ـ الإصحاح السابع عشر ـ الآية الأولى ـ التوراة

«20 حـالـة من مـرض الـهـايبـرثيـمـيـسـيـا فـقط تم اكتشافها في أنحاء العالم حتى هذه اللحظة»

زقاق الجن

لو يستطيع الكاتب أن يفعل ما فعله لؤي كيالي ، فيقوم بجمع لوحاته وإحراقها ليبدأ من جديد ، لفعلت هذا . ليس لأنها لم تكن ذات قيمة ، بل لأن الواقع الحي في بلادي منذ العام 2011 أكثر قيمة من كل قيمة . ولكن كل شيء يرتبط بما حوله بقوة ، مهما حاولت انتزاعه من سياقه ، ومهما فكرت أن السياق لم يكن سياقاً أصلاً . ما أؤمن به أنا أن مجرى النهر هو مجرى النهر ذاته ، وأن كل حرف أو ضربة سكين وريشة ورجفة وتر حدثت قبل الآن ، إنما تشارك في خلق هذه اللحظة التي نحن فيها الآن . لكنني قبل هذه اللحظة ، كنت قد رجعتُ إلى دمشق ، وبقيت عالقاً في عوالمها . أتحرّك في الممرات الرحبة المتعرجة ، بين البيوت الحجرية ، وعلى صخور البازلت المتراصة تحت الأقدام ، حسناً ، لم يكن ما قلته في السابق ، هو الحقيقة كلها ، فاليوميات تتغير ، وتلك التي اخترت لها اسم «يوميات يهودي من دمشق» ، كانت أكثر من يوميات ، في جانب منها ، دوّنت مسارات شخصيات عشت معها ، وأخرى ستعيش من بعد تدوينها ، وسيكون لها دورٌ في ما يحدث اليوم في الشرق الأوسط ، بعضها سيذوي مثل زهر ضئيل رهيف ، وبعضها

سيلاحقني ، فعلاً ، خارج الكتاب الذي صدر ، وظننت أنه لن يكون أكثر من رواية تسجيلية ، أو ربما يوميات عادية ، راقبت التحوّل الكبير في الدلالة ، تحول السوريين المبكر ، إلى «يهود جدد» .

***

في التكية السليمانية ، تسبح أرواح القرن السادس عشر ، وتختبئ في الحجرات الصوفية ، والدكاكين الصغيرة الضيقة ، البروكار والمطرزات ، صدرية قماش الصاي التي اخترت أن تلبسها قبل سنوات بلونيها الذهبي والأسود والأحمر ، تنزل الدرجات الاثنتي عشرة عبر الباب العتيق المخرّق بالمسامير العملاقة ، تموج بك الأرض ، تعلو وتنخفض ، دوارٌ ممتع خفيف وثقيل ، إن انعطفت يساراً نحو صُنّاع العجمي الدمشقي الفاتن ، حيث ورشة صانع الميداليات الجصية ، وورثته الصغار ، المكان الذي عملتَ فيه يوماً ، دون أن يبقى في ذاكرتك منه شيء ، حتى لا يفقدها عقلك سحرها ، وربما حتى يخالطها مع وهم قديم .

يساراً أيضاً ، بابٌ صغير عليه كُلّابٌ نحاسي ، ملفوف عليه خيط مغطّس بعرق عتيق ، حمل أفكار المشاوير اليومية عبر عشرات السنين التي امتددت فيها يدٌ ثابتة رغم عروقها المندفعة كأنهار ، لتعلّقه على ضفة الباب الواجهة الخشبية ، حيث حلقة من حديد أسود . يبقى الكُلّابُ مرخياً في

الصباحات الدمشقية الباردة ، لتظهر إلى جواره لوحات تتدلى من الواجهة ، بعضها من الورق وبعضها الآخر من القماش أو النحاس ، عنتر وعبلة والزير سالم والأسد الذي قتله في الرسومات والحكايات الشعبية ، ثَمّ غبارٌ خلف الأشياء وأمامها ، وفوضى لا تزعج العجوز الصلب بنظاراته ذات الطراز الخمسيني ، إطارٌ أسود وعدسات معتمة ، تظنه أعمى ، ولكنه ليس أعمى ، وأنت تعرف أنه لم يكن أعمى يوما ، اختار أن يكون ساكن المدينة وأحد شهودها ، منذ أن قدم إليها في العام 1947 .

- أنت ابن عمتي .
- هي عمة جدي .
- لا فرق ، ابن عمتي ، تعال أريك آخر الرسومات .

يأخذني ناجي ، الرسام العجوز ، الذي جاء من دير الزور ذات يوم أواسط الأربعينات من القرن العشرين ، ليزور دمشق ، راكباً سيارة أجرة ، ولكنه حين وصل إلى المدينة الساحرة ، أصابه مرضها ، وتلبّسه وسواسها ، فابتلي بمرض نادر ، قال الأطباء إنه «فوبيا السيارات» ، ولم يعد قادراً على مغادرة المكان ، ولا ركوب أيّ وسيلة مواصلات تعيده من حيث أتى ، ليعلق هو الآخر في فضاء الكرة الحيوية المسماة دمشق ، الزماني المكاني ، ذي الأبعاد الألف .

***

صوت سلاسل الذهب التي تتدلى من يدي ناجي وعنقه ، لا يمكن أن يغادر مشهد الجلسات الطويلة التي جمعتني به ، عبر ثلاثة عقود دمشقية ، كان وحيداً وحزيناً ، عادياً ، صاحب حرفة ، وليس صاحب فكرة مجنونة ، وكان هذا أكثر ما يثيرني في تكوينه ، يرسم ويبيع للسائحات والسائحين ، وللعابرين ، وقد يهدي لوحاته بلا مقابل ، يأتي صباحاً إلى محله الصغير في سوق المهن اليدوية في التكية السليمانية ، ماشياً بالطبع ، عابراً طريقه من بيته في حي الشعلان ، إلى المنشية ثم نهر بردى ، ثم التكية ، حاملاً معه أكياساً ممتلئة برقاب الدجاج وأرجله ، سيكون هناك من ينتظره ، أجيال من القطط التي عرفت موعدها مع ناجي كل صباح ، يطعمها من رزقه الذي كسبه بالأمس ، فهو يؤمن أن عليه واجبين اثنين ، الأول أن يطعم تلك القطط ، والثاني أن يكفّر بهذا عمّا فعله في الماضي .

***

ـ لماذا تحمل مسدساً على خاصرتك؟

ـ هذا منحني إياه وزير الداخلية محمد رباح الطويل ، قبل مجيء حافظ الأسد ، يعني ربما أواخر الستينات .

ـ لكن لماذا؟ ما حاجة رسام إلى مسدس قاتل؟

ـ أخي أنا كان لي دور يوماً ما .

ـ دور في ماذا؟

ـ في الشعبة الثانية .

ـ المخابرات السورية .

ـ لا أخفيك ، أنا أطلقت بيدي هاتين ، رصاصة الرحمة على كثير من معارضي الحكم في سوريا .

***

دفتر يومياتي القديم ، لم يكن يريد وصف الأشياء كما هي ، وهي تقع . ولكن أنا كنت ألحّ على هذا ، فاختار كل منا ، أخيراً ، طريقته في الكتابة . أنا أعيش الحدث ، وهو يسرده ويراقبني ، ويغيّر فيه قليلاً ليضمن حمايتي في بلد يموت فيه الإنسان لأيّ سبب ، وعلى رأس تلك الأسباب ، الاقتراب والتحرش بالوحشية التي حكمت سوريا ، على مر العشرات من الأعوام .

كان فيه اليهود والمسلمون والمسيحيون واللادينيون ، وبعضهم غادره ، ليعود إليه ، وكان فيه الإرهابيون ، الذين أردت منهم أن يطلوا برؤوسهم ليكونوا الإشارات إلى الأشياء ، لا الأشياء ذاتها ، علامات الحدث ، لا تفاصيله ، كانوا أطيافاً ولم يكونوا ممثلين في فيلم سينمائي ، وأنا كنت أحد أولئك الأبطال ، يسري عليّ ما يسري على الجميع في قفص الحكاية .

قابلت بعضهم خارجه ، بعدها ، وبعضهم زال عن الوجود ، من سميته «أبو المحجن» ، كان اسمه الحقيقي «أبو القعقاع ـ

محمود قول أغاسي» الذي أسس تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام ، أو ما يعرفه العالم اليوم باسم ISIS ، أو «داعش» .

***

في اليوم الثامن والعشرين من شهر أيلول ، من العام 2007 ، يخرج الشيخ من جامعه ، بعد صلاة الجمعة ، بعد أن يلتقي بمريديه ، ويقضي معهم نحو ساعة ، في أيلول ، تبدأ الشمس بالزوال مبكرة ، لكن آثار الصيف ما تزال تسري على مدينة حلب ، الساعة الثالثة عصراً ، تكاد تشبه الغروب .

جامع الإيمان ، خطوات بعد خروجه من البوابة محاطاً بمريديه ومرافقيه ، تقترب سيارة نقل صغيرة ، فيها ثلاثة أشخاص ، ينزل منها أحدهم ، فيظن الشيخ أن الشاب يريد تقبيل يده ، يبتسم له بغطرسته الروحانية ، ويكاد يمدّ يده نحوه ، لكن أربع رصاصات تنطلق من مسدس كان الشاب يوجهه نحو الشيخ ، تتوزع على جسده الطويل .

عاد القاتل إلى سيارة النقل ، التي غادرت بسرعة هائلة ، لكن المصلين لحقوا بها ، حتى أوقفوها وقبضوا على من فيها ، وسلموهم إلى المخابرات السورية ، وانقطع خبرهم أو أيّ ذكر لهم منذ تلك اللحظة وحتى اليوم .

مات أبو القعقاع ، بعد ستة أشهر من صدور روايتي التي كان هو بطلها .

***

إخـاد ، اليـهـودي الـذي هاجـر من دمـشق ، إلى الولايات المتحدة ، وقابلته صدفة في نيويورك ، لم يكن قد هاجر بالفعل ، لكن جسر الرحيل والعودة ، عن دمشق وإليها ، لا يتوقف ، ولا نهـاية لألغـازه وأسـراره ، جـسـر من الخـيـال ، جـسـر من الواقع الحديدي ، جسر من الزجاج الأخضر ، جسر من الحكايات .

***

بعض ما يحدث مع أيّ شخص من سكان الشام ، يشبه الكذب ، وبعضه الآخر يشبه الأحلام ، في كل دقيقة تمرّ عليه ، تنمو من حوله أعشاب من القصص ، ونباتات تتسلق بسرعة نحو الفراغ ، تلفّه وتغطيه ، ليصبح هو تفصيلاً من تفاصيلها ، وليس مركزها وراويها ، وحين يرويها ، لا يرويها ، بل يخبر عنها ما أذنت له أن يراه منها ، فتضيع الحدود بين ما يعرفه هو ، وما حصل في الواقع .

لكن كلّ ما يخبركم عنه أهل الشام ، حقيقي ، واقف على أرض اليـقين ، كـمـا لـو كـان في وثائق قـاضٍ ، أو مـسـتـندات محكمـة ، أو صـفـحـات روائي مـهـووس بجـمع القـصـاصـات الصفراء القديمة ، مثلما كان ناجي يفعل ، لكن ناجي لم يفعل هذا بقصاصات الصحف ، فلم يكن يهتم بما يكتب عنه بين الوقت والآخر ، بل كان هوسه ينصبّ على ورق أصفر من نوع آخر .

***

ـ يقولون عني إني بخيل ، شديد البخل ، شحيح ، وأعبد المال ، لكن هذا ليس صحيحاً ، أنا أعبد «الجمع» ، أجمع الأشياء ، كل الأشياء ، وأحتفظ بها ، سيكون لها دورٌ ما يوماً ما ، لا أعرف ، ربما ، قد لا يكون ، لكن كل شيء جدير بالحفظ ، انظر إلى قبضتي ، صافحني ، هل ترى؟ هل هذه قبضة رجل في التسعين من عمره؟ طبعاً لا ، هذه قبضة إنسان احتفظ بطاقته ، هل تريد أن أريك ما أحتفظ به؟

يقول ناجي كلماته ، وهو يشعل البخور في غرفة الضيوف في بيته في الشعلان ، ويذهب ويعود ، حاملاً مفتاحاً كبيراً ، يتوجه نحو خزانة خشبية مصدّفة ، يفتح أحد أبوابها ، ويخرج أشياء مختلفة ، يضعها على الطاولة أمامي .

ـ هذه لوحة أصلية ، طلب الرئيس أديب الشيشكلي من رسام فرنسي رسمها ، وهي تصوّره بثيابه العسكرية ، لكننا صادرناها .

ـ من أنتم؟

ـ نحن الشعبة الثانية . وأنا أخذتها في ما بعد ، لأنهم لم يكونوا يعرفون قيمتها الحقيقية ، هذه لوحة ثمينة ، لأنها تظهر كيف رأى الرسام الفرنسي الجنرال الشيشكلي ، أنظر إلى ملامح الحب والحنان التي وضعها في وجهه ، كانوا يرونه هكذا ، أما هذا فهو ناب فيل ، ملبّس بالفضة ، اشتريته من الست ليلى الرفاعي ، زوجة خالد بيك العظم ، تعرف أنها

عاشت بقية حياتها من بعده ، وكان تلعب القمار في القصاع ، وهذه لوحة لمونيه .

ـ أعرف المكان الذي كانت ترتاده وتلعب فيه القمار .

ـ جيد ، أما هذا ، فهو شيء سيلفت نظرك ، هذه ورقة ، فيها خواطر ، كتبها زميلي في الشعبة الثانية ، الذي قضى خدمته العسكرية معنا ، قبل أن يصبح مشهوراً ويرحل إلى بيروت .

ـ من؟

ـ علي

ـ من علي؟

ـ علي أحمد سعيد ، الذي سمّى نفسه في ما بعد ، «أدونيس» .

***

طيور ، طيور ، آلاف الطيور تخفق فوق خرائط المدينة ، وترسم بأمواجها فراغاً جديداً غير الفراغ . السماء زرقاء برتقالية بيضاء غسقية ، والغيم يتنفّس كصدر ، يعلو وينخفض ، ينخفض حتى يلامس حواف البيوت التي لا سقوف لها ، تدرك العناكب بحكمتها أن شيئاً ما سيحصل عمّا قريب ، فتبدأ بالتحرك مبتعدة عن ظهيرة حائرة ، ترمي العنكبوت خيطها من الأعلى ، نازلة عمودياً بموازاة الجدار الحجري ، ترى عيونها الكثيرة ما يدور في الطيارة ، غرفة الخلوة في السطح

الدمشقي ، وتراقب الوحشة ، والأثاث المهترئ مقطّع الجلد ، المقاعد التي هجرها الجالسون من أمدٍ بعيد ، طاولة عليها كؤوس من زجاج رخيص ، تلتقط العنكبوت صورة فقاعات الهواء في بلّور الكؤوس الفارغة إلا من هواء راكد ، تواصل هبوطها في الفضاء الدمشقي ، لا أحد يصدر الضجيج ، ولا أطفال يلعبون في الطابق الثاني ، حيث غرف النوم ، ولا أبوابها موصدة بعناية ، ثمة شقوق بين الباب والملبن ، متروكة على عجل .

خيط الذهب السائل المنساب من الأعلى ، يغيب في جهالة مساره الثقيل ، إلى الأسفل ، عتبة الباب توشك أن تقترب ، حجر أسود عالٍ ، شْجيرات فوضوية نبتت على أطرافها ، تحت ، غطاء من قضبان حديدية حمراء قانية ، تأكلها الصدأ ، عتمة ، ظلام ، أمتارٌ من الهبوط في الغيب ، كائناتٌ لا تنظر إليها العنكبوت ، رائحة الرطوبة ، قطرات ماء تهوي في العميق ، ضوء خافت .

فتحة في الأسفل ، يمر الهواء باتجاهين ، يميل الخيط يميناً ويساراً ميلاناً خفيفاً ، قبل أن يندلق النور إلى الأعلى غامراً جسد العنكبوب الدقيق ، تراهم من الأعلى ، حول طاولة من خشب الجوز ، رجلين ، والدخان يتصاعد من حولهما إلى الأعلى ، على شكل سحب بطيئة .

***

ليلة الأمس ، رأيت أني في شارع قديم ، وأني أدخل محلاً بسيطاً ، رأيت البديري الحلاق ، ولكنه لم يرني ، كان كل شيء بالأبيض والأسود ، باهتاً ، زائل الحدود بين التفاصيل ، كما لو كان شريطاً سينمائياً قديماً متقطعاً ، كان البديري حلاقاً ، ولكنه كان مؤرخ الشام في العصور المعتمة أيضاً ، قبل ثلاثمئة عام ، في أواسط القرن الثامن عشر ، قرأت يومياته عشرات المرات ، وصححت كلماتها ، وأوّلت ما غاب عمّن حقّق المخطوطة التي عثر عليها الشيخ محمد سعيد القاسمي من عطّار في السوق ، بعد أن لفّ له العطار ما اشتراه منه في ورقة ، استرعت انتباهه حين رجع إلى بيته ، وما لبث أن عاد إلى العطار ، ليشتري منه بقية الورق ، وكان عنوان تلك الصفحات «حوادث دمشق اليومية» .

رأيت البديري ، يراقب الناس ، ويختلس الفرصة ، مسترقاً السمع إلى ما يقولونه ، وهم يتخاصمون ، أو يتحدثون عن الأسعار ، أو عن والي دمشق ، أسعد باشا العظم ، تركته يدوّن ما يسمعه ، وجلستُ على كرسيّ الزبائن القاسي ، ونظرت في المرآة الصغيرة الموضوع أمامي ، رأيت نفسي ، ورأيت البديري الحلاق ، وهو ينظر إليّ ، وكأنه يراني ، كان يراني .

***

ـ هل كان أدونيس معكم في الشعبة الثانية؟

ـ نعم هذا شيء يعرفه كثيرون .

ـ وماذا كان يفعل؟

ـ لا أعرف ، ولا أهتم أصلاً ، هو شخص متصنّع ، وكان يتزلّف للضباط ، المهم ، هذه الورقة المتشققة ، هي من تلك التي كان يسميها أدونيس شعره العظيم ، تفضّلْ اقرأ . كان كلاماً ، ولكنه كان جميلاً ، عليّ أن أعترف «أومأ ، ناثراً شعل نور ، في جفنه مرقص خيال ، وفي يده أرجوحة أمل ، وتلفتت الأجواء ، تستحم بإشعاعاته المذهبة ، وتنسج من خيوطها المتلألئة ، وشاحاً تتيه به ، وتنشره على المدى تموجات عبقة ، وتتفتح براعم الزهور ، ويتبطن الأثير صدى كلمات» ، ليس هذا ما أريدك أن تراه .

ـ مقتنيات هامة وثمينة .

ـ الحقيقة أن الأثمن ، هو في زبالة الشعبة الثانية .

ـ زبالة الشعبة الثانية!

ـ نعم ، لا أقصد الزبالة بالمعنى الحرفي ، لكن القصد ، ما كانوا يريدون التخلص منه ورميه مع الفضلات ، الورق .

ـ تقصد ما كانوا يريدون إتلافه .

ـ كان قسم كبير من الأوراق ، يذهب إلى محرقة ، ولكنّي كنت أقطع عليه الطريق ، وآخذ الأكياس ، وأنشغل بفرزها في الليل ، بعضها كلام عادي وأوامر عسكرية وإدارية ، لكن من بينها ، ما هو هام جداً ، وكل هذا ما زلت أحتفظ به حتى اليوم رغم مرور خمسين سنة .

***

كانت الأيام الأولى من العام 2011 . اتصل بي المحامي الشهير هائل اليوسفي ، وطلب أن يراني على وجه السرعة ، كان صوته متهدجاً ، وهو أصلاً يتحدث بأسلوب مسرحي درامي ، كان صديقاً لي ، رغم فارق العمر الكبير ، بيني وبينه ، وكان يسألني في أحيان كثيرة عن أفكار تدور في رأسه أو رأسي .

مكتبه في الشارع الذي ينحدر من سكة حديد الحجاز ، يميناً قرب مكتبة النوري ، درجات قليلة ، مدخل الملهى الليلي «الكروان» ، عليك أن تتذكر تنبيه أبي منيب لضيوفه «إذا نزلت إلى الأسفل ستجد نفسك في كباريه الكروان ، وإذا صعدت إلى الأعلى ستجد أنك تقف أمام باب هائل اليوسفي» .

كان اليوسفي ذكياً ، وشعبياً ، اكتسب ذاكرة قوية بسبب عمله في المحاماة وأروقة المحاكم ، وصار ينقل كل تلك القصص على شكل مسلسل إذاعي يعرفه السوريون جيداً ، ويتابعونه ظهيرة كل ثلاثاء ، ويتابعون أبطاله الذين أصبحوا كائنات حية ، أسماؤها على ألسنة الناس ، المساعد جميل والرائد هشام ، مصوراً لهم عبر الحوار الصوتي ، جرائم القتل والسرقة والاختطاف والتحقيقات والمحكامات ، منتهياً دوماً بعبارة «باسم الشعب» لينطق القاضي بحكمه ، بعد كشف الجريمة ، وكانت البيوت والشوراع تصمت طيلة دقائق «حكم العدالة» ، غير أن هذا كلّه ، ليس ما كان يزيد مني اليوسفي مناقشته .

جلست على الأريكة الطويلة، قبالة الرجل العجوز، قال بنبرته التي توحي بأنه مصاب بالبرد المزمن، إنه يمتلك القصة الحقيقية للجاسوس الإسرائيلي إيلياهو كوهين، الذي عاش في سوريا بداية الستينيات، وعرّف نفسه بأنه مهاجر سوري اسمه «كامل أمين ثابت».

كان مشوقاً بالنسبة إليّ، الاستماع إلى هكذا أفكار، وكان اليوسفي يعرف هذا، قال إنه يحتفظ بنسخ من محاضر التحقيق الأصلية مع كوهين، وإنه حصل عليهًا من القاضي صلاح الضللي الذي حقق معه وحكم عليه بالإعدام، وإن لديه مصدراً آخر يثق به هو المحامي الفرنسي جاك مارسيه، محامي كوهين.

عرض عليّ المحامي العجوز، أن نشترك، هو وأنا بتأليف كتاب، يتحول لاحقاً إلى فيلم سينمائي عالمي، يروي قصة كوهين الحقيقية، لا تلك التي روّجها الحكم في سوريا وقتها، وفي السنوات الطويلة اللاحقة، وزودني بمغلف ضخم، يضم كل تلك المحاضر والقرارات والاستجوابات المتصلة بكوهين، وقال «ادرسه على مهلك».

***

في الحجرة السفلية، في البيت المهجور، تحت الغطاء ذي القضبان الحديدية الحمراء القانية التي تأكلها الصدأ، يضيع خيط العنكبوت في الدخان، ويعلو جدال بين الرجلين

الجالسين أمام الطاولة ، ينعكس ظل أحدهما على الجدار الحجري العاري من أيّ دهان ، الظل يحرّك يديه ، ويشيح برأسه مرة يميناً ومرة يساراً ، يجلس ثم ينهض . يجمد الرجل الآخر ، وكأنه تمثال ناطق ، حين يصمتان ، يعلو الصمت من حولها ، لا شيء يصل إلى هذا المكان المعزول عن العالم .

ـ علينا أن نغادر هذا المكان .

ـ لا .

ـ لماذا؟

ـ اختنقت .

ـ وأنا أيضاً .

ـ لكن أنت تريد البقاء .

ـ لا أريد البقاء ، عليّ أن أبقى .

ـ لماذا؟

ـ لأنني يجب أن أبقى هنا ، أنت بوسعك أن تذهب ، الباب مفتوح .

ـ لا أذهب وحدي ، نذهب معاً أو نبقى معاً .

ـ إذاً نبقى معاً .

***

ما زلتُ أمشي في دمشق ، هذه ، والتي كانت معاً ، والشوارع تتغير كل لحظة أمام عيني ، تتبدل الأزمنة إلى الوراء وإلى الأمام ، تختفي مبانٍ وأخرى تعلو شاهقة ، تظهر تلالٌ ،

وتتدفق أنهار ، وتتكسر جسور ، وتمتد أخرى ، تشتعل حرائق ، ويندفع شجر سريع النمو ، أمشي الطريق من القنوات ، منحدراً نحو الحلبوني ، أرصفة باعة الكتب ، والجامعة القديمة ، طاحون ماء هائل يرتفع في أرض منبسطة على ظهر التلة ، حيث صنعاء الشام ، كما سمّاها الأمويون . رائحة البارود العثماني تندفع بقوة من ثكنة صارت جامعة في ما بعد ، بستان مسوّر ، ترتفع فيه الأشجار العالية ، تميل مع هواء بردى ، وتميل مع الشمس ، كان الليل ملعبه وفتنته ، موسيقى الشجر تعزف أنغامها ، لتصل الألحان إلى ما وراء سور دمشق ، حيث يصغي الناس إلى العزف الهادئ حيناً والصاخب أحياناً ، وفي الصباحات البعيدة ، كان الرجال يذهبون إلى ذلك البستان ، بحثاً عن المغنين الغامضين ، غير أنهم لم يكونوا يعثرون على أحد .

بستان تمر منه طريق متعرجة ، تضيق وتضيق كلما توغل فيها الإنسان ، ويزداد لونها الأخضر حدّة وقتامة ، يخفت الضوء حتى يغيب في الشجر ، تهمس أشجار الجوز ، وترد عليها أشجار الكينا ، التين صامت ، والتوت خجول ، المشمش يتساقط ، والجانرك يتعرّق بالندى ، حياة كاملة ، مستغنية عن الحياة في الخارج ، تضيق الطريق وتتعرج ، متر ، ثم نصف متر ، ثم شبران ، من يعيش هنا؟ لا أحد ، بل هم هناك ، ولهم حياتهم ، عالمهم ، في «زقاق الجن» .

***

سكنت هذه المدينة عن سابق قصد ونية ، وكانت هويتها هدفي ، وفكرتي ، واهتمامي الأول والأخير ، ولم يكن كل ما تبقى سوى التفاصيل التي ستملأ يومياتي فيها ، كيلا تكون دفاتري مقتصرة عليها وعليّ ، أستيقظ كل صباح لاكتشافها من جديد ، وكأني وصلت إليها للتوّ ، قبل دقائق فقط ، ولا تنتهي الرحلات فيها ، ولا حدود لما يمكنني أن أعرفه لأول مرة هنا .

دمشق ليست الدمشقيين ، ولا المهاجرين الذين جاؤوا إليها في كل عصر ومن كل مكان ، هي قائمة بذاتها ، وحدها ، ولها روحها الآسرة ، التي تعبر الأزمنة والبشر .

في حي زقاق الجن ، في الطابق الخامس ، على أطراف القشلة التي صارت جامعة . بيتي الصغير ، الذي يطلّ على قاسيون وعلى المدينة ، والعالم ، في الوقت ذاته ، إليه تصعد الكلمات التي تقال في الأسفل ، وإليه أصعد ثمان وتسعين درجة ، عابراً بين الطبقات الضبابية الزرقاء والوردية إلى غيم الطابق الخامس ، الذي يخفي خلف بابه كوناً خارج الزمان والمكان ، كوناً موازياً مختلفاً عمّا يدور في الخارج .

***

ليس محزناً أن تسكن دمشق ، ولا أن تغادرها ، مدينة للبهجة والحيل الفيزيائية ، مدينة للخيال ، لا يمكنك أن تعيش في دمشق بلا خيال رحب خلاق ، وإن لم يكن خيالك لائقاً

بما تريده دمشق ، فإن المدينة سرعان ما تطحنك فيها ، وتطردك إلى حيث لا تكون سوى مستوطن عابر ، لا تزورك أرواحها المتجولة ، ولا تكشف لك عن أسرارها ، وستطويك بعد حين .

***

غرفة من بيت كبير ، جدرانها سميكة ، وشبابيكها غرف صغيرة في الجدران ، كان ناصر يجلس ساعاته الطويلة في الصمت والدخان ، وكنت على موعد يومي في شتاءات داكنة ، كانت «السيدة» تحضر الشاي ، بينما ينظر الوالد من صورته البيضاء والسوداء المعلقة على الحائط ، يقرأ مواقف النفّري ، ويرسم نجوماً على الورق المهترئ للكتاب المجلّد بعناية .

يأتينا الصوت من الحارات القائظة القريبة ، أذان العشاء ، يقف ناصر الناحل وقفة العسكري ، حتى ينتهي المؤذن العجوز في جامع الفردوس في حي الجبيلة ، والليل يحمل الهمسات ، ومعها تمجيد قادم بعد صمت طويل .

***

هل قلت «قريباً من قبر ابن تيمية»؟ من لا يعرف دمشق مثلما عرفتها ، لن يدرك سرّ شخصية ابن تيمية الغاضبة ، بالطبع سيسارع إلى اتهامه بالتعصّب ، كما فعل كثيرون ، منهم متدينون وغير متدينين . هؤلاء سرقوا ابن تيمية ، جعله السلفيون مرجعاً لهم ، وجعله الطائفيون مرجعاً لطائفيتهم ،

وجعله العلمانيون تمثالاً وجهوا إليه سهامهم دون أن يدرسوه ويقرأوا ما كتبه .

***

تواصل الأصوات وصولها إلينا من الأعلى ، ونحن في الأسفل في قبونا السرّي ، أنا وهو ، هو وأحدٌ ما ، لا أذكر ، في البيت المهجور ، أصوات القذائف ، أصوات الحرب ، وعويل النساء ، صراخ الأطفال ، ورعود الأحجار التي تتهاوى مع انهيارات الأبنية .

ـ أنت يهودي ، لماذا عدتَ في هذا الوقت؟ وسط الجهاديين الذين يحلمون بقطع رأسك؟

ـ عدتُ لأني يجب أن أعود .

ـ أنا أريد الابتعاد ، لم يعد هذا المكان آمناً ، ستعتقلني المخابرات ، أو يقتلني الجهاديون ، ألا تخشى منهم؟

ـ لا .

ـ لا تخشى منهم؟

ـ لا .

ـ ماذا تريد؟

ـ عليّ أن أنجز ما ينبغي عليّ إنجازه ، بعدها يمكنني المغادرة .

ـ وماهو الذي يجب عليك إنجازه؟

ـ إخراج ما أخفيناه في هذا المكان في تلك السنوات ، ثم عليك أن تنبته إلى أنه لم يعد هناك فارقٌ كبير بين أن تكون

سورياً أو أن تكون يهودياً ، تماهينا معاً ، عليكم أن تعرفوا هذا ، سواء كنتم مسلمين أو مسيحيين .

***

أنزل درجات بيتي الثماني والتسعين ، وأعبر الرصيف العاصف بالطلاب والطالبات ، إلى ضفة الجامعة ، أقرأ كل عناوين الكتب في بسطات الحلبوني ، وأتفقد لحاء شجرة الكينا العملاقة على منعطف الجسر ، لكنني لا أنعطف إلى الجسر ، أدور حول شجرة الكينا ، وأمضي إلى السور الأبيض يساراً ، ثم يظلّني ظلّ الأسدين العملاقين في المتحف ، وفي وسط المسافة قبل زاوية السياج الحديدي لحديقة المتحف ، أنزل درجات التكية السليمانية من جهة الغرب ، آثار المعمار العثماني سنان في تفاصيل المكان ، ورائحة رذاذ الماء على الأحجار الصغيرة المرصوفة في طرقات تتماوج على هواها ، ممشى بين الشجيرات ، تميل عليه القبة المصبوبة من رصاص بين مئذنتين مستوحشتين ، في آخر الدرب الخضراء تلك ، ينفتح باب على عالم ناجي ، حيث أكون قد وصلت إلى قريبي البسيط والعادي والغامض في آن معاً .

***

عاد إخاد اليهودي إلى دمشق أيضاً ، ليكون آخر اليهود المتبقين فيها ، بالإضافة إلى عجوزين تجلسان قرب حائط الكنيس المتهدم ، جاء ليشهد التحولات ، على عتبات السنة

التي انفجر فيها الشعب غضباً ، أراد أن يسكن في البيت المهجور ، مهجوراً مثله ، لا تمرّ عليه الأحداث التي ستقع ، ولا تهوي عليه قذائف هاون من السماء ، ولا تقتحم عليه البيت وحوش لا تميّز اللون والدين والعرق ، تقتل من أجل سيدها في القصر ، وتفرّغ شرّها مثل سم العقارب المعتّق .

***

كان رجلاً ماكراً ، عميق الشر ، وكانوا ينظرون إليه على أنه أعظم شخصية ظهرت في تاريخهم بعد علي بن أبي طالب ، الذي كان إلهاً ، في معتقداتهم ، ولذلك فقد ورث الرئيس تلك الصفة عنه ، فهو إلهٌ بالضرورة .

«ليس مجرد ضابط ، ولا سياسي عادي» هذا ما كنت تسمعه ممن يتحدثون إليك بصدق عن نظرتهم إلى علوي منهم ، حتى أولئك البسطاء ، منهم ، الذين كانوا يسيرون خلفه بعماء ، وساروا خلف ابنه من بعده بالعماء ذاته ، كانوا يدركون أن الإمام معصوم عن الخطأ ، حتى لو بدا للعالم كله أنه خطأ ، فالفارق كبير بين الإنسان العادي والإله ، وهذا إلهٌ من إله .

«لكن هذا الإله ، في الفترة الأخيرة ، أخذت تظهر عليه علامات التغيّر ، وبات يتصرف بصورة غير متوقعة» هذا ما قالته لي من كانت تزوره في مكتبه ، في القصر الجمهوري ، أو في قصوره في جبال الساحل السوري ، وتقضي ساعات معه على

انفراد ، كان القلق والخوف مكتوبين في عينيها بحروف واضحة أمامي .

***

اجتمعت الأسرة ، وقرّرت قراراً لا رجعة فيه ، لحفظ صورة وتاريخ الرجل ، وكي تتمكن رسالته ورسالة شعبه من الاستمرار في الوجود ، وكان المجتمعون دائرة ضيقة جداً ، اقتصرت على الأبناء والبنت وزوجها والأم وشقيقها وولديه .

***

جدار قلعة دمشق ، ليس حجراً وحسب ، شربت حجارته دماء من عاشوا في تلك القلعة ، ومن سجنوا في سجنها ، وبينما كنت أتفحص الزنازين التي بنيت على شكل غرف تحت أقواس تتميز بجدار وحيد من قضبان ، فاتتني زنزانة معتمة . تجاوزتها إلى ما بعدها من الزنازين ، لكنها أعادتني إليها بعد أن سمعت صوت تحريك غرض ما فيها ، ربما كان إبريقاً نحاسياً وقع سهواً من على طاولة صغيرة من خشب الجوز .

***

كنا محبوسين في هذا القبو ، إرادياً ، لا يد لأحد في تقييد حركتنا ، كان بوسعنا ، في أيّ لحظة صعود تلك الدرجات الحجرية الرومانية القديمة ، وفتح الباب والذهاب ، كلٌ في سبيله .

لكننا بقينا ، بينما كان يصلنا غبار الدمار من الخارج عبر فتحات السقف الخشبي ، أو من تحت الباب ، أو من الطاقات الضيقة التي كان يأتي منها نور خافت بارد سرعان ما يضيع في ظلام القبو .

***

السجن في سوريا ، ليس مجرد عنصر من عناصر حكاية سياسية أو جنائية . ليس حدثاً خاصاً . السجن في سوريا ثقافة شعبية . دارج مما درج وجرى اعتياد الحديث عنه على ألسنة الناس .

سجن القلعة من معالم دمشق ، لكن أهل الشام لم ينظروا إليه على أنه آلة موت وقهر واستعباد . ربما طغت تضاريس المدينة المشعّة على سجنها ، فبات تفصيلاً لا بطلاً من أبطال المشهد .

غير أني وقفت عند سجن القلعة ، على مقربة أمتار من خندقها الذي صار يعرف بسوق الحميدية ، وفي أبوابها الأربعة ، وأبراجها الاثني عشر .

***

ـ عليك أن تشرح لي رأيك الذي تكرّره ، كيف يمكن لهذه الأرض أن تكون أرضاً للجميع ، وفي الوقت ذاته ليست لأحد؟

ـ هل هو صعب لهذه الدرجة؟

ـ ليس صعباً ، لكنني لم أفهمه .

ـ الأرض لا تقبل الهوية الواحدة ، وإن حاولت العصب والشعوب ، لكن سرعان ما تنقلب الأرض على هذا التفكير ، وتبدأ بتشرّب الهويات الجديدة ، وقد يحاول الإنسان رفع صوته بالحق التاريخي ، والأرض التاريخية ، ومن هذه القصص ، لكن هذا لا ينفع ، كلّه يفشل .

ـ الواقع إذاً أنه لا يوجد حق تاريخي؟

ـ لا يوجد حق تاريخي .

ـ وكيف تبرّر مطالبات الإسرائيليين والعرب والأكراد والسريان والآشوريين بحقوقهم التاريخية إذاً؟

ـ وماذا عن حقوق اليهود الأرثوذكس والكتبة من نساخ الشريعة وخبراء الناموس ، والفريسيين ، والصدوقيين الأكابر ، والهيرودسيين ، أشكناز وسفرديم؟

ماذا عن المسلمين السنة ، ماذا عن المالكية والشافعية والأحناف والحنابلة ، ماذا عن الوهابيين؟ وماذا عن الشيعة ، جماعة الولي الفقيه ، والعلويين والإسماعيليين والدروز ، ماذا عن المسيحيين الشرقيين والغربيين ، الروم والسريان والكاثوليك والموارنة؟ ماذا عن الحق التاريخي لكل هؤلاء؟

ـ لكن أليس هذا طبيعياً؟ في العالم كله؟

ـ أنت تضحكني يا صديقي . . . وهل العالم طبيعي حقاً؟

***

كان قد بدأ يتعمّد إطالة يده في يد المرأة التي تصافحه برهبة وتقديس، بينما كان إبهامه يمر على عروقها الزرقاء، يدور صانعاً دواماتٍ من الذعر الذي ينتقل إلى نبضها عبر الدم المرتعش.

لم يعد يلتزم بهيئته التي يعرفها الجميع، ولم يعد صامتاً كتماثيله الحجرية الكثيرة المنتشرة في أنحاء البلاد. كان يحدّثها عن السياسة الدولية، وفجأة يسألها عن أحوال أسرتها، ثم ينتقل إلى الحديث عن صديق عمره، صلاح جديد، الذي طعنه في الظهر، ثم يطلب منها أن تتكلم، ويطمئنها إلى أنه ليس مخيفاً كما يظهر في الصور، وقد آن لها بعد كل تلك اللقاءات أن تعرفه على حقيقته.

هو إنسان بسيط، يقول هذا عن نفسه، لا يريد من الدنيا شيئاً، بضع حبات من الزيتون الأسود، ويسميه العلويون «العطّون» أو «العيطون» وخبز رقيق، ولو توفر «الشنكليش» الجبن المدفون في التراب، سيكون عالمه كاملاً حينها.

لم تكن تصدّق هذا، ولعلها كانت تصدّقه، فلا يمكن للإله أن يكذب، لكن كان يصعب عليها أن تتخيله، فتكمل دائرة أسئلتها بالقول «بالعكس، لا يمكن لي أن أستغرب هذا، فكيف يمكن للإله أن يكون إن لم يكن على هذه الصورة؟ إله البساطة، إله الأرض، إله العلويين».

***

كان دربي اليومي يأخذني إلى مشفى الغرباء ، قرب مقابر الصوفية القديمة التي أصبحت جامعة لتدريس الطب . مشفى الغرباء . هكذا اسمه . لكن نزلاءه كانوا من أصلاء الشام . شيخ جليل وإلى جواره تلميذه ابن كثير صاحب « البداية والنهاية» في التاريخ . قبر مسوّر شاهدته الضخمة محطمة ، بقي من الحروف الحجرية الكبيرة المحفورة عليه ، فقط كلمة «تيمية» .

***

بدأ يحدّث نفسه في غرفته الفخمة ، سجنه الخاص ، صحيح أن الممرضات لا ينقطعن عن التردد عليه ، لكنه يبقى وحيداً بين المرور والآخر لإحداهن .
«هل سأمضي حياتي هنا؟ ، وحيداً؟ مثل صلاح جديد؟ مثل الآخرين؟» .

كان صوته يرعد داخل صدره ، لكنه لم يكن يتكلّم ، كان يشخص ببصره ، بالعينين ذاتهما ، اللتين عرفهما الناس ، عيني القوي الذي لا رحمة في قلبه ، لكنه خلف تلك العينين ، كان وحيداً وخائفاً من شيء واحد ، أن يمضي الوقت وحيداً مثل صلاح جديد ونور الدين الأتاسي والآخرين .

***

نقلب الورق ، هائل اليوسفي وأنا ، وندرس الملاحظات الواردة في محاضر التحقيق مع إيلياهو كوهين ، أشياء كتبها

القاضي الضللي ، وأشياء كتبها الضباط المحققون ، وأشياء كتبها آخرون لا نعرف من هم .

ـ هل تعتقد يا أستاذ هائل أن كوهين كان جاسوساً؟

ـ طبعاً ، وهل تشك في هذا؟

ـ لا أشك ، بل إني أذهب أبعـد ، هذا الرجل لم يكن جاسوساً في يوم من الأيام ، هو يقوم بمهمة وطنية كبرى ، كما كان يعتقد ، ليس هو فقط ، بل الذين كانوا يشرفون على تحريكه ، والذين تعاونوا معه . لم تكن المعلومات هي ما يبحث عنه كوهين .

ـ كان يملك أجهزة إرسال للبرقيات المشفّرة ، أصلاً هي التي كشفته ، هذا معروف .

ـ نعم ، هذا ما قيل .

ـ ما قيل هو ما حصل .

ـ لا ، ما قيل هو ما أرادوا قوله ، ما حصل ، أمرٌ آخر .

***

ـ أنا عاصرت هذا .

قال لي ناجي ، بينما كنت أحاول استدراجه إلى ذلك الزمن .

ـ وهل كنت تشعر أن شيئاً ما غير عادي سيحدث ، من خلال عملك في الشعبة الثانية؟ أقصد هل كان المناخ يشي بترقب ما؟

ـ لا أبداً ، كان كل شيء طبيعياً ، كنا نعتقل الناس ، الشيوعيين خاصة ، الإسلاميون لم يكونوا مشكلة ، كانت لديهم أفكار لا تشكل خطراً على الدولة .

ـ كان عبدالناصر يعدمهم ، وأنتم كنتم ترون أنهم لا يشكلون خطراً على الدولة!

ـ إسلاميو مصر غير إسلاميي سوريا .

مرّ هذا الحديث برأسي ، وأنا أجلس أمام عصام العطار في بيته في آخن غرب ألمانيا ، بعد سنوات ، لم أكن أراه رجلاً ينتمي إلى اللحظة التي كنت أقابله فيها ، كنت أنظر إلى الستينات ، وأسأل : لماذا تركتم الآخرين يستولون على السلطة طواعية؟ ولماذا رفضتم المشاركة في الحكم؟ كانت الحياة السياسية في سوريا تسمح لكم بذلك؟

كان العطار بسنواته الست والثمانين يبتسم ، يجيب بكلمات هاربة «نحن أخي إبراهيم ، كانت أهدافنا أبعد من سوريا ، سوريا كانت قطعة صغيرة من العالم الذي حلمنا بتغييره» .

ـ نعم ، حلمتم بتغيير العالم ، فسلّمتم سوريا للعسكر والطائفيين ، بعد أن حاربتم العلمانيين؟

ـ هذا ما حصل ، ولكن ليس هذا ما كنا نتوقعه .

سمعت صوت الطلقات التي قتلت بنان الطنطاوي زوجة العطار في بيتها ، بداية الثمانينات . كان عنصر المخابرات

السورية ينفّذ التعليمات التي وجّهت إليه . وكان حافظ الأسد يريد إهانة الدمشقيين ، بنفي عصام ، ورفع مكانة شقيقته نجاح في بنية البعث والنظام ، لتصبح وزيرة للثقافة ثم نائبة لرئيس الجمهورية في عهد ابنه بشار ، أراد لتلك الأسرة أن تكون المجتمع السوري مصغّراً .

قبل ذلك بسنوات ، كنت أسمع صوت العطار يتردد في جامعة دمشق في البرامكة . كان يخطب في الستينيات ، لكن صوته بقي ، رغم إبعاده عن الشام . خطب سياسية تجاوزت الإيديولوجيا والفكر الذي ينطلق منه ، لتصبح امتداداً للشخصية الدمشقية التي أصبح قدرها النفي والتمزيق .

***

تعلو أصوات القذائف ، وترتجّ بنا الأرض ، تصل الاستغاثات الخافتة ، والأنين ، وهلع الأطفال من كرة اللهب التي لم نكن نراها من قبونا السرّي ، ولكننا كنا نتخيلها ، لم يكن لدينا جهاز تلفزيون ، ولم نكن نعرف ما الذي يحدث في الأعلى ، نعرف بدايته فقط ، غير أننا لم نفهم ، طواعية ، كيف مضت الأمور .

كنت أكتب ، وكان يقرأ ، لا يدور بيننا ، ما يحدث عادة في الأفلام السينمائية والروايات والمسرحيات . فلا يفكر واحدنا بالشك بالآخر ، أو بالانقضاض عليه ، أو بالتهامه كما حين يضيع اثنان في الصحراء ، بعد أن يتضورا جوعاً .

أحياناً كنت لا أفعل شيئاً ، بينما هو يقضي الوقت في الصلاة والتأمل ، وفي أحيان أخرى ، كنت أدرس الحجر وتكويناته ، وأتخيّل زمن بنائه ، ومن بناه على هذا المنسوب من الأرض ، ومن أين أحضره من بناه؟ من ريف حلب ، أم من محيط قاسيون والقلمون أو طريق عدرا حيث مقالع الصخر؟ وما الذي يمكن أن يكون قد خبأه أحدهم فيه كما فعلت أنا وصديقي هذا قبل سنوات .

بعض الناس ، اعتقد أنني استعملت الترميز العالي ، حين تحدثت عن إخفاء مخطوطات في هذا القبو ، ربما كي أشير إلى معنى ما ، رسمته على شكل مخطوطات ، لكن الحقيقة أن الواقع يحمل رمزية عالية وحده ، دون أن نقوم بترميزه نحن .

وما يحدث في الحياة الحقيقية ، لا يقل إدهاشاً ، وقد يكون ، ولا بد أن يكون أكثر سحراً من الخيال والأدب والروايات والشعر والسينما .

وحين سيقرأ العالم في وكالات الأنباء ، بعد سنوات ، أخباراً تتحدث عن نقل مخطوطات تاريخية ذات قيمة دينية ، من دمشق إلى إسرائيل ، في عمليات للكوماندوس الإسرائيلي ، تمت تحت جناح الليل ، وحين تظهر تلك المخطوطات والقطع في متاحف الدولة اليهودية ، حينها سيتضح أن الواقع الذي كتبت عنه ، كان واقعاً حياً لا مجرد ترميز ، فطمر الكنوز والأسرار ، من أكثر العادات الشعبية السورية عراقة

وتقديساً ، كان سائداً في القديم ، ولم ينقطع يوماً .

***

لم يكن الموت قدراً هذه المرة ، كان خياراً ، وكان من الأفضل أن يعلنوا موته ، فمن سيمسك بالخيوط إن مات فجأة؟ لا شك أنها ستنفلت على الفور من بين أيديهم ، ولذلك كان عليهم أن يقتلوه قبل أن يقتله الشعب .

***

ولم يكن الموت قدراً لهؤلاء الذين يسقطون فوقنا ونحن نسمع صوت ارتطام عظامهم بالحجر الحي على الطريق ، كان خياراً بدوره ، وكان خياراً لذيذاً لليائسين ، أعيد الآن كلمات صديقي الممثل السوري فارس الحلو ، الذي كنت ألتقيه في بستانه في قلب دمشق ، في منطقة العدوي ، حيث كان يؤسس مسرحاً ومشاغل للنحت والنشاطات الثقافية ، وينتقل من البستان إلى البيت القديم في الوهدة خلف شجيرات التين ، على بعد أمتار قليلة . كان فارس يفلسف لحظة الخروج في مظاهرة ، ويبحث لها عن شرعية إنسانية ، في فهمه لقرار الإنسان بالخروج عاري اليد والصدر أمام رصاص المخابرات السورية «الطلقة ليست مهمة ، الرصاصة ليست هي القصة ، وأنت إذا سمعتها ، فهذا سيعني أنها تجاوزتك ولم تقتلك ، لأن صوتها سيأتي بعد خروجها من فوهة البندقية ، هذا خبر سار ، وإن كانت الرصاصة ستقتلك فلن تتمكن من الشعور بها ،

لأنهم يستهدفون الرؤوس ، والرصاصة التي تصيب الرأس لن تعطيه فرصة للشعور بالألم» .

***

لم يكن الموت قدراً ، للذين حملوا السلاح للدفاع عن إلههم ، كان اختياراً .

***

أجلسوني مع فيديو لسليمان العيسى . وقالوا لي إن عليّ أن أستمع وأشاهد أناشيده وشعره القديم . وكيف لا يفعلون هذا وهم يرون أني قد حققت ما قاله وما حلم به .

رأيته عجوزاً صامتاً مثل شبح بلا وزن . بينما ظللت أطرق متأملاً في العميق كما أظهر في صوري الرسمية . كان يقرأ . وكنت أتذكر كيف كنا نسمع قصائده الأولى في الضيعة وتحت السنديانة وفي المدينة البحرية اللعينة .

***

عبور باب جيرون

احتفظتُ بأوراق لمؤلف مجهول تتحدث عن ثورة اندلعت في دمشق في العام 1831 ورد فيها أنه «لما وصل الخبر إلى الوزير أرسل جملة عساكر إلى العمارة يكبسوها . فسكّر أهل العمارة البوابة ونزلوا على العساكر بالرصاص ، فارتد العسكر وتحصن في جامع المعلق في العمارة بين الحواصل ، ويُسمّى بالجامع الجديد وبجامع برد بيك ، وهو الأمير سيف الدين الجكمي المعروف بالعجمي أو الأعور الذي أنشأه ، وفي خان الدالاتية الذي قباله ، واشتعلت نار الضرب بينهم إلى ثاني يوم الذي هو السبب ، فأصبحت أهالي البلد كلها بالسلاح الكامل وحالاً عزلت المدينة قاطبة إلى الخانات . فبلغ ذلك الوزير فأرسل عساكر ليكبسوا الميدان فوصل العسكر إلى سوق الغنم .

وبلغ ذلك أهالي الميدان والشاغور فحضر أهالي الميدان من جهة وأهالي الشاغور من جهة ثانية ، فكسروا العسكر إلى الدرويشية وقطعوا أربع خمس رؤوس من العسكر وعملوا متاريس في الدرويشية ، وتحصن فيها أهالي البلد ، فلما بلغ هذا إلى الوزير أرسل بيلوردي (رسالة) ، إلى أهالي القنوات فحواه أمان واطمئنان فصار أغاوات القنوات ينبهوا على الناس أن ترفع

سلاحها فشاع الخبر أن القنوات سلمت (سلاحها)» .

***

عن يمين باب جيرون ، كنت أنا الذي يمرُّ ، حيث تُرى غرفة لها هيئة طاقة كبيرة مستديرة . فيها نوافذ حجرية فتحت أبواباً صغيرة على عدد ساعات النهار . وعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من فم صقرين ، أحدهما تحت أول بابين والثاني تحت الباب الثاني . هذا ما رأيت وما يمكنك أن تراه إن مررت عن يمين باب جيرون .

***

ماذا يدور في الخارج؟ وماذا يفعل نائبي الآن؟ تلقيت ضربات كثيرة من هنا وهناك ، ونجوت منها . غير أن هذه الضربة هي الأكثر إيلاماً . أجلس هكذا مثل تمثال الشمع؟

ما الذي أصاب عقلي؟ هل هو مرض زهايمر؟ بدأت لا أتذكر شيئاً أريده . أتذكر فقط ما لا أرغب بتذكره .

عالم معقد . لم يكن معقداً في البداية . اليوم أرى الأشياء بصعوبة مثلما ينظر الإنسان إلى شبكة كلمات متقاطعة بمساحة قرية .

لماذا يتركونني هنا؟ هل أنا حي أم ميت؟ لا بد وأنني قد متّ ذات يوم ، وهذا مجرد خيال أعبره نحو العالم الآخر .

لكن أين هي الآخرة؟ ما زلت أعيش في المادة . وأشعر بجسدي الذي ينحل كل يوم . يتضاءل كل يوم . صرت رقيقاً

وهشاً مثل أعواد النباتات اليابسة . صرت شبحاً .

***

أوراق أجمّعها من أيام المدينة . والصور فيها تتجاور كشريط سينمائي لا يتوقف عن الدوران . لا تكف دمشق أيضاً عن الدوران حولي . لون الجدران الحجر المخلوط بالضوء الأصفر يبقى ثابتاً في دورانه .

***

لا أعرف إن كنا قد خرجنا حينها من القبو . لكنّي خرجت في النهاية ؛ إذ كيف أكون اليوم قادراً على سرد التفاصيل إن لم أكن قد غادرت المخبأ السري تحت الأرض؟

كانت أصوات القذائف تتزامن مع دقات عقارب الساعة القديمة قرب الجدار الحجري الرطب . اسفنج العفن الأبيض ما يزال ينمو نحو أرقامها الصدئة ، لكنها تدور وتتكتك والهاون يمشي معها . لم نكن نعرف أين كانت تسقط تلك القذائف ، وهل كانت تقتل أحداً أم أنها كانت تحدث الدمار فقط . نتخيل الدخان يتصاعد من هذه الحي أو ذاك . ومع كل صوت قذيفة تضاف رسوم جديدة إلى خريطة المدينة في عقلينا .

***

وضعوني في زنزانة صغيرة ضيقة . لم أفعل شيئاً . ضممت يدي إلى ركبتي وجلست على الأرض ، أنتظر شيئاً .

حين لم يحدث شيء ، بدأت أتفحص الزنزانة . كان

الجدار متسخاً . لكن كان يمكن لي أن أرى ما الذي تركه عليه زملائي الذين سكنوا قبلي .

كانت رسائلهم جنونية «من هنا اتجاه القبلة» ، «لعنة الله عليكم» ، «ستعلو كلمة الله» ، «أحنّ إلى خبز أمي» ، «عاشت سوريا» ، «الحسكة 5 كانون الأول 2002» ، «طريق النور» ، «احذر من العنصر الطويل الأسمر أبو جعفر» ، «حبيبتي سحر» .

رسائل لا تنتهي . مذكرات . جمل خلف جمل . مقاطع فقط ، يجمعها سياقها الذي يعتصر النفس ويكوّرها أكثر ، على شكل يدين تحيطان بركبتين .

***

قال إخاد : جدتي هي خانم المغنية بنت يحوز لاطي ، كانوا يطلقون عليها «الموسوية العثمانية» . يمكنك أن تعثر على اسمها في وثائق محاكم الشام التركية . من سكان محلّة اليهود بالشام . كانت جدتي تغنّي ، ولم تكن عاهرة أو كما يشاع عن نسائنا من أنهن ينسجن الخيوط حول رجالكم للإيقاع بهم وإبعادهم عن دينهم أو إلهائهم عن تجارتهم وصناعتهم . هذا تخريف . بالمناسبة ، هل استمعت إلى صوت فيروز السورية اليهودية؟ هذه كانت قبل فيروز المعروفة .

ـ نعم استمعت . فيروز الحلبية .

ـ هل تعرف إلى أين ذهبت فيروز؟

ـ أعرف أنها تزوجت ضابطاً تركياً وهاجرت معه .

ـ نعم فيروز ماميش . ابنة حي الجميلية الحلبي . الله . . كم كان رائعاً نشيدها «شاهدت الشمس وقد بزغت ، فعجبت لمنظرها الحسنِ ، وسألت البدر لمن يعشق؟ فشكى وبكى حب الوطنِ» . غنته للملك فيصل في سنة العشرين لما زار حلب . كان عمرها آنذاك خمسين عاماً .

ـ أعرفها يا صديقي . تزوجت حسين باشا عوني .

ـ لا يهمني من تزوجت . يهمني أنها تذكرني بشخص آخر .

ـ من ؟

ـ أنت كتبت عنه .

ـ من تقصد؟

ـ ساسون .

ـ إلياهو ساسون . كان إلياهو قومياً عربياً . وهو مؤسس جريدة «الحياة» أول صحيفة رسمية تنادي بالقومية العربية ، من قلب دمشق ، وبرعاية الملك فيصل ذاته .

ـ ساسون أصبح عقلاً استخباراتياً إسرائيلياً لاحقاً ، حين فشل مشروعكم القومي العربي .

ـ بل حين أفشلوه .

ـ ربما . حين أفشلوه .

ـ حين دمروا الدولة العربية الأولى في القرن العشرين بقوات احتلال فرنسية مباشرة . ساسون انتقل فقط مسافة

خمسين كليومتراً ما بين دمشق وفلسطين ، قبل أن يصبح اسمها إسرائيل .

ـ ساسون كان دمشقياً ولم يكن حلبياً . لماذا تذكرك فيروز ماميش به؟

ـ لأن كل أصحاب العقول المتفوقة غادروا هذه البلاد . عرفوا مبكراً أنها ستؤول إلى ما آلت إليه . خراب بطيء ولعنة أبدية .

***

من بين الأوراق التي لم أستطع إخراجها من دمشق ، سطور كتبتها ، كانت تتحدث عن زمن ما قبل وصول الملك فيصل بن الحسين إلى دمشق ، مع صورة قديمة لمقال نشر في صحيفة «القبلة» في مدينة مكة التي كانت تحت سيطرة الشريف حسين . كان كاتب المقال يدعو إلى التعاون مع اليهود والحركة الاستيطانية في فلسطين . تتبعت ما حدث . ففي الوقت ذاته ، جرى لقاء بين حاييم وايزمن والأمير فيصل بن الشريف حسين ، ووضع الاثنان نقاطاً ثابتة سميت «اتفاق فيصل وايزمان» تتعلق بمستقبل الحكم في فلسطين . وبعد ستة أشهر ، أي في الثالث من كانون الثاني من العام 1919 ، وقّع الرجلان في لندن على اتفاق اعترفت فيه المملكة العربية في الحجاز ، بزعامة الشريف حسين ، بوعد بلفور ، مع ضمانات كاملة لتطبيق الوعد البريطاني ، كما اعترفت الدولة العربية

بحق الشعب اليهودي بالهجرة الحرة والاستيطان في أرض إسرائيل ، وفي الاتفاق المذكور نفسه ، اعترفت الحركة الصهيونية من جانبها بأن الأماكن المقدسة للمسلمين ستكون تحت سيطرة المسلمين وإدارتهم ، وعندما تولى الأمير فيصل الحكم في سوريا ملكاً عليها ، دعا إلى قصره الصحفي إلياس ساسون ، وكان عمره 19 عاما ، وكان قد أصبح رئيساً للشبيبة الصهيونية في دمشق ، وأصبح في الوقت نفسه عضوا في الحركة الوطنية العربية ، واقترح عليه إصدار صحيفة يومية باللغة العربية بتمويل من الملك نفسه ، بهدف التقارب بين الحركتين الصهيونية والقومية العربية . وولدت الصحيفة في دمشق ، وترأس تحريرها إلياهو ساسون ، وكانت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، لمدة تسعة أشهر . ثم توقفت بعد طرد فيصل من دمشق على أيدي الفرنسيين في 28 يوليو من العام 1920 ، وكان اسم تلك الصحيفة «الحياة» .

***

كنت أتعمد البحث عن الخانات القديمة ، لم أشف من مرضي بدمشق . وحين عثرت على خان النارنجة في القيمرية قرب جيرون ، أخذت أجمع بقايا الأحجار المسودة التي بقيت من حرائق قديمة . كان من بينها قطع متفحمة من آلات صناعة صايات الآلاجا وقطن الديما . كانوا يسمون القيمرية «الهند الصغرى» لأنها كانت تنتج الحرير والأقمشة وسواها . ولكنها

كانت تنتج مع ذاك كله أرواحاً لا تغادر . تبقى تلامس أجساد المارة . بعضهم يشعر بها ، والبعض الآخر يتجاهلها ، ويسميها روحانية المدينة . لكنها كانت حقيقة . لم أكن مستشرقاً . كنت عاشقاً للمدينة ، ولا زلت أقتفي آثارها في الكتب والوجوه والأخبار والأشياء .

***

نزل المساء على حي العمارة . وكان ينحني إلى اليسار . لكن أصوات ما بقي من المنادين على بضائعهم كانت لا تزال تسمع . وكنت أخترق الزحام بسرعة . كان موعدي مع ناجي يقترب ، فقد وعدني أن يريني المزيد مما خبأه عن السنين . لم تكن كل خردته ذات قيمة . بعضها كان ثميناً . وبعضها كان مجرد أوامر إدارية وتوجيهات متعلقة بذلك الزمن .

***

من أنا؟ فعلت كل ما يمكن كي يكون لهم كيان . وبذلت عمري كلّه من أجلهم . لكنهم لا يستحقون سوى أن يكونوا عبيداً تحت قدمي . من أنا؟ تمثال من لحم ودم . شبح لم يمت بعد . صورة ناطقة . حبسوني في هذا الجسد . ظنوا أني فقدت القدرة على التفكير واتخاذ القرار . كنت أريد هذا فعلا ، وكنت سأبلغهم بأمري هذا من تلقاء ذاتي ؛ لأنها خطتي . لكنهم استعجلوا . هل عليّ أن أتوقّع ما يحدث خارج هذه الغرفة بدلاً من أن أعرفه ويوصله لي مدير مكتبي بتقاريره اليومية؟ هل

عليّ أن أتخيّل الحياة وتطوراتها بدلاً من أن أراها بنفسي؟ يا للعنتي التي أصابت شراييني . لماذا لم أمت باغتيال؟ لماذا لم يقتلني مرضي؟ لماذا لم يطلق عليّ أخي طلقة بين العينين؟

***

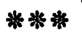
ماذا نفعل هنا؟ أنا أكتب ، وهو يمشي . يتحدث طيلة الوقت ، ويحرّك يديه وكأن خيوطاً تنسدل من الأعلى متحكمةً بمفاصله . غير أنه هو من كان يتحكم بالخيوط حتى لتبدو وكأنها تصعد من مفاصله إلى الأعلى ، حيث السقف اللانهائي ، وحيث لا سماء يمكننا أن نراها من قبونا المعزول .

***

عدت إلى الزنزانة المعتمة في القلعة ، كانت مرسومة مثل لوحات فان غوخ ، ثلاثية الأبعاد متداخلة الحدود . يغطي السواد معظم مساحتها الصغيرة . انتظرت حتى ذهبت مجموعة المصورين التلفزيونيين التي كانت ترافقني ، بقيت وحيداً ، أمام المشهد الصامت .

***

فقدت ناصر ، ولم تعد تصلني منه أو عنه أيّ أخبار . وقد يكون غاب في ثنايا المدينة التي يفيض عليها الفرات غير المرئي كل ليلة ، ويعود لينحسر ثانية عند الصباح .



لم أتوقف عن البحث عن الخانات القديمة ، أيضاً لم أشف من مرضي بالمدن . وحين عثرت على خان كنامة في المكان الذي كان يسمى «دير العتيق» قبل هدمه ، على بعد خطوات من ضفة الفرات ، أخذت أجمع بقايا الخشب والأحجار التي سلمت من انتقامات قديمة .

***

الليل سيد المدن في كل مكان من العالم ، والنهار شبابها . العصر لي ، والغروب ضيعة بلا حدود . في الليل تتنفس المدينة هواءها حقاً ، وتخرج ما تخفيه خلال النهار .

أذهب إلى منزل ناصر قرب مقبرة النصارى . يقرأ لي قصيدته عن الموت . وحين لا يقرأ ، نصمت . وحين لا نصمت ، نتجادل في عوالم سحيقة . لكنه يبقى صامتاً ؛ لأن الشعر كما يقول «بوابة الحكمة» ، وذروة الحكمة الصمت .

***

القوس الحجرية التي تلتف بها الطريق إلى كتف قلعة دمشق الشمالية ، بين النهر وسور القلعة ، إذا نظرت إليها في الواقع أو عبر صورة ملتقطة ، بعد أن تعدّ الأحجار من الأسفل إلى الأعلى ؛ حجر كبير ثم حجر ثان ثم ثالث . على ذروة الثالث ، فتحة حشرتُ ذات يوم فيها حجراً أبيض بحجم نصف كف إنسان ، كي يكون علامة تبقى بعد ألف عام . لم أكن أعلم أن المسافة ستفصلني عن دمشق بهذه السرعة .

فأبحث عن أشيائي فيها من خلال الصورة والذكريات .

لم أضع الحجر الصغير كي يبقى فقط ، بل لأني رأيت توازن القوس يختل يوماً بعد يوم . كلما مرّ من تحت القوس من لا يدرك قيمة دمشق وأسرارها ، كانت القوس تميل ، وكان عليّ أن أبقيها قائمةً ، مثل جدار الخضر .

***

في حارة المصبنة ، كان جاري العلوي صاحب الببغاوات الثلاث ، يثير غيرتي كل صباح ، حين يخرج طيوره العملاقة الملونة كي تتشمس في أرض الديار ، وكانت مياه البحرة حينها ، تتقلب تحت خفق الأجنحة الزرقاء والحمراء والصفراء . لا يمكن لمن كان مثلي مولعاً بالطيور ، أن يواصل نومه العميق ، بينما تصل صيحات الببغاوات عبر قضبان النافذة الحديدية بين الدقيقة والأخرى .

الغرفة البعيدة ذات الستارة الرقيقة الشفافة على الباب ، كانت غرفة ستناي ابنة الاثنين وعشرين عاماً . كانت ستناي غريبة الأطوار . رقيقة نهاراً ، وأقرب إلى الصبي منها إلى الفتاة . تتغير ليلاً لتصبح ملامحها أكثر نسوانية ، ويتحول سلوكها إلى سلوك عدواني . لم أكن أتدخل . هكذا هي الحياة في بيوت دمشق العربية الكبيرة ، كل يغني على ليلاه ، ولا يعدّل أحدٌ أنغام أغاني الآخرين .

لكن ستناي أيقظتني ذات صباح ، لم تقرع الباب ،

وجدتها تجلس قربي على السرير . كانت تبكي . أيقظني صوت نشيجها . اشتكت لي من فادي ، جاري صاحب الببغاوات الساحرة . قالت إنه يحاول التحرش بها ، وإنها لا تريد أن تستسلم له ، وطلبت مساعدتي في حمايتها منه .

حين حدثت فادي بالأمر ، نفى وأنكر ، وقال إنها عاهرة ، وإنه لا يمكن له أن يعجب بالعاهرات . أخذت منه وعداً بعدم التعرض لها . لكن فادي كان يتربص بستناي ، وستناي كانت تتهرب من فادي . قلت لها ، ماذا يعني اسمك؟ هل هو تركي؟ قالت : لا ، اسمي شركسي . ستناي كانت آلهة الجمال عند النارتيين الشراكسة ، وإن جدها هو السلطان الشركسي برسباي الذي كان مدفوناً في جامع يلبغا ، وإن الدهر مال بها وبأهلها الذين ماتوا وتركوها وحيدة عند عمتها ، قبل أن تهرب وتقرر السكن بمفردها هنا في غرفة في هذا البيت الكبير . لم تكن ستناي عاهرة ، كانت حالة ، وكان فادي لا يتحمل رؤيتها هكذا ، ولا يتخيلها سوى مملوكة من مماليك دولته .

***

- رن هاتفي . كان المتصل شموئيل موريه من القدس . كان سعيداً بصورة التقطها مع محمود عباس الرئيس الفلسطيني . أخذ يحدثني عن السلام ، وعن أن الإنسان اليوم بعد كل هذا الدمار الذي أصاب الشرق ، وبعد ظهور داعش وشبيهاتها من حكام وتنظيمات ، سيكون أمام خيارين ؛ إما أن يتفاهم سلمياً ،

أو ستفني البشرية ذاتها بذاتها .

***

لم أعرف من قبل ، صمتاً يشبه صمت تلك اللحظات ، أمام الزنزانة المعتمة في القلعة . صمت عميق . صمت ثقيل . صمت لا نهائي . دوامة صامتة . بئرٌ صامتة .

من عمق السواد الصامت بدأت ملامح شيخ مكبّل بالحديد ، تظهر رويداً رويداً ، أولها رقبته التي كان يحيط بها طوق من الفولاذ ، ويداه اللتان كانتا تنوءان بثقل سوارين غليظين من المعدن المخضر بفعل الصدأ والسنوات .

لم يستغرقني الأمر أكثر من لحظات ، قبل أن أتعرف إليه . ليس لأنني أعرفه من قبل ، بل لأني رأيت ما كانت تحمله أصابعه ، رقع جلدية مكتوبة بالحرف العربي القديم ، بخط سنبلي أقرب إلى الكوفي ، لكن حروفها لم تكن منقطة . وبسبب هذا فقط ، عرفته .

***

موريه عراقي يهودي ، شاعر عربي كبير وناقد يعدّ مرجعاً لكثير من الباحثين العرب . غير أنهم لم يكونوا يجرؤون على ذكر اسمه بين مراجعهم ، خوفاً من أن يتهموا بالتطبيع مع «العدو» . ذلك «العدو» كان يبكي حين تذكر أمامه بغداد ، أو حين تقرأ له شعراً عربياً قديماً ، وهو المتخصص في الشعر القديم . كان يتذكر الفرهوْد ، وكيف ضربه أحد المارة بسوط وقال

له «روح ولّي على فلسطين . إنتا يهودي» . كتبت عن موريه ما يلتقط تلك النقطة الزمنية والمكانية التي يمثلها . لطالما اعتبر نفسه نازحاً مهجّراً ، وليس مستوطناً إسرائيلياً . ولذلك غرق في تاريخ الجبرتي والأدب العربي ، كي لا ينفصل عن ذاته ويفقد هويته . روى لي موريه طويلاً ، تفاصيل عن سنوات طفولته في بغداد ، بداية الثلاثينات . حي البتاويين وبستان مامو . جدّه الحاخام مائير معلم رحمين صاحب كتاب «مقطتفات من كلام الرب» الذي طبع في مطبعة شوحيط في بغداد .

***

حالة هيبرالية ، أو واقع مختلط . هذا ما كان يحدث في سوريا . عدم تمييز الواقع عن محاكاة الواقع . ويحدث هذا في المجتمعات ما بعد الحداثية عادة . صحيح أن سوريا مجتمعها شديد التخلف ، حرصت السلطة الدكتاتورية على إبقائه متخلفاً أو بدقة ، على إعادته إلى الوراء لتتمكن من السيطرة عليه أكثر وأكثر ، غير أن سوريا طابع بريدي على خريطة كوكب الأرض ، وهي جزء من لوحة ما بعد حداثية عالمية ، أعراضها أعراض العالم .

أعراض ثقافية تنعكس في كل شيء في حياة الناس ، في الآداب والفنون والسياسة والجيش وعلاقات البشر في البيوت . كيف تفاعل وعي السوريين مع واقعهم؟ وكيف اعتادوا مع الوقت عدم التمييز بين الواقع والخيال . أحياناً تكون حالة

يصفها البعض بأنها نتجت عن حلول نسخة أخرى محل العالم الحقيقي الذي يعيش فيه الناس .

***

قلت لشموئيل موريه الذي يوقع باسمه العربي الأصلي «سامي المعلم» إنني كنت اليوم أراجع وثائقي التي جمعتها في الماضي عن إلياهو ساسون . فسألني على الفور :

ـ تقصد ساسون السوري؟

ـ نعم . ساسون الذي أصبح إسرائيلياً .

ـ نعم عرفت . هو ساسون السوري .

***

قبل تلك القوس الحجرية التي يعبرها طريق القلعة محاذياً للسروجية ، مستنداً إلى قبة مقام الصحابي أبي الدرداء ، كانت بسطات من نوع مختلف تفترش الأرض الدمشقية ، حيث يمكنك أن تشتري أختاماً وتماثيل وقطعاً نقدية رومانية وأموية وعباسية وسواها . أخذت ناصر من يده ، قدته إلى الطريق والقوس ، حيث بسطُ الريح والتاريخ .

قلت له : هنا لا ينام أبو الدرداء وحده ، بل يتمدد إلى جواره ابن قدامة المقدسي الشهير .

دخلنا إلى المقام الذي يسبح باللونين الأخضر والأبيض . أعمدة خضراء غريبة عن تلك البلاد .

قرأ ناصر الفاتحة وصلى ركعتيه . ثم طلب أن نغادر

مسرعين . في الخارج كان ثمة ما يبحث عنه . إنها بسطات الآثار والعملات والأختام القديمة . سألني كيف يبيعون هذه القطع دون خوف من الدولة؟ قلت إنها مزيفة . وإن وجد بعض منها أصلي ، فلن يطارده أحد ؛ لأن هؤلاء الباعة البسطاء يدفعون للشرطة كي لا تطردهم من قارعة الطريق .

***

كانت الدرجات التي تهبط إلى المكان في حي السادات تهبط بي أيضاً إلى المؤقت . لم يكن لديّ مكان . كنت أعبر وأعبر ، وكلما مررت من تحت باب جيرون دخلت طوراً جديداً يأخذني من نفسي إليها من جديد . حتى كان اليوم الذي هبطت فيه سلمى تلك الدرجات ذاتها .

***

إخاد وأنا في جدال طويل ، رغم الهزّات الأرضية الخفيفة المتقطعة التي تثير غباراً من بين لبنات الجدران . أصوات القذائف تأتي من بعيد .

ـ لم تكن فكرة انهيار برج بابل جديدة ؛ لأنه انهار من آلاف السنين . لكن استعارة انهياره لصبغ السرد بها ، هي التي كانت جديدة .

ـ نعم برج بابل كان سرداً وسياقاً ، والحضارة الإنسانية اليوم حضارة تحطيم وتقسيم واختصارات . برج بابل كان كمالاً

هندسياً . بينما تتجاور المعرفة اليوم بشكل عشوائي شديد التزاحم والفوضى .

ـ السياق هندسة ، والسرد هندسة ، والعمارة سرد وسياق عضوي . أنت تكتب بشكل هندسي ، من البداية .

ـ في الكتابة ، أواخر الثمانينات ، كان كل شيء ينهار ، وكنت أنشئ جملتي على الهندسة ، أو كانت هي تنشأ تلقائياً على هندسة صوتية وإيقاعية منتظمة ضمن نسيج النثر . كان محمود السيد يسميها حين يتحدث عن شعري ، جملة رؤيوية ، وكنت أراها هندسة عفوية ، قادمة من بنية معمارية معرفية قائمة أصلاً في اللاوعي .

كنت أرى نفسي أعلى من الشعر . لأن الشعر الذي كان يكتب من حولي آنذاك كان بدائياً للغاية . وحدها قصيدة الكردي سليم بركات كانت تتحدى ازدرائي للمنتج الشعري العربي .

ـ لكن قصيدة سليم بركات سردية .

ـ أنت تعتقد هذا ، وهو وهم تخلقه دقة اللغة وبنيانها . لكن ما وراء اللغة يصنع مشاهد فوضوية .

***

الصوت يرتد عن جدار الزنزانة في القلعة . سألته : لماذا تكتب بحروف غير منقطة؟

ـ لأن التنقيط إهانة لعقل القارئ .

ـ هل تفترض أن قارئك سيكون بوسعه التمييز بين الكلمات وأنت تقدمها له على هذه الحالة؟

ـ أفترض أن قارئي مثقف .

ـ وهل برهنت لك القرون أن قارئك مثقف؟

ـ لست أدري . أنتم تعرفون أكثر مني ، أنا أقف هنا خلف هذه القضبان ، وعالمكم مختلف .

***

فيا ريكتا

الأيام تمر ، بينما تتغير مجموعات الكتاب المهاجرين إلى دمشق ، غالبيتهم كانت من الشعراء . كانوا يستعملون الشعر مفتاحاً لدخول دمشق . ثم يتخلون عنه بعد أن تصبح لهم يوميات وحيوات في المدينة . امتياز دمشق أكتشفه اليوم ، حين كانت تلك المجموعات تعيش متجاورة في مكان واحد ، تحفر في المكان أنفاقها التي لا عد لها ولا حصر . خلايا تشتغل في كل شأن ، كان يفترض أن تضخ كمّاً هائلاً من المعارف في جسد الثقافة العربية والعالمية . لكنها كانت مشغولة بالفتك ببعضها البعض . وربما بتدمير ذاتها آلياً ، حتى تصبح مطابقة لانحطاط المجتمع والكيان المتآكل الذي بقي من الدولة . أصدقائي اليوميون ، في مرحلة ما ، كانوا جمال ورشيد ومعسرتي ، وكان معهم آخرون يتزايدون ويتناقصون . جمال كان دمشقياً من داخل السور . وكانت هذه عقدته ، فلم يستطع تجاوز مهارته في الحربقة والبندقة ، والحربقة والبندقة كانتا تهمتين توجّهان إلى الدمشقيين ، تشير بلؤم إلى كونهم من أحفاد أولئك التتار الذين يرّوج كارهو دمشق أنها كانت قد رضخت لهم . لذلك يقال «بناديق تيمورلنك» . لكن هذه

التهمة للمدينة كانت تتضمن تهمة أخرى للبشر ، وطعناً في أصالة سكّانها ، وموافقة ساخرة ضمنية ، على اغتصاب الدمشقيات على يد المغول . وهذا لم يكن صحيحاً ، فدمشق لم تتوقف عن رفض من أراد إجبارها على شيء لا يليق بها عبر الأزمنة .

***

«حراس الأرض» كان الاسم الذي أطلقته مجموعة من الكتاب والمثقفين العلويين المستوطنين في دمشق على ذاتها . شعراء وقصاصون وصحفيون جمعتهم الطائفة ، والحياة وفق نمط متشابه . فجميعهم جاء من الساحل السوري ، هذا لديه شقيق ضابط ، وآخر أخته زوجة لأحد أبناء أسرة الأسد ، وثالث عمّه ضابط كبير في الجيش . وهكذا . لكنهم كانوا يظهرون التحدي الخاص بهم ، بشعورهم أنهم منشقون عن النظام ، مختلفون معه . إلا أن هذا الاختلاف لم يكن يبرز سوى في تحديهم للسلطات الأخرى التي حمّلوا أنفسهم عناء محاربتها ، وعلى رأسها ما سمّوه بسلطة الجامع .

سلطة الجامع تلك ، لم تكن لتعترض على ما يفعلونه . لكنهم كانوا يرونها فقط بأعين عقولهم ، ويشعرون بتهديدها .

***

شُغلُ سامي المعلّم حول الجبرتي ، كان شغلاً في الفراغ المعرفي الذي صنعته السياسة في وعي أهل الشرق بشرقهم .

وكما كانت جدته مسعودة تدير مشغلاً صغيراً لتطريز المقصّبات بخيوط الذهب والفضة مع أكثر من ثلاثين امرأة ، كان سامي يدقق في أصغر التفاصيل التي وقف عندها الجبرتي في القرون العربية الغابرة الغامضة .

كان الجبرتي قد رأى العالم في القاهرة في الربع الأول من القرن السادس عشر . ومثلي تماماً ، كان يعتقد أن المئة سنة التي سبقت عصره ، مليئة بالغموض . ولن أستغرب ، ربما استغربت ، لكنني لن أفعل الآن ، وأنا أقرأ هذه الكلمات للجبرتي «أنها تستبهم عليّ (المئة سنة الماضية) ، وأما ما بعدها فأمور شاهدتُها ، وأناس عرفتهم . على أني سوف أطوف بالقرافات (المقابر) وأقرأ المنقوش على القبور ، وأحاول جهدي أن أتصل بأقرباء الذين ماتوا ، فأطلع على إجازات الأشياخ عند ورثتهم ، وأراجع أوراقهم إن كانت لهم أوراق ، وأسأل المعمرين ماذا يعرفون عمن عايشوهم» .

***

جمال كان حربوقاً مبندقاً ، حتى في الكتابة الشعرية والعمل الصحفي . وكانت مشكلته الكبرى أن حربقته وبندقته لا تنجحان على الإطلاق ، وأنه غير محبوب من النساء فوقها . لا كاريزما لديه . حيله كلها مكشوفة من اللحظة الأولى التي يلتقي فيها بأيّ امرأة . أما معسرتي القادم من الجزيرة ، فقد كان من المهاجرين الإيرانيين الذين استوطنوا شمال سوريا ، بعد

هجرتهم من تركيا ، من فوق الخط ، كما كانوا يسمونه . وذلك الخط ، كان سكة حديد قطار الشرق السريع ، التي ربطت ما بين برلين وبغداد ، ثم أصبحت هي الحدود التركية السورية .
كان رشيد يتحدث عن معسرتي بنبرة سيئة جداً ، لكنه كان يظهر له المودة والمحبة ، ولطالما قال لي إن معسرتي يستعمل الشعر ليغسل نفسه من قذاراته الأخلاقية . فلم يبق فعل مدنس إلا وكان قد تعمّد اقترافه ، كي يتميّز عن الآخرين ، بينما سمحت له ولجيله تنظيرات قام بها بعض مثقفي البعث ممن سلّمتهم المخابرات مسدسات كانوا يضعونها على خصورهم ، أيام أحداث حماة وحلب بداية الثمانينات ، لأنهم من حراس النظام الثقافيين . تلك التنظيرات أسست لما عرف بالكتابة اليومية ، عن البساطة والحذاء والساعة ، مقابل التخلي عن الكتابة عن القضايا الكبيرة ؛ الحرية والعدالة والتغيير الثوري والأبعاد الإنسانية . فنتج عن هذا شعرٌ غاية في الرداءة ، لا تتجاوز مهمته تسلية القارئ ولفت نظره . شعر يشبه الأغاني الخفيفة ذات الإيقاع المتشابه والكلمات التي لا يتوقف عندها أحد . وهكذا كان على معسرتي وصحبه أن يضيفوا إلى ما يكتبونه شيئاً من الإثارة ، ولأنهم لم يكن لديهم ما يثير حقاً ، فقد كانت بضاعتهم خرق القيم والفوضى والتشبه بالشعراء الصعاليك ، مع أن كبار الصعاليك في التاريخ العربي لم يتخلوا عن قيم الفروسية .

معسرتي ورشيد كانا نقيضين عرقياً ، لكنهما كانا متشابهين في أعماق كل منهما . واحدٌ يتهم الآخر بأنه يرقص لزوجات الضباط وأبناء المسؤولين ويسليهن ويرفّه عن أزواجهن . والآخر يتهم الأول بأنه يفعل المستحيل ، كي يقدّم صورتين ، الأولى ناصعة مزورة عن مؤسسات النظام ، والثانية بريئة معاكسة لأعماقه الداكنة . وكمستقل سياسياً ، كان يساوم على الظهور ماشياً على كل الحبال ، فلم يكن يتردد في كتابة مرثية بابن حافظ الأسد باسل ، وبحافظ الأسد نفسه بعد إعلان موته . علاوة على شغله بالباطن مع متعهدي الثقافة العلويين . لكنه وصل أخيراً إلى حزب الله اللبناني ، واكتشف قدرته على خدمة إعلام ما يسمونه بالمقاومة من داخل دمشق .

***

ضمت مجموعة «حراس الأرض» كلاً من آصف ووديع وحسين وآخرين . كان آصف موظفاً بسيطاً في مؤسسة الإسكان العسكرية ، في فرعها في دمشق . لكنه كان يحب القراءة ، وقد ساعده جيران له في حي القابون ، حيث كان يعيش مستأجراً ، على التعرف على الكتب الروسية والقصص والروايات . كان هؤلاء الجيران أعضاء في الحزب الشيوعي السوري ، من جماعة رياض الترك المغضوب عليها . معظمهم دخل المعتقل لاحقاً ، لكن آصف لم يسجن أبداً ، فقد كان مجرد صديق لهم ، ولم يكن عضواً منظماً في يوم من الأيام .

كان آصف قصيراً وسميناً ، أنفه أضخم أعضاء جسمه . يطيل لحيته ليبدو يسارياً . ويدخّن الغليون ليتشبه بالمثقفين العالميين . كان يشعر بالغيرة من وديع الذي تفوق عليه في التعرف على الثقافات الغربية . وديع لم يكن موظفاً أبداً ، لم يكن بحاجة إلى وظيفة ، فقد كان دخله يصله من أقاربه في المخابرات والجيش ، بشكل شهري . وكان هو يستمتع بصرف المبالغ التي تصله على شراء الكتب والسهر اليومي . حسين كان صحفياً دخل حزب البعث ليتمكن بواسطة أقاربه النافذين من الحصول على وظيفة في إحدى الصحف الرسمية . قدّم نفسه على أنه الصوت الجريء في الطائفة العلوية ، فكان ينتقد المسؤولين بشكل دائم ، ويدخل معهم في معارك عبر مقالاته . وبالطبع لم يكن بين أي من هؤلاء المسؤولين الذين انتقدهم مسؤول واحد علوي .

***

مشينا من الشعلان إلى التكية السليمانية . ودخلنا من الباب الكبير ذي الدرجات ، وصولاً إلى مرسم ناجي . أخرج ناجي ورقاً أصفر ، مربوطاً بخيط مسودّ من زيت اليدين ، معقود من المنتصف . كان بوسعه أن يقص الخيط الغليظ بمقص أو سكين مجاور ، لكنه أصرّ على حل العقد ، واحدة وراء الأخرى . يداه كانتا تتجاوزان سنّ التسعين . عروقهما تتدفق عبرها الأسئلة القادمة من مدينته . لم يعثر على إجاباتها في

دمشق . لكنه بقي فيها ، يحل العقد ، من خلف نظاراته الذي يظن من يراها أنه أعمى . غير أنه كان يريد أن يرى العالم من خلف زجاج معتم . هكذا كان يريد .

***

رشيد يتحدر من قرى متناثرة صغيرة في ريف الحسكة . كان معسرتي يقول عنه إنه بعيرٌ يحكّ جلده بشكل لا إرادي . يتهمه بأنه قلّد الشعراء السوفييت ، وقلّد رياض صالح الحسين ، لكنه في النهاية ، اتجه إلى كتابة الرواية ، مستعملاً الآلية ذاتها للفت النظر ، قال معسرتي : هذا كائن مشوّه . هل يعقل أن تكون أكبر فتوحاته في رواية من رواياته ، سرده متباهياً ، للكيفية التي كان يمارس بها الجنس مع الحمير في طفولته وصباه في قريته البعيدة؟ .

مناقب رشيد ومعسرتي ، ظهرت مع مرور الزمن ، لينضافا إلى غيرهما من أشباح دمشق التي لم تكن تستطيع لمس الأشياء بأيديها ، غير أنها كانت تسبح بفجور بلونها الرمادي الشاحب ، فوق ألوان المدينة المشعّة .

***

شجرة الكينا العالية ، خلف القوس الحجرية في طريق القلعة ، كانت تعصف من سمائها . أغصانها تهطل بورقها الأخضر الفضي الذي يشبه السيوف ، وخرزاتها الصغيرة تتساقط فوق بسطة الرجل مقطوع الساق ، الذي افترش الأرض

مستظلاً بالجدار الشاهق لقلعة دمشق . لم يكن السور الحديدي والحديقة الصغيرة حول شجرة الكينا قد أنشئا بعد . كان الجدار هو الفضاء . ولا شيء بينه وبين النهر سوى العابرين فوق الصخر الأسود . أطال ناصر الحديث مع الرجل عن القطع التي يبيعها . وفي لحظة قال له : هل تبيعني كل ما لديك هنا؟ فرح الرجل ذو الساق الواحدة وقال نعم ، ولكن هذا سيكلفك مبلغاً كبيراً . فقال ناصر : لا مشكلة سأدفع كل ما تطلب .

***

«وقع يوم 31 تموز يوليو من العام 1950 اعتداء ذهب ضحيته سيادة العقيد محمد ناصر ، آمر سلاح الطيران السوري ومن أعضاء القيادة في الحزب السوري القومي الاجتماعي . أطلق عليه الرصاص المقدم إبراهيم الحسيني رئيس الشعبة الثانية في مخابرات الجيش ، وشاركه بالاغتيال الملازم عبدالغني قنوت من ضباط الشعبة الثانية ، وهو من جماعة أكرم الحوراني ومن مدينة حماه أيضاً» .

قال ناجي : هذا هو المكتوب في هذه الورقة ، اقرأ . حينها اتهموا العقيد أديب الشيشكلي بأنه وراء الاغتيال .

ـ وهل كان الشيشكلي فعلاً هو الذي أعطى الأوامر؟

ـ يا سيدي الكل مجرمون . اقرأ «تم تشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة المتهمين . وحضر من جهة الدفاع عنهم المحاميان سامي الصلح وإميل لحود ، والمحامي السوري خليل

كلاس من أنصار أكرم الحوراني . وبرأت المحكمة المتهمين» .

ـ من الذي قتل الرجل إذاً؟

ـ من كان يحكم سوريا .

***

سلمى كانت تركيباً جينياً غريباً ، خليطاً من ملامح إيطالية وأخرى ساكسونية ، مع أنها عربية ، لكن دمشق يمكنها أن تلد مثل هذا وغيره . لذلك كنت أرى فيها أول مرة نزلت فيها الدرجات في حي السادات ، مونيكا بيلوتشي و روزموند بايك معاً . وجهها وجسدها كانا يحضران مونيكا ، وروحها وعيناها تجلبان روزموند . كنت أعيش سينمائياً ، في الصورة والمشاعر والأصوات .

***

بعد إعلان موت ابن حافظ الأسد الأكبر في حادث سير ، كما أشيع ، فرّت مجموعة «حراس الأرض» من دمشق ، وانقطعت أخبار أفرادها . وحين استقر الأمر بعد مرور أسابيع ، ظهروا من جديد . جاء وديع إلى بيتي ليخبرنا بالأجواء الحزينة بين العلويين . قال إنه كان مع بقية المجموعة في زيارة للأهل في قرى الساحل .

بعد أن عادوا قرروا الانفتاح على المثقفين الآخرين ، على ما يبدو ، الانفتاح النسبي بالطبع ، بعد أن كانوا كتلة صماء مغلقة ، سواء في بيوتهم أو في المقاهي . شيء ما تغيّر لدى

«حراس الأرض» ، وكأن الطمأنينة التي كانت تعيش بالتوازي مع وجود وريث أكيد للأسد الأب ، زالت بعد مقتله . وجاء الآن وقت الاستثمار في الآخرين من بقية الطوائف . كان مقتل باسل الأسد حدثاً عظيماً بالنسبة إليهم ؛ إذ من هذا الذي يجرؤ على توجيه ضربة بهذا الشكل إلى حافظ الأسد؟ حتى لو كان القدر ذاته .

صار آصف يتصل بي ويلح على أن نلتقي دوماً . بينما أخذ حسين يكثر من الشكوى من تدهور الأحوال العامة في البلاد ، ويصب لعناته على من بدأ يسميهم «الحرس القديم» ، وكان يقصد الرجال المسنين في نظام حافظ الأسد ، مثل علي دوبا وعلي حيدر وآخرين ، جنرالات الصعود في السبعينات والثمانينات .

المشي جزء من تقاليد دمشق اليومية . أثناءه تحصل أمور كثيرة ، وتقرأ العين ملايين التفاصيل . أخذني آصف معه لتدشين منزله الجديد ، الذي قال إنه قيد الإنشاء الآن . لم أكن قد زرت مناطق مثل هذه في دمشق من قبل ؛ إذ بعد أن وصلنا إلى آخر نقطة في حي المزة ، قال آصف إن علينا أن نمشي الآن صعوداً . كان الغروب قد بدأ ، ولا يكاد يظهر من المنظر الشتائي سوى نهايات المباني العالية في المزة ، بعدها يبدأ طريق ترابي حوّله المطر إلى بحار من الوحل .

خضنا في المياه الموحلة ، حتى انتهت المباني ، ليبدأ صوت

صفير الجنادب بمرافقتنا خطوة خطوة .

***

فيا ريكتا . طريق التمدّن الأبدي ، الذي كان لابد من ذرعه في دمشق ، لم تعد التماثيل الرومانية تقف على جانبيه لتحيتك وأنت تعبره ، أقواسه غابت ، بعضها صعد إلى السماء ، وبعضها الآخر هبط تحت الأرض ، ليعثر عليه لاحقاً ، ويستعمل في عمارة المدينة . قوسه الغربية رآها ابن كثير وكتب عنها . لكنه لم ير كيف غارت في عمق الشارع المستقيم ، لتكوّن مدينة أخرى تعيش في الأسفل ، تجوب شوارعها ومبانيها أشباح الأوّلين .

***

ـ شوف هذه الورقة «تفاقم الصراع بين أقطاب البعث والشيشكلي . وحاول ميشيل عفلق وأكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار تحريض القيادة العسكرية على القيام بحركة انقلابية للإطاحة بالشيشكلي . بعد أن منع نشاط الأحزاب السياسية ، وعهد للعقيد عدنان المالكي القيام بهذه الحركة» .

***

أوراق هائل اليوسفي التي أخذتها معي إلى البيت ، لم تغادر تفكيري طيلة الطريق . وعلى الدرجات المئة إلا قليلاً ، كنت أسارع إلى إخراجها من مغلفها دون أن أنتظر الوصول إلى باب البيت . محاضر التحقيقات مع الجاسوس كوهين ، وتصوير

ذلك الزمن ومناخه وشخوصه ، واللغة التي كان الأبطال يتحدثون بها ، بالإضافة إلى الصور القديمة بالأبيض والأسود . كل ذلك يمثل مائدة شهية لعقلي . لا يبدو أن أيّ مؤامرة كانت تحاك ، بل كانت الأمور أوضح من الشمس ، وكان ضحيتها رجلٌ واحد ظنّ أنه بطل قومي ومناضل من أجل حرية شعبه وتحقيق حلمه ؛ اليهودي الشرقي إلياهو كوهين .

***

في ظلام المكان الذي تنيره قليلاً أضواء قادمة من بعيد ، ظهرت من العدم فجأة قرية صغيرة كاملة ، بيوت بدائية المعمار ، أزقة ، وتلال صغيرة ومنحنيات ، دكاكين وباعة يجلسون على مقاعد صغيرة أمامها ، أطفال يتراكضون في الوحل ، ونساء بأزياء شعبية .

قال آصف : «سنصل لا تقلق . اقتربنا» . وفي طريقنا مررنا على هضبة يقطعها حاجز عسكري ، قال إنه يتبع لرجال رفعت الأسد ، وإن هذا هو مقر قيادته . بيت آصف الذي وصلنا إليه ، كان غرفة واحدة ، مبنية من قطع الطوب المصفوفة ، سقفها من خشب مغلف بالنايلون الشفاف .

ـ كيف استطعت أن تتملك أرضاً لتبني عليها بيتاً في دمشق .

ـ الأرض مشاع . فقط عليك أن تحضر مواد البناء ، وترفع أساسات بيتك .

ـ هل يمكن لأي أحد فعل هذا هنا؟
ـ لا بالطبع . ليس أي أحد .

***

اللقاء الدائم كان في مطعم النورماندي ، بعد أن تحوّلت اللاتيرنا إلى مطعم فخم يصعب على المثقفين ارتياده ، النورماندي لم يعد موجوداً بدروه الآن . كانت رائحة التعرق تفوح من معسرتي ، ممتزجة بلون بشرته الأزرق . وكان رشيد بعينيه البدويتين الجاحظتين ، ينظر بعدم ارتياح إلى كل صورة يراها ، وكل شخص يقابله . لم ينفعه مظهره المحدّث ، ولا شاربه ولحيته المحلوقان بشكل يومي مفتعل ، ولا لهجته الشامية المصطنعة المضحكة ، التي تخلط اللكنات والحروف . كانت الصبغة الرخيصة التي يضعها على شعره تسيل على صدغيه ، لتجعلني كلما نظرت إليه ، أراه بثوبه المرقّع إياه ، الذي كان يتنقل فيه بين بيوت الطين ، متلصصاً على الفلاحات ، منتظراً غفلتهن كي يستفرد بحميرهن في الزوايا المهجورة . جمال كان أكثر رقياً من هذين الكائنين ، أقرب إلى البراءة والسذاجة منه إلى مكر الدمشقيين . لكنه كان يحاول ويفشل كل مرة ، كما كان يفشل مع النساء ، كان يفشل في كل شيء . أما الاسم الغريب لمعسرتي ، فقد كان يجذب انتباه الآخرين . ماذا يعني اسم معسرتي؟ وبطريقة لفظه تلك ؛ «مَعْسَرْتي» ، يصبح أقرب إلى اسم فارسي منه إلى كلمة مفهومة .

غير أن جمال الشامي ، المصاب بمرض النوم المفاجئ ، كان أقرب إلى الإنسان الطبيعي ، ابن الحياة العادية . كنتُ الأكثر غضباً بين الأربعة . جمال جمعتني به صحبة لحظات مشتركة ، ولذلك كان يشعر أن علاقتي به لا مفر منها ، حتى لو سخرت من أفكاره ، أو اصطدمت معه حول أمور كثيرة . لكن رشيد ومعسرتي كانا يصران على صداقتي ، على الرغم من خلافاتنا الدائمة . كان كل واحد منهما يجد لديّ ما ينقصه . وما كان ينقصني أنا ، هو المزيد من اكتشاف البشر والحجر في مدينتي المسكونة بالشياطين .

***

قدم لي آصف عرقاً مقطراً جلبه من قريته البعيدة ، وكرتين من جبنة الشنكليش الساحلية أيضاً . لم يكن لديه غير هذا في بيته . قرأ لي من قصصه التي يكتبها دون أمل في النشر . قال إن الإسلاميين يسيطرون على مؤسسات الدولة الثقافية ، وشتم وزارة الثقافة واتحاد الكتاب .

دقت أيدٍ ثقيلة على الباب . لم يكن ثمة باب في بيت آصف . كان لوحاً من خشب صناديق الخضار المستعملة ، مدّ آصف يده ليفتح الباب دون أن يتحرك من كرسيّه ، فمساحة الغرفة كانت صغيرة جداً بحيث لا تحتاج للحركة إن أردت تناول أي غرض أو فعل أي شيء . كان صوت الطارقين على الباب يسبق صورتهم «آصف . .آصف . .آصف . . .وينك؟» لم

يكن هذا نداءً عادياً . كان صياحاً ، مثلما يهتف أحد من جبل إلى جبل آخر .

***

وثيقة أخرى من وثائق ناجي تقول « . . . وفي الساعة الرابعة من مساء يوم الجمعة 22 نيسان من سنة 1955 اغتيل العقيد المالكي أثناء رعايته لمباراة في كرة القدم بين فريق الجيش السوري وفريق سكة الحديد في مصر . قام الزعيم شوكت شقير رئيس الأركان العامة ، على رأس وفد يمثل قيادة الجيش ، يرافقه الرائد عبدالحميد السراج ، بزيارة منزل العقيد المالكي لتقديم التعازي لشقيقه رياض ، الذي تهجم على شقير وقال له : أنت قتلت أخي عدنان» .

ـ لماذا أرادوا التخلص من المالكي؟

ـ لم يرغب المالكي بحضور تلك المباراة ، فقد كان يعتبرها حدثاً سخيفاً . لكن كان هناك من يريد له أن يحضرها كي يتم تنفيذ الاغتيال .

ـ مثل من؟

ـ محمود رياض ، السفير المصري في دمشق ، اتصل قبل بدء المباراة ، وقال لشقيقة المالكي التي ردت على الهاتف : أريد أن أتكلم مع العقيد عدنان . فقالت له : أخي عدنان سافر إلى صيدا واليوم جمعة ، وهو أعطى لنفسه إجازة في هذا اليوم ، للقاء خطيبته اللبنانية هناك . لكن رياض ألحّ عليها قائلاً :

قولي له إن الرياضيين في انتظارك ، فلا تخيب رجاءهم بالحضور ، فالمباراة بالنسبة إليهم هامة ، والحضور عمل قومي ، ولا سيما أنهم مروا قبل قليل ووجدوا أن السيارة أمام الباب . إن مصر تحب أن تراك .

***

ظننت أن الشيخ مجرد تمثال شمع . كان تمثالاً من لحم ودم . رفع جفنيه ناظراً إليّ ، كان هادئاً ولكن عينيه كانتا نبعتي ضوء ترسلان الأسئلة . أسند ظهره إلى جدار زنزانته في القلعة ، فأوجعته آثار السياط حين لامست الحجر الكبير خلفه . وحين حدثني عن حروفه التي لا ينقطها ، عرفت أنه سيبدو كما بدا ، متعالياً وممتلئاً بالقناعة بفلسفته الخاصة .

***

«مواقف النفري» كان الكتاب الثمين الذي حصلت عليه من ناصر ، ليس لمحتواه المطبوع ، بل لأن النسخة التي صورتها من ناصر ، امتلأت بالملاحظات والنجوم والخطوط . أخذت الكتاب إلى وراقي المدينة ، وجلّدته بغلاف مذهب مكتوم العنوان . لم يكن سريّاً . لكنني أردت أن يبدو كذلك . كان ناصر يحاور النفري على حواشي كتابه ، وكنت أقرأ النصين ، نسخة بيد ناصر ونسخة بيدي . وكان صوت تلك الموسيقى يعبر الليل الفراتي إلى البعيد . ناياته تطفو فوق موجات النهر .

موسيقى «نى نوا» التي وضعها الإيراني حسين عليزادة .

كلمة «نى» تعني بالفارسية «قصب الناي» وكلمة «نوا» تعني «لحن» ، لكنها كانت بالنسبة إلينا تعني «حرائق نينوى» ، وكان الإصغاء إليها في ذلك الزمن غرقاً من نوع خاص ، وتأملاً فردياً لا مثيل له .

***

في الفيا ريكتا ، قرب كنيسة حنانيا في باب شرقي ، لا أسمع ني نوا . ذهبت مع الملفان نوري إسكندر إلى حلب . أخذته إلى كنيسة الرهاويين ، لتتبع آثار مار أفرام الجزراوي مثلنا ، واضع الألحان الكنسية التي صنعت موسيقى المشرق بصورتها التي نعرفها اليوم ، في الطريق الحلبي بين الحارات العتيقة ، قررنا الرحيل إلى الفرات ، هناك حيث كانت طفولته ، دير الزور والجسر المعلق . جرت مياه النهر تحتنا ، كما جرت الدماء الأرمنية والسريانية والكردية والعربية في عروق الملفان .كان ما يمكنك سماعه قرب حنانيا ، موسيقى نوري إسكندر الذي جذبته دمشق أخيراً ، وصوت الخطوات الذي يرتد عن الجدران الحجرية ، كانت خطواتنا الأولى سلمى وأنا في ليل دمشق المفتون والفاتن في آن معاً . مار أفرام ولد على بعد أمتار من المدينة الشطرنجية التي ولدت فيها أنا . كانت نصيبين توأم القامشلي ، وفيها ظهر الملفان الأكبر ، موسيقى المشرق ومقاماتها الثمانية التي رفعها مار أفرام إلى مقام الصلوات ، كما في «موعظة الحزن» أو كرزوثا دحشا ، كما

يسميها السريان ، كانت ترافقني دونما سبب . لا شيء يفرض المسحة الكئيبة . لكنها كانت جزءاً من طابع الزمان والمكان الذي جئتُ منه .

كانت سلمى تسير بجواري ، بالكاد يلامس ثوبها يدي كل خطوتين . كان عالمي يرتعد ، تهوي فيه أشجار كينا وصنوبر بعيدة ، وتفزّ منه أسراب طيور صغيرة حمراء وزرقاء . سنوات طويلة ، انفصلت فيه حواسي عن الآخر ، وصرتُ أعيش وحدي في تمثال الخزف الذي أراه في مرآتي كل صباح .

***

كان وديع وحسين قد جاءا ليحتفلا ببيت آصف الجديد . لم يطل بنا الوقت حتى دخلنا في نقاش حول اضطهاد العلويين عبر التاريخ . كانت تلك الأحاديث أشبه باللطميات الدائمة ، نواحٌ على أساطير وعذابات ، لا تخلو منها كل جلسة . ولم يطلع علينا الصباح حتى كان التاريخ قد أصبح دموياً كفاية ليبرر سخط الثلاثة على الواقع ، وعلى المتسببين به . صوت مؤذن حي جامع «الهدى» يرفع أذان الفجر ، كان مزعجاً لحسين الذي قال متأففاً «هذا صوت المآذن قد بدأ» . شاركه وديع امتعاضه ، لكنه تابع يقول «داءٌ ثَوى بِفُؤاد شَفَّهُ سَقَمُ/ يا مَحنَتي مِن دَواعي الهَمِّ وَالنَكَدِ/ بِأَضلُعي لَهَبٌ تَكوي حَرارَتُهُ/ مِنَ الضَنا في مَحَلِّ الرَوحِ بِالجَسَدِ» .

فعلق آصف طرباً : الله يا مكزون يا سنجاري . هذا هو الكلام .

***

جلب معسرتي معه ، ذات ليلة ، واحداً من أصحابه الصحفيين القادمين من قرى حمص العلوية ، من ذوي العلاقات الأمنية . كان معسرتي حريصاً على إرضاء هؤلاء ، فهم يقدمون له الخدمات والدعم والواسطة ويحمونه عند المخابرات . جلسنا في النورمندي ، الذي غيروا له اسمه في ما تغير من دمشق ، فصار «الريس» . قال الضيف الذي كان اسمه نضال ، بصوت جهوري وهو يشفط من كأسه البيضاء مصدراً صوتاً بغيضاً : يجب أن نقف ضد ممارسات هذا النظام . يجب أن نطلب من كل الكتّاب والمثقفين الشرفاء توقيع صك براءة ، يتبرأ كل واحد منهم فيه من طائفته ومذهبه .

***

فكرة النفي وحدها ، كانت علامة على نقاء المنفيين . لعلها كانت هي الأخرى نوعاً من الوهم . لكن منفاهم بعيداً عن سوريا ، كان يعني أنهم غير متوافقين مع النظام السياسي والاجتماعي الذي ساد على مدى عقود .كانوا محرومين من المكان ، لكنهم كانوا محرومين بإرادتهم .

لم يكن لدى السوريين العرب ، أمثولات منفية قادرة على جر الباقين في الداخل نحو حالة أعلى من الوعي . كما كان

لدى الأكراد ، على الأقل حالة سليم بركات . كان الجميع يرتاح لحزن الضحايا العميق ، فاستولى الاكتئاب على الجميع .

ما هو الجدير بالتعلق به؟ صورة غيفارا على الحيطان . كانت إشارة في كل مكان ، في الغرف الفقيرة في الدويلعة وركن الدين والمخيم ، لكن غيفارا كان مثالاً مقتولاً . أردنا مثالاً حياً فلم نعثر عليه .

***

الرخاوة التي بدأت تهيمن على شخصيات غالبية المثقفين ، كانت تثير الغضب . فلا شيء يجعلهم يرسمون الحدود الواضحة والحاسمة بين الأفكار . كان القبول بكل شيء ، باسم التفكير الجديد الذي هجر الأيديولوجيا ، يجعل منهم وجوهاً بلا عضلات ، وجوهاً محقونة بمخدر يجعلها لا تتأثر .

حين سمعت كلام نضال ضيف معسرتي ، انفجرت غاضباً ، قلت : ما علاقة الطوائف بالمثقفين والكتابة؟

قال جازماً : كل الذين استفادوا من طوائفهم عليهم أن يعلنوا براءتهم منها .

قلت : أنا لم أستفد من طائفتي ، ولا أراها طائفة أصلاً . ولذلك لا ضرورة لأعلن براءتي منها واتهامها سلفاً بأنها دعمتني .

غمزني معسرتي بعينه ، وضحك ضحكة فاجرة وقال :

أرجو أن تهدأ يا إبراهيم ، والله صديقنا معه حق .

قلت إني لن أكون مع أناس يريدون غسل أنفسهم من تلوث سابق ، إن كانوا قد استغلوا طوائفهم ، وخاصة العلويين منهم ، فنحن لم نتلوث بهذا ، ولذلك لا نحتاج لغسل أنفسنا وأسمائنا .

ونهضت ، ولكن قبل أن ألملم علبة سجائري وأغراضي ، كان نضال صاحب معسرتي العلوي يقول : أنا أقول لك من هذه اللحظة ، حين ستنفجر الأمور سأكون أنا في خندق وأنت في الخندق الآخر .

نظرت إليه باحتقار ، والتفتُّ خارجاً . لحق بي رشيد ، قال هامساً : عليك أن تكون أكثر هدوءاً . هؤلاء بإمكانهم أن يتسببوا لنا بمشاكل نحن بغنى عنها . أما جمال فقد وصل إلى الباب حيث نحن ، وقال : اتركونا من هذه الزبالة ودعونا نذهب إلى مكان آخر .

مشينا نحن الثلاثة ، في الصالحية ، قال رشيد وهو يمسح جبينه بمنديل من أثر الخيط الأسود الذي سال من شعره فجأة : أصلاً لو كان في معسرتي خير ، لما أقام علاقة مع فتاة تشبه ابنته ، هذا عيب .

ـ نحن أين وأنت أين؟ هل هذا وقت تفكر فيه بشكل صاحبة معسرتي؟

ـ هذا أمر أساسي .

أيّد جمال رأي رشيد : لكان؟ هذا أمر أساسي . عيب .

وبقيت أفكّر في قذارة معسرتي ، الذي كان يجب على أبو ماهر أن يخلصنا منه ، وأبو ماهر هذا كان مغسّل موتى ، لكنه كان يجالس المثقفين . لديه مهن عديدة ، مقرئ في الجنازات نهاراً ، وسكّيرٌ ليلاً . وفي أوقات فراغه ، كان يقدّم الخدمات الإسعافية للفلاحين في غوطة دمشق . كانت تلك الخدمات تتجلى في القراءة على الأفاعي المختبئة في البيوت الطينية .

«باسم العهد الذي بينكم وبين سليمان . . .سيس سيس سيري» كان يشرح لي ما يقوله للأفعى ، كي تخرج من شقوق السقوف الخشبية لبيوت الفلاحين ، وهو يشرب من كأس العرق ويوضّح خبراته الروحانية ، متمتماً بكلمات وتعاويذ يقول إنها ليس عربية وحسب ، بل سريانية أيضاً .

***

ـ صديقي إخاد الليل الذي يختبئ فيه الناس بين المرجة والسروجية . كان سواداً مطبقاً ، ينيره فانوس من بائع خضار متأخر هنا ، أو عربة لبيع الشواء للمارة هناك . ليل طويل يندفع من أعلى السنجقدار ، نازلاً عبر محلات للشرب تزاحمها أصوات الطيور والحيوانات التي حبست خلف غلقات دكاكين السوق . كان ليلاً طويلاً . هل تعلم أني أستطيع العثور على نفسي في خرائط غوغل ، كلما فكرت في أيّ شبر من أرض دمشق .

ـ ماذا يمكن لواحد مثلك أن يفعل في سوق «العتيق»؟

ـ الكثير . إقامة صداقات مع الباعة الذين سيبكون بعد سنوات أمام محلاتهم حين هدمت السلطة سوق القرماني . البحث عن القاع . الإصغاء إلى حديث الليل بين المتشردين . مراقبة الأبنية القديمة . بيت أتاتورك مثلاً .

***

أنا أتاتورك سوريا ، فرضتُ العلمانية بالحديد ، ومدّنت الشعب . الريف الذي يستحق الحياة بات هو السيد ، والمدن التي يسكنها المائعون صارت ملعباً للقادمين من الجبال .

يقول هذا دون أن يحرك لسانه وشفتيه ، في غرفته البيضاء المعزولة .

***

كان «حراس الأرض» بالنسبة إلي ، قرية محاطة بالأحراش بحاجة إلى الاكتشاف . ولكلما تكررت لقاءتنا ، كنت أتيقن أكثر من عدم قدرتي على بناء صداقة حقيقية مع أي منهم . كان يفصلنا حجاب سميك فرضوه بأنفسهم ، حجاب لحمايتهم من التغيّر . كنت أسخر من التسمية ، «حراس الأرض! . . هذه ذهنية عسكرية باطنية» ، وكانوا يأخذون الأمر على محمل الجد ، ثم لا يلبثون أن يتفهموا سخريتي .

***

أرى شجرة الدلب العملاقة التي يأخذني إليها درب جوزة الحدباء . كان شاعرٌ سوري مجنون يحدثني عن أخيه الأكبر في ليلها ، كان مسحوراً به . محمد الذي صعد بي من زاوية الباشكاتب إلى مصطبة أمّه في مراتب المهاجرين العالية . تحتنا تنبسط المدينة كما لو كانت كوكباً في مجرة أخرى . لم تكن الشجرة التي عرفت بجوزة الحدباء موجودة . وعلى الرغم من هذا ، فقد كنت أراها كل مرة ، أمرّ فيها بجوار مكانها القديم ، وأرى الباب المحفور فيها والغرفة الصغيرة التي يسكنها الصوفي في جذع الشجرة الهائل .

المكان الذي كان بحد ذاته شجرة عصافير لا تهدأ ، صار حريقاً يومياً يفتك بالبشر والحجارة المتبقية من مبانيه القديمة . في ليلة من ليالي القرماني ، حصلتُ على قرن وعلٍ مطوّق بالفضة من صديق سوري من المهاجرين الشيشان القدامى ، تحيط به سلسلة تدور حول يدي . حملته معي سنوات في حقيبتي الجلدية ، وحملته بعدها في سفري . كان يكفي أن أضع شفتي على حافته ، حتى أسمع صوت الوعول في جبال القفقاس والرياح التي تضرب الجروف الصخرية هناك .

كان ذلك القرن المفضض معي ، قرب حنانيا ، في موعدي الأول مع سلمى ، لكنني لم أخرجه من حقيبتي . في تلك اللحظة شعرت أن عليّ ألا أفلت من يدي هذه الغزالة الجبلية ، كما أتمسك بيدي الأخرى بقرن الوعل القفقاسي . جدلٌ

سحري من صور الحب ، بين الحرية والسفر إلى الآخر . بين الليل والفجر الخفيف عند خط الأفق .

***

تواسط لي كاسر عند عبدالمنعم ، وهو فلسطيني كان يعرفه من سنين طويلة في المخيم ، لأعمل في ورشته بأجر أسبوعي . كانت ورشته معملاً لصب التماثيل الكلسية ، وكان فجر الكلس بارداً وقاسياً ومعتماً . لكن قوالب الأشكال البدائية التي كانت تنتجها الورشة كانت تخفف ارتعاش البدن ، كنت بحاجة إلى العمل ، وكان الكلس يتجمع على أظافري ، فصرت مع الوقت أرى يديّ تتحولان إلى يدي نحات ، رغم أني لم أكن أنحت شيئاً . كانت التماثيل رديئة للغاية ، قوالبها بشعة . كان يمكنها أن تكون أفضل . لكن شيئاً ما يتعلق بزبائن هذا النوع من البضائع هو ما يحدّد شكلها ، فإنتاج الورشة يجري توزيعه على بسطات على الأرصفة المحيطة بكراجات السفر إلى المدن والأرياف المحيطة بدمشق والبعيدة عنها ، وكان هؤلاء المسافرون من درجات ثقافية متواضعة ، لذلك دأب عبدالمنعم على صناعة تماثيل تماثل أذواقهم .

***

كانت دمشق يا إخاد تزدحم بالبشر ، يوماً بعد يوم . هدوء شوارعها يجعلك تميّز أصوات الملاعق الصغيرة التي تحرّك الماء في ركوات القهوة الصباحية ، عن أصوات الزمامير . بدأت

تكتظ بالقادمين . سكنها السفلة والرعاع واللصوص ، أقام في بيوتها ذات الأبواب العالية والمندلونات المشرقة ، مجرمون وقتلة وقطاع طرق . كان الخارجون عن القانون فيها هم فقط مستولوها ، وهؤلاء كانت لهم مكانتهم المحفوظة . بائع سبحات الكهرمان في الصالحية ، الذي يغني بصوته العاري مردداً كلمات اليسر والنارجيل ، حل محلّه بائع الدخّان واليانصيب الذي تحميه المخابرات . أماكن السهر والحانات تحوّلت إلى مواقع للرذيلة ، بعد أن كانت منصات تغيير معرفي وجمالي . والحوار الذي كان يدور حول طاولة وكؤوس عن القضايا الكبيرة ، بات يناقش سعر المرأة ذات الماكياج الرديء التي تجلس في الطاولة المجاورة .

***

حمائم مصنوعة من خبز السجن المبلل بالماء ، كانت ترفرف وتبعتد . حمائم عجنها يوسف عبدلكي في سجنه . هرّبها المعتقلون في ما بعد ، لتصبح كمجوهرات نادرة .

***

لم أطل البقاء في ورشة التماثيل البشعة ، رغم أن الأجرِ كان عالياً ، لكن العمل كان يستهلك الوقت كلّه . والتماثيل كانت تزداد بشاعة مع الوقت . على أنّ بسطات تلك التماثيل كانت بالقرب من بيت سلمى في البرامكة . لم أكن أعرف هذا ، فالمسافة الزمنية التي تفصل بين الأمرين لا تقل عن

خمسة عشرة عاماً . لكن المستقبل يصنعه الماضي بتفاصيله التي لا تضيع أبداً .

***

ستناي كانت تطفئ مصباح غرفتها الخافت وتستضيء بالشموع الصغيرة ، تستقبل ضيوفاً في الليل ، يأتون ويذهبون بسرعة . على أن غرفتها لم تكن تصدر عنها أصوات توحي بأن شيئاً يحدث في الداخل .

فادي لا ينام في تلك الأوقات . يخرج ويدخل ، ويوقظ ببغاواته الثلاث جميعاً ، ويجلس قرب بركة الماء ، يتنحنح ، ويخبط الأبواب . يفعل كل ما يمكن أن يقلق ستناي ويزعج سهراتها .

***

- لماذا تجلس هنا في هذه الزنزانة؟

- وضعوني فيها نصف سنوات عمري ، وهنا متُّ ، وبقيت إلى الأبد .

- قرأت رسالتك «الصوفية والفقراء» .

- نعم .

- لا أشعر بالراحة وأنا أتحدث إليك وبيننا هذه القضبان الحديدية .

- لن تتمكن من اجتيازها ، أنا اعتدت عليها ، فتعوّد عليها

أنت أيضاً . فقط لا تفكّر فيها . ماذا عن رسالتي التي قرأتها؟ هل قرأت هذه فقط؟

ـ لا . لكن هذه فيها أمر غريب .

ـ ما هو؟

ـ أنت تمتدح أهل الصوفية وتعتبرهم من العارفين .

ـ نعم . وفي غيرها أيضاً .

ـ في شرحك لـ «فتوح الغيب» كتاب عبدالقادر الكيلاني . والأهم حديثك عن ابن عربي ، الذي تعتبره أقرب الناس إلى الإسلام الصحيح .

ـ لماذا أجدك مستغرباً؟

ـ لو رأيت ما يقال عنك اليوم ، لعرفت لماذا أنا مستغرب .

ـ أريد أن أسألك سؤالاً وأرجو أن تفكّر فيه جيداً .

ـ تفضّل .

ـ هل تعتقد أني أجلس هنا بسبب آرائي الفكرية؟ أم بسبب مواقفي الإنسانية؟

ـ أعتقد أنك تجلس هنا ، لأن الجميع أراد سجنك هنا ، أصدقاؤك وأعداؤك ، يريدونك هكذا ، مجنزراً بسلاسلك خلف هذه القضبان .

***

معسرتي كان بنظر جمال ، التجسيد الحي لتدهور الحياة الثقافية السورية في سنواتها الأخيرة . آثار الحشيش والإدمان

الكحولي والأمراض الجنسية كانت تبدو جلية على وجهه وحركات يديه ونظرات عينيه . ليس فقط على ضحكته الفاسقة ، بل على كتابته أيضاً ، التي أخذت تتحول إلى شكل من الخواطر الرديئة . أما أحاديثه الشفهية فكان يشتم فيها الجميع ، ويهمس طيلة الوقت بأحاديث قبيحة عن الآخرين ، ملمّحاً إلى أنه كان على علاقة بزوجة هذا ، أو شقيقة ذاك . أما رشيد فكان يقلّد معسرتي ، يفعل الأمر ذاته عن جميع الصحفيات اللواتي يكتبن عنده في الصفحات التي يشرف عليها . جمال لم يكن يتصرف بهذا الانحطاط . كان خجولاً . سلاحه يكمن في عدم امتلاكه مهارات رشيد ومعسرتي . وأمه العمياء كانت ثروته الكبرى . كانت أكثر شباباً منه ومن رفاقه . وكانت قد أصبحت صديقة لي عبر الهاتف . لم نلتق مرة واحدة ، فقط كنا نتحدث ساعات طويلة ، في أمور عشوائية قديمة وجديدة . وفي المناخ السحري لدمشق ، كان من الطبيعي أن يأخذني جمال إلى إحدى قرى الغوطة الشرقية ، حيث شخص اسمه «يسار» .

***

معمار الأسرار

غـرفـة وردية الجـدران في بيـتي في البـرامكة ، تنظر طيلة الوقت إلى جبل قاسيون المضيء ، منفرداً متراجعاً ومرتخياً إلى الخلف إلى السفح المتعالي كصدر تمثال رخامي لامرأة سورية نحت قبل آلاف السنين . كان كل شيء في خيالي . الأوراق تقول هذا . لكنني لم أكتبه . لماذا أكتبه إذا لم يكن سيرى النور؟ تتشكل الصورة مثل قطع البازل ، من هنا وهناك . كل ما يحدث يقودك إلى هذا ، وكل ما حدث يفسر التالي . كتبت : «هل كان الرئيس السوري الأسبق أمين الحافظ يعلم أن الرجل الذي يجلس أمامه الآن في مكتبه في السفارة السورية في بوينس آيريس ، سيكون له الدور الأكبر في تغيير مستقبل سوريا والشرق الأوسط لأكثر من خمسين عاما تالية؟ ففي العام 1961 استقبل أمين الحافظ الملحق العسكري في الأرجنتين كامل أمين ثابت ، السوري المغترب والذي أصبح شخصية محبوبة في الأوساط السورية المغتربة هناك ، بعد أن عبّر عن اشتياقه الكبير للعودة إلى وطنه سوريا ، ورؤية شعبها الطيب ، ورؤية شوارعها وتلالها وسهولها . كان يتحدّث بحرقة المخلوع عن بيئته وأرضه ، وكان أمين الحافظ مشغولا بالتفكير في ما يحدث في دمشق ، مع أنه ارتاح للصديق الجديد الذي

لم يقصّر في دعوته إلى حفلات كثيرة ، وهو الذي لم يخف يوما ولعه بالسهر واللهو» .

في آذار من العام 1962 ، قام عبدالكريم النحلاوي قائد الانفصال عن الوحدة مع مصر بانقلاب عسكري آخر ، فحل البرلمان وأقال الحكومة ، وقبل الانقلاب الثاني للنحلاوي بشهرين ، وفي كانون الثاني من العام 1962 كان قد وصل إلى دمشق ضيف هام ، ضيف أرسل إليها لإعادة ترتيب الأوضاع من جديد ، إنه كامل أمين ثابت أو إلياهو كوهين .

***

السجن كان غرفة واحدة مستطيلة ، أربعة أمتار بثلاثة ، جمعوا فيها أكثر من مئة سجين ، وكنت أنا واحداً منهم ، بينما كان القمل يسرح ويمرح في أجسادهم ، كنت قد عزلت نفسي في الأيام الخمسين التي قضيتها خلف تلك الجدران ، أقرأ نصاً واحداً من خمسمئة كلمة ، وكلما انتهى أعيد قراءته من جديد .

كان حسن الطويل ، أحد قدامى المساجين ، أدهشني اسم القرية التي ولد فيها «حرب نفسي» أو «حر بنفسي» هكذا . وكان مجنوناً بشكل أو بآخر ، يطير من السعادة ، كلما مدّ له الحارس فلتر سيجارة من نافذة السجن ، يمجّها ويسحب نفساً عميقاً جداً ، ثم يقع على الأرض مغشياً عليه .

***

أخذ ناصر يتردد على بائعي تلك القطع ، ويشتري منها ما يستطيع ، ويدفع مبالغ كبيرة جداً لقاءها . كنت أقول له إنها

مزورة . لكنه كان يتعلق بوهم .

ـ لعلها أصلية .

ـ وماذا ستفعل بها لو كانت أصلية؟

ـ لا أعرف .

ـ ستكون شبهة تحيط بك .

ـ لا . لا أريد المتاجرة بها .

وكان يريني ما يحضره معه من جولاته على الشوارع وبسطاتها . باتت المجموعة تملأ أرض غرفة صغيرة .

لم يكن ناصر ينظر إلى معنى أن يبيعك أحد ما قطعة أثرية ، بل كان ينظر إليها تحديداً ، إلى تلك التماثيل ورؤوس الوحوش والغزلان وخصور النساء الحجرية والبرونزية التي تتجسد فيها . التفافات الثياب وانثناءات خصلات الشعر حول الرقاب . كان ذلك العالم قد أصبح عالمه الصغير ، الصغير جداً بحيث لا يراه أحد ولا يفهمه أحد سواه .

***

رشيد أراد أن يواصل انتقامه من بداوته وبيئته المتخلفة ، من خلال كتاباته التي كانت تشوّه الشمال السوري ، وتصوّره على أنه بيئة فقيرة بالوعي والجمال . أما جمال فلم يقاوم رغبته بالتخلص من مدنيته التي تفرضها عليه أصوله الدمشقية . معسرتي اختار دور المهرّج الذي يتراقص بطاقة لا تنتهي ، ليضحك من يدفع له الأموال حتى آخر قرش ممكن ، مستغلاً هذا وذاك . قال رشيد عنه إنه تعرّف بالصدفة ، على امرأة

مكتئبة . لم ندر يوماً لماذا جاءت إلى دمشق . مع أنها قالت لرشيد إنها كانت تبحث عن أيّ شخص يمنحها طفلاً . كان هذا هو هدفها الوحيد ، الذي ماطل فيه معسرتي ، كي يكسب المزيد من الوقت ، ويعيش أطول زمن ممكن على حساب تلك المسكينة . ولذلك بدأ بالانسحاب التدريجي من المجموعة ، بعد أن دعته السيدة إلى السكن معها . صار يستبدلنا بأصدقاء آخرين ، يجلبهم للسهر في بيتها ، ولم يكن يتوقف عند نوعية ضيوفه السكارى . المهم أن يحضروا معهم ما لذ وطاب لقضاء السهرة .

***

الحجاج الآذريون والتركمان القادمون من بلدانهم البعيدة في طريق رحلتهم إلى الديار المقدسة في مكة ، كانوا يعبرون بدمشق ، التزاماً بعادة قديمة . فالشام هي شام شريف ، وهي المكان الذي فيه القدم الشريفة ومزارات أصحاب الرسول . لذلك كانت زيارتها جزءاً من الحج . لكن هؤلاء لم يكونوا يملكون المال الكافي لتكاليف رحلة الحج ، فكانوا يجلبون معهم براميل العسل من بلادهم ، ليبيعوه على أرصفة دمشق . وبعضهم كان يبيع كل ما كان يملك من أثر الدنيا . جاءت قافلة لهؤلاء ، ذات يوم ، فتمكن موفق قات ، صديقي الرسام وصانع الأفلام الكارتونية الشركسي ، من الظفر منها ، بسرير مصنوع من النحاس الخالص . أقام له احتفالاً ورسمه عدة مرات في لوحاته بظلال تركوازية . ملامح موفق القفقاسية الصافية ،

كانت تضفي طابعاً من الغرابة على لوحاته وشخصيته . كأنه قدم هذا الصباح فقط ، من ثورة الشيخ شامل . لكنه كان شيوعياً . كان الشركس السوريون كلهم شيوعيين ، ولم يعرف أحد في يوم من الأيام لماذا كانوا كذلك؟

سفر موفق إلى روسيا لدارسة السينما ، جعله ينجو من الخراب الكبير ، أما قريبه زياد قات ، فقد قاوم حتى آخر لحظة .كان زياد نحاتاً وراقصاً فلوكلوريا ومغنياً ، عمّر ليالينا الدمشقية بصوته الكانوني الدافئ . واللحظة التي كشف لي فيها عن حجر نحته لم يتوقف عنده أحد ، فقط أنا سألته عنه ، كانت لحظة فارقة في فهمي للبشر والحجر ، فذلك الحجر المنحني ، كان زياد قد منحه الاسم التالي «غروزني» ، وكانت غروزني تحترق تحت القصف الروسي بعيداً عن دمشق .

***

بفضل يسار ، الذي زعم أنه مخاوٍ للجن ، حسب التعبير الشعبي ، والذي بوسعه أن يرى بعينَي قرينه الجني كل ما يحدث في أيّ مكان وأيّ زمان ، استطاع جمال أن يقنع أحد المافيوزيين الشباب ، بالعمل معه ، فعيّنه مشرفاً على صحيفته . أما رشيد فقد اندس أكثر في مؤسسات النظام ، ومن خلالها في صحافة حزب الله اللبنانية الإيرانية . كان يحسد جمال على راتبه العالي ، يتحدث بغضب عنه ، يقول إنه بخيل جداً ، ويدعو عليه بالإفلاس ، ويصب لعناته على معسرتي الذي لم يعد يدعوه إلى بيت صديقته المكتئبة ، وعلى أولئك العراقيين

والعلويين الذين قال إنهم يترددون على بيتها . صار معسرتي ورشيد مشكلتين لا يمكن احتمالهما ، حتى من باب التسلية . كانت روحاهما المشوّهة تلوّثان كل شيء ، حتى الهواء .

***

مقالات حسين النقدية الموجهة إلى مسؤولين عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم ، كانت تسرّ رؤساء التحرير في صحيفته . فهي دلالة على قدرة الصحيفة على النقد البناء ، لتبدو وكأنها بالفعل «سلطة رابعة» . في الوقت الذي لم تكن فيه كذلك بالطبع ، حتى إنهم كانوا يتفاخرون بتلك المقالات ، أمام ضباط المخابرات الذين يزكّونهم لتعيينهم في مناصبهم الرفيعة . بينما كان حسين يطلب من رؤسائه أن يواصلوا منع مقالاته من النشر ، بل كان يرجوهم ليفعلوا هذا ، حتى يصبح بطلاً بنظر جمهوره .

اللعبة تلك ، كانت ممتعة للرؤوس الكبيرة في النظام . لكن حسين لم يكن قادراً على الاستمرار هكذا ؛ إذ لابد له من أن يجني ثمار لعبة النقد والمنع يوماً ما . كان آصف يشجعه على أن يطلب من أقاربه شيئاً مختلفاً يحسّن أوضاع المجموعة . أما وديع فلم يكترث لهذه اللعبة . فهمه كان منصباً على الحصول على اعتراف من الأجانب بمكانته الأدبية .

***

في دير الزور تشعر أنك في كون مختلف ، خارج سوريا والعالم العربي ، وربما خارج العالم . عواء الكلاب ليلاً يتشاءم

منه الأهالي ، ويعدونه نذيراً ، فكلما عوى كلب خرجت روح إلى السماء مغادرة جسد صاحبها ، حينها سيبدأ طقس المعادة الديري ، المليء باللطم والندب والأحزان ، ومعه سيتدفق الشعر الذي تكاد نفوس الديريين تتوق إليه ، شعر شديد القسوة لما فيه من تألم ووحدة .

يرعبني ليل المدينة ، وأهرب من شوارعها إلى بيوتها ، حيث الإنسان الغامض شديد التعقيد ، بعيداً عن ريح تأتي من المقبرة على الجبل . لم أكن أعرف ما الذي يخفيه خلفه ذلك الجبل ، تراب وشواهد قبور . مرّ وقت طويل قبل أن أقرّر الذهاب وحيداً إلى هناك في أوقات الظهيرة ، حين تنام المدينة كلها من شدة اقتراب الشمس من أعالي شجر الغرب على ضفاف الفرات . لكن الليل هو المشكلة . في الليل يشتد السواد ويشتد ، وأتخيل الأرواح التي تغادر مع عواء الكلاب .

في ليلة استجمعت شجاعتي ، وخرجت من غرفتي إلى شارع سوق الهال ، حيث بائع الخمور المسيحي . اشتريت زجاجة نبيذ أحمر ، وعدت صعوداً عبر شارع الجبيلة ، ثم صعوداً إلى دوار المدلجي ، فحيّ الموظفين ، ثم يساراً عبر الحارات إلى حيث بيت هيمنغواي . كان حقيقة مثل هيمنغواي ، بلحيته وذهنه وابتسامته وتهتكه ، بسخريته من نفسه ومن الآخرين ، بطاقته اللانهائية وموسيقاه الجنونية .

فتح لي كاسر باب البيت ، وطلب أن أدخل بهدوء حتى لا تستيقظ أمه من نومها . مشينا على رؤوس أصابعنا ، وعبرنا

الممر إلى غرفته المعزولة ، وجلسنا نحتفل بعيد ميلاده . لم يتذكره أحد . تذكرته أنا ، كي أكتب اليوم هذه السطور ، فقد عرفت أن رجلاً مثل صديقي الملتحي هذا ، لن يمرّ مروراً عادياً على حياة المدينة ، ثقافتها وإنسانها وماضيها وغدها .

بحثنا عن مفتاح لزجاجات النبيذ فلم نجد ، فقرر كاسر أن نفتحها بعصا الكمان . كانت الآلات الموسيقية تملأ الغرفة ، تقريباً كل الآلات ، غتيارات وأعواد وطبول ، وكان من بينها آلات عجيبة أخذ كاسر يشرح لي أسماءها ، «كوَلا» و «زورنا» وغيرها .

لكن كاسر الذي كان سعيداً بزيارتي المفاجئة كان مشغولاً بسؤال يعيده كل خمس دقائق «أهم من هذا كله . لا بد لنا أن نعرف كيف سقط الرايخ الثالث؟» . وكنت حينها مشغولاً بالرسوم على الجدران ، وجوه مضخمة بألوان تدور . كان كاسر يرسم ويعزف ويغني ويكتب ويدرّب رفاقه على التايكواندو ويترجم لخبراء النفط الأجانب في حقول دير الزور .

***

أدخل لنا السجّان زبوناً جديداً ، كان يبدو عليه السكر ، جلس إلى جانبي على الأرض ، لم أشتم منه رائحة كحول ، كان يبدو سكران ، لكنه كان سكران بأمور أخرى . بعد قليل عاد السجان وفتح الباب الحديدي بقوة ، ونظر إلى السجين الجديد قائلاً : سنعلّمك الأدب يا «روح الله» . روح الله! هل هذا اسم؟ من سمّاكَ بهذا الاسم؟ هل تعتقد أنك الإمام

الخميني؟ سنرى كيف ينقذك الله يا روحه العزيزة . تعال .

وقف الرجل مرتعداً ، فشدّه السجّان من رقبته خارجاً وأغلق الباب بغضب ، صوت ارتطام الحديد بالحديد يشبه صوت تكسير العظام الذي سنسمعه بعد قليل ، حين يبدأ تعليم روح الله دروس السجانين وتعاليمهم .

***

كان محمد مسحوراً بالشعر . كان شاعراً دون أن ينتبه ، وكان مندهشاً من الوجود ، في لحظة مفاجأة دائمة . قال لي يجب أن نعمل حتى نحصل على الحق بالكتابة ، لا يهم كم هو المبلغ الذي نحصل عليه ،لكننا يجب أن نعمل ، هذا هو العلاج ، ولم أكن أعرف عن أيّ مرض كان يتحدث . رافقته فجراً إلى شورى ، حيث بائع مواد البناء . قال له سنعمل أنا وصديقي إبراهيم اليوم . فهل عندك لنا أيّ تصليحة أو مهمة جاهزة؟

قام البائع بإرسالنا ، محمد وأنا ، إلى بيت امرأة دمشقية ، كانت تشكو من مدخنتها التي ضربها مطر الشتاء بوابله . وكانت مدخنتها في السطوح العالية للمدينة ، تلك المستويات التي يمكنك أن ترى منها رفوف الحمام وهي تسبح في فضاءات المدينة ، ملوّحةً بين الجهات ، مائلة صوب ما تريد ، عائدة إلى الحواف القديمة للمباني . المطر كان غزيراً في ذلك الصباح . لم تتوقف السماء عن سكب مائها الثقيل ، وكان محمد يتحدث

بلا توقف، كان يطرق بشاكوشه الضخم على أحجار المدخنة، التي كانت تتهدّم بينما تتدفق الكلمات من فمه الطفل:

«هنا دمشقُ

شمسٌ زرقاءُ والأرضُ تحت وابلٍ

على مقعد

الدّهشة خضراءُ، والعمرُ أخضرُ

أيّتها الورداتُ

أذهبُ إليك ولا أعود.

لي طفلةٌ،

ولي

مرحُ اللّيل، تفّاحةٌ سوداءُ

هنا دمشقُ

قهقهةٌ وراء الزّمن،

وأنا معقود اللسان، ولا إله أسطورياً يهزأ بي؛

خذ حقيقتي، أيّها الوجع».

***

إلياهو كان من حلب. والده شاؤول أنجبه في الإسكندرية في مصر. هاجرت عائلته إلى إسرائيل بعد إعلانها كدولة بسنة واحدة فقط، وبقي إلياهو وحيداً في مصر. كان يعمل تحت قيادة إبراهام دار وهو أحد كبار رجال الاستخبارات الإسرائيليين، وهو ذاته الشخصية الشهيرة «جون دارلينغ» الذي شكل شبكة للمخابرات الإسرائيلية في مصر نفذت سلسلة

من التفجيرات ضد المنشآت الأميركية واستهدفت اليهود المصريين لدفعهم إلى الهجرة إلى إسرائيل .

في العام 1954 تم إلقاء القبض على أفراد شبكة جون دارلينغ في قضية «لافون» ، وكان إلياهو من بين المحتجزين . ولكن وبطريقة ما ، خرج بريئا بعد التحقيق معه . بعد عام واحد سافر من مصر إلى إسرائيل ، ليلتحق بالوحدة 131 في جهاز «أمان» لمخابرات الجيش الإسرائيلي ، الذي أرسله إلى مصر في مهمة جديدة ، فاعتقلته المخابرات المصرية في أكتوبر من العام 1956 ، وتمّ الإفراج عنه ليعود إلى إسرائيل ثانية بعد سنة من الإقامة في مصر .

ماذا فعل إلياهو في مصر طيلة عام كامل بعد الإفراج عنه ، مع أنه كان من الثابت للمخابرات المصرية انتماؤه لجهاز «أمان» الإسرائيلي؟ سألني هائل .

***

عادوا بروح الله من درس التعذيب . كان ذنبه أن أباه سمّاه هذا الاسم ، وأنهم وجدوا فيه وسيلة للتسلية . كان يسبح في دمائه ، ولأن عقله غائب ، لم يكن يتألم . كان يتأوه ولا يدري لماذا هو يتأوه . جسده كان يدرك فقط ، لكن عقله كان منفصلاً عن كل ما يحدث ، لذلك كان يبتسم ، وكنت أرى انعكاس صورة وجهه في عيون السجناء الواجمين . لم يفتح أيّ منهم فمه بكلمة . أخذه حسن الطويل إلى المرحاض الذي كان بلا باب . حاول أن يغسل وجهه ويديه بالماء ، لكنهم عادوا من

جديد وأخذوه ، فقد كانت قد بدأت نوبة الحرس الجديدة ، وزملاؤهم الجدد يريدون أن يتسلّوا به بدورهم كما فعل سابقوهم . ولم نره بعدها أبداً . كان روح الله قد عبر بنا ، وغادر ، كما غادر روح الله كهف الشيطان الذي كان سوريا كلها ، وليس هذا السجن وحسب .

***

المسؤول الأمني المنتدب من المخابرات العسكرية السورية داخل مبنى التلفزيون الرسمي ، كان مريضاً نفسياً . لم يكن سيئاً ولا عدوانياً ، إلا أنه كان مكتئباً ويتخيل أموراً غير حقيقية حصلت وتحصل ، وكان أفضل ما يمكن فعله ، هو جعله يثق بك ، كي يتدفق بكل تلك الخيالات . منها أنه بعد أن تطوع في الخدمة العسكرية في سلك الأمن ، تابع دراسته بجدّ ، وحصل على الثانوية ، ثم درس علم النفس . وبعدها حصل على الماجستير والدكتوراه ، ولكنه لتواضعه الشديد ، لا يريد الإفصاح عن هذا ، حتى لا يحرج السلطة ؛ إذ أنها حينها ستضطر لتعديل وضعه الوظيفي ، بناء على شهاداته العليا . لكنه لا يريد هذا ، فهو مستعد للتضحية بكل شيء ، في سبيل كشف الجواسيس ، وكان من بين أولئك الجواسيس ، كثيرون يعبرون على الإعلام السوري ، منهم من لا علاقة له بالسياسة ، ومنهم من لا يفكر أصلاً بقول رأيه المخالف ، إن كان مخالفاً لأحد ، ومنهم من غضبت عليه السلطة ، وكنت من بين هؤلاء . لكن المخبر لم يكن مقتنعاً بهذا . كان يطلب مني

الحديث على انفراد ؛ ليبكي على أحوال أسرته في إحدى قرى الساحل ، ويشتم زوجة أخيه التي هربت مع ضباط من الخريجين الجدد . وبين الجلسة والأخرى ، كان يعرض عليّ ما كتب عنّي من تقارير أمنية من موارده الكثيرة .

في بداية الأمر ، لم آخذه على محمل الجد . اعتبرته مجرد مساعد أول مسكين ، وربما كان يبالغ في تقديم نفسه كمسؤول أمني . لكن مع الوقت اتضح أنه كان يمثل رتبة عليا ، حتى إنه كان يجتمع بـ«معلّمه» كما كان يسمّيه ويأتي إلى المبنى . ولم يكن معلّمه في تلك الفترة سوى اللواء رستم غزالة ، الذي عاد من لبنان مذعوراً ، فقد عرف أنّ ساعته قد حانت ، وأنه سيموت مقتولاً بطريقة أو بأخرى .

***

جاء حسين إلى المقهى يبشرنا بأنه بدأ بتأسيس موقع إليكتروني إخباري ، وستكون مهمته محاربة الفساد وتعزيز الثقافة . كان بديهياً أن نسأل ؛ وكيف حصلت على موافقة الأجهزة الأمنية . لم يتردد بالإجابة : هذا الأمر فوق الأجهزة الأمنية . ضوء أخضر من القصر .

منح حسين مكتباً في حي الطلياني ، مع سكرتيرات وتجهيزات كفيلة بجعله قادراً على إطلاق موقعه ، وتوظيف الكتاب والمثقفين فيه ، وفوق ذلك ، كان بوسعه أن يدفع لهم مقابل ما ينشر لهم من مقالات وتحقيقات . طار آصف من الفرح ، فقد حلت مشاكله ، وصار بإمكانه الآن أن يعيش كما

يحلو له ، فمصدر دخله لم يعد وظيفة في القطاع العام كما كان ، وأخذت الإعلانات تتدفق على موقع حسين ، بعد أن أعطيت الشركات إيعازاً حاد اللهجة يطلب منها دعم الموقع الإليكتروني الإخباري الجديد .

وأخذ حسين يتحول يوماً بعد يوم ، من مهاجر علوي فقير ، إلى صاحب نفوذ يركب السيارات الفارهة ، ويحتفل بأعياد ميلاده في الفنادق الفخمة .

***

لكل حضور في دمشق ، نسخة غائبة ، مثله تماماً . لكنها كانت تعاني من الحرمان من المدينة . شيء ما انتزعها منها . كان محمّد يردّد طيلة الوقت أنه يجب عليه أن يرحل ، وأن الوقت قد حان ليذهب . كان طائراً من طيور المدينة ، مولعاً بكتاب شعري أصدره شقيقه نوري ، كان عنوانه «مجاراة الصوت» . اعتبر محمد أن هذا الكتاب ، بمقام مثل رباعيات الخيام ، تتدفق منه طاقة مستمرة ، تصل من أخيه الذي رحل هارباً من خراب دمشق إلى بيروت ، ليكون آخر الخارجين العرب من المدينة التي حاصرها الإسرائيليون وجيش حافظ الأسد ، منتقلاً في تغريبته إلى لندن . لكنه بقي هو ذاته ، طفل المهاجرين الذي ينحدر من الجادّات الشاهقة إلى العالم ، في مغامرة لم تنته يوماً . قرأ لي محمد آلاف المرات «ها هو يخرج من غرفة إلى غرفة ، دائراً حول المنزل ، وواصلاً الطرف الآخر من الشرفة ، ليكون المجيء من جهة غير متوقعة ،

لملاقاتهن معًا وفي أيديهن الكؤوس ، لتفريق ما حطّ على قلوبهن من وطاويط ، لإنارة الهتاف الخاطف ، وللاقتراب ، مجددًا ، بخطوٍ هامس ويدٍ تعتمد الدرابزين الحديدي المعتم» .

***

ما الذي يحدث في الخارج؟ أسأل ولا يجيبني أحد ، حتى الممرضة التي تدخل وتخرج مرتجفة ، لا تقول شيئاً . قررت أن أكتب مذكراتي . لم أقرر بعد ، فكثير من أحداثها لا أريد أن أرويه . ليس لأنه لا يعجبني ، بل لأني لم أكن فيه اللاعب الأساسي . كانت تحركني الرياح ، وكنت طياراً يتقن ترك ذاته للهبوب .

***

البرقية 88

جلست على الأرض الحجرية قبالة قضبان زنزانة القلعة . جلست أنظر نحو الرقعة الجلدية التي كان يحملها الشيخ المكبّل بالحديد ، كان يكلمني ويعود إلى جموده ، يتحدث قليلاً ثم يصمت . قطع صمتي بصوته العريض :

ـ أنا هنا لأني رفضت التخلي عن دمشق .

ـ أعلم .

ـ غيرك لا يعلم . قالوا إني رفعت شعار التكفير .

ـ صرتَ أيقونة للتكفير ، لا رافعاً لشعاره فقط .

ـ كتبتُ في رسالتي «قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع والمعاصي ومشاركتهم في صلاة الجماعة ، إنه «لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ، ولا بخطأ أخطأ فيه»» .

ـ قرأت هذا . نقلته عنك الباحثة الألمانية أنكه فون كوجلجن الأستاذة في جامعة برن للعلوم الإسلامية .

ـ هل كتب عني المسيحيون؟

ـ نعم . قالت إنك «شخصية ذات طراز عظيم ، فقيهاً متكلماً ناقداً للمنطق الأرسطي والتصوف من جهة ، وناقداً استثنائياً وباحثاً أخلاقياً من جهة أخرى» . قالت إن بذور

التفكير المادي الغربي ، الذي يرى أنَّ الأشياء الماديَّة هي «أصل الوجود» ، وأنَّ الأفكار تابعة لها ، موجودة بوضوح في فكرك أنت ، وهو ما عُرِف فيما بعد في أوروبا باسم «المذهب الأسمى» .

ـ شرحت هذا موسعاً في كتابي «نقض المنطق» . لم أر حاجة إلى المنطق الأرسطي ، لا حاجة بالعقلاء إلى مسطرة أرسطو . هم بحاجة فقط إلى اللغة العربية ، كما كان فلاسفة اليونان بحاجة إلى اللغة اليونانية . المعاني فطرية عقلية ، لا تحتاج إلى اصطلاح وضعي ، فهي وحدها ما تتطلبه معرفة المعاني .

ـ كانت لديك مراحل تطور في التفكير ، وقد نقدت نفسك حين تقدم بك العمر .

ـ بل قل أعدت النظر ، وحلّلت ما كتبت ، وشرحته وكتبته من جديد .

ـ صحيح . لكن من يقرأك دون أن يتأثر بما طال سمعتك ، يدرك أنك خبير بمذهب الفلاسفة اليونان ، وفلاسفة العرب المسلمين كذلك . هذا واضح من لغتك واستخداماتك للتعريفات بصورة دقيقة ، وقد ضرب الدارسون مثلاً في شرحك لمفهوم المكان .

ـ قلت لك لقد بسطنا الكلام على ما زعمه هؤلاء من أن الاستدلال بالأدلة السمعية موقوف على مقدمات ظنية ، مثل

نقل اللغة والنحو والتصريف ونفي المجاز والإضمار والتخصيص والاشتراك والنقل والمعارض العقلي بالسمعي ، وقد كنا صنفنا في فساد هذا الكلام مصنفاً قديماً .

ـ قديماً متى؟

ـ حين كان عمري عشرين عاماً . ذكّرتني .

ـ بماذا ذكرتك .

ـ ذكّرتني بما قاله لي شمس الدين الذهبي . تعرف الذهبي؟

ـ الذهبي ابن كفر بطنا في غوطة دمشق . ماذا قال لك؟

ـ هو ليس ابن كفر بطنا ، ولد فيها ، لكن أسرته جاءت من الجزيرة السورية ، من الشمال . قال يوماً موجهاً نصحه لي ، في ما سمّاه الناس «النصيحة الذهبية» : «فإلى كم ننبش دقائق الكفريات الفلسفية لنرد عليها بعقولنا ، يا رجل قد بلعتَ سموم الفلاسفة ومصنفاتهم مرات ، وبكثرة استعمال السموم يدمن عليها الجسم وتكمن والله في البدن . . . أما أنتَ في عشر السبعين وقد قرب الرحيل» .

ـ هل أنت متأكد أن الذهبي هو من كتب لك هذا النصح؟ أظنك تتوهم . عرفنا في ما بعد أن ابن السراج الدمشقي هو من كتبه ، فالذهبي لم يكن ينظر إليك هذه النظرة العدائية .

ـ لا يهم .

لا طبعاً . هذا مهم . من هنا بدأت صورتك النمطية التي

من خلالها صرتَ مشكلة كبيرة .

***

خرجت أنا ومعن قاصدين منزلاً في شارع بغداد . كنت أحدثه عن العجوز الذي يحتفظ في بيته بوثائق وتحف ثمينة . في الطريق من المخيم ، تتجاوزك الوجوه الفلسطينية ولا يمكنك تجاوزها . جزء أساسي من دمشق هويتها الفلسطينية الممتزجة بحلم العودة إلى القدس ، حلم يتشارك به يهودها مع فلسطينييها مع أهلها ، وكأن القدس قبلة أولى لأهل الشام ، بعد دمشق .

***

استغل آصف نفوذ حسين ودخل إلى جميع المؤسسات الثقافية الرسمية التي كان ينتقدها ، وحصل على عضوية فيها ، بل طالبها بأن تطبع له كتبه ، وكان قد بدأ يركب قصصاً تشبه قصص تشيخوف وبورخيس . لكنها بنكهة محلية تستوحي من حياة العلويين مناخها وبيئتها . ومع الوقت تمكّن من توسيع بيته في القرية العجيبة في المزة ، ليصبح شقة محترمة . باعها بمبلغ كبير ليشتري بيتاً أقرب إلى مركز المدينة ، فقد صار الآن واحداً من الدمشقيين الجدد .

وصل حسين إلى مواقع عديدة في مؤسسات الدولة الثقافية ، فكانوا يستعينون به في لجان تحكيم الجوائز الأدبية والسينمائية وغيرها . وذات يوم دخلت مكتبي روائية تنحدر

بدورها مثل : حراس الأرض» من الساحل السوري والطائفة العلوية . قالت إنها قد حصلت على جائزة كبرى تمنحها وزارة الثقافة عن رواية لها تتحدث عن الثمانينات والصدام بين النظام والإسلاميين وبقية أطياف المجتمع السوري ، وإنها تناولت في الرواية ما كان يحدث حينها في الأحياء المسلمة السنية في مدينة اللاذقية .

ـ ممتاز مبروك .

ـ لا تبارك لي رجاء .

ـ لماذا؟ ألست سعيدة بهذه الجائزة؟

ـ لا . كيف أكون سعيدة وقد أعادت لجنة التحكيم كتابة روايتي من جديد ، وحذفت شخصيات وأضافت شخصيات وأحداثاً من عندها؟

ـ كيف هذا؟

ـ معقول!

ـ هذا ما حدث . أعادوا كتابة روايتي ، بما يتوافق مع رؤيتهم السياسية والمخابراتية ومنحوني الجائزة ، وطبعوا الرواية أيضاً . انظر . .كل هذه الخطوط المحددة بالأحمر ، لم أكتبها ولم تكن موجودة أصلاً في مخطوطي .

ـ من هم أعضاء لجنة التحكيم؟

بالطبع كانت تسرد لي الأسماء ، ولم أستغرب ورود اسم حسين بينها . حاربت من أجل هذا الموقف وفضحت فعلة

اللجنة العجائبية تلك ، في الصحيفة التي كنت أديرها ، وعبر مقالات وحوارات عديدة . لكن الروائية لم تستطع الاستمرار في المعركة حتى النهاية ، فالصدام مع هيكل الدولة الأمنية ليس أمراً سهلاً .

شكل حياة حسين وآصف ووديع بات مقززاً . لم أعد قادراً على هضم تلك الشخصية المكشوفة ، التي أخذ يتضخم عندها الإحساس بالقوة ، فصارت لا تكلف خاطرها حتى بلبس قناع يستر تك الأفكار التي تحملها . غزاة جدد ، يريدون أن يقولوا إن السلطة منا ، وكذلك المعارضة منا أيضاً .

***

عينا سلمى كانتا تنظران إلى الجبل الأزرق . كانت بيوته تنسفح كزبد البحر من الأعلى . هناك قبل المغارات السرية في قاسيون ، عشتُ في بيت «أبو شاهر» دلّني عليه محمد ، كان من عقداء الحارات البديلة ، بعد أن زالت الحارات الحقيقية . في الجادة الثالثة عشرة ، بنى أبو شاهر غرفة في وسط الحارة ، على طريق الناس ، متحدياً لهم ، ومستدرجاً ردود أفعالهم التي لم تصدر أصلاً ، فالجميع يحسب الحساب لهذا الطريد المطلوب بحكمي إعدام ، وأحكام أخرى على جرائم مختلفة ، ليس من بينها اعتداء واحد على مال عام أو سرقة من إنسان أو جريمة أخلاقية . كان متمرداً على النظام ، دون أن يكون سياسياً . كان ثورةً من غير أفكار ولا شعارات ، شريراً على طريقته ، طيباً على

طريقته . لذلك لم يكن يثير ذعري حين يدعوني لشرب الشاي في غرفته ، ويعرض علي خزانته السرية المليئة بالأسلحة والرشاشات . بعد أن يعود من جولته اليومية على مطاعم جبل قاسيون ، كان يفرض على أصحابها إتاوة إجبارية ، فيعطيه هؤلاء صاغرون ، ولا يقبل هو النزول من قمة الجبل إلا بغنائم تقيت الأسرة .

ليست لدي قصص أقولها لسلمى سوى عن دمشق ، ولا حكايات أنقلها سوى عن ناسها ومغامراتهم . لهذا كنت أصمت ، بينما كان جفناها يتحركان ببطء ومن خلفهما تبدو المدينة متلالئة بأضواء لا حدود لها .

***

كنت قبل أن أراه في القلعة ، مأخوذاً بأثر هذا الرجل . لم أتخيله . رأيته حقاً بعين عقلي ، أردت أن أحاوره ، لأني لطالما رأيت أنه عقدة دمشقية نشرت قوتها في كل اتجاه ، ولأنه مثلي أيضاً دمشقي مهاجر .

سألته : هل أنت فقيه أم فيلسوف؟ كيف تنظر إلى نفسك؟

ـ كنت في أوائل معرفتي بأقوال الفلاسفة بعد بلوغي الصبا بقليل ، وعندي من الرَّغبة في طلب العلم ، وتحقيق هذه الأمور ، ما أوجب أني كنت أرى في منامي ابن سينا وأنا أناظره في هذا المقام ، وأقول له : أنتم تزعمون أنكم عقلاء

العالم وأذكياء الخلق ، وتقولون مثل هذا الكلام الذي لا يقوله أضعف الناس عقلاً؟ وأورد عليه مثل هذا الكلام فأقول : العقل الأول إن كان واحداً من جميع الجهات فلا يصدر عنه إلا واحد ، لا يصدر عنه عقل ونفس وفلك ، وإن كان فيه كثرة ، فقد صدر عن الواحد أكثر من واحد ، ولو قيل : تلك الكثرة هي أمور عدمية ، فالأمور العدمية لا يصدر عنها وجود .

***

كنت غارقاً في زياراتي تلك إلى سجن القلعة ، وحواراتي مع الشيخ المجنزر بالسلاسل ، بينما كان معسرتي ومعه طبقات جديدة أخذت تظهر في دمشق ، وينحدرون بها أكثر نحو الانحلال . جمال أصبح من الأثرياء بفعل عمله مع الشاب المافيوزي ، ورشيد بات يحصل على جوائز أدبية من المحافل ، ويشارك في المهرجانات ، بعد أن وجد لنفسه موطئ قدم عند مافيا أخرى كانت تديرها أسماء ، زوجة بشار الأسد ، التي كانت تلعب دورها كما كان الآخرون يلعبون أدوارهم ، كلٌ على خشبته .

***

في بيت الصبان ، قرع عليّ الباب ذات عصر ، يوشع ، وهو أحد السكان الذين لا أحتك معهم عادة ، قال إن عليّ أن أساعده في طلي السطح بالزفت ، لأن الشتاء بدأ ، وطبقات السطوح متشققة ، والماء قد يتسرب إلى غرفنا إن لم نحتط لهذا

بشكل مسبق . رحبت ولحقت به .

كانت سلالم يوشع طويلة جداً . لا يوجد درج يؤدي إلى السطح ، ولا يمكن لأحد أن يصعد سوى بواسطة تلك السلالم التي صنعت من أشجار حور نحيلة كاملة بارتفاع سبعة أمتار أو أكثر ، أخشابها غير محكمة التثبيت ، مربوطة بحبال القنب والليف .

طلب مني أن أصعد قبله وهو يمسك بالسلّم كي لا يميل ويهوي بي على أرض الديار ذات الأحجار المتماوجة . صعدت بلا نهاية سلماً لا يوصل إلى السطح . لا تنتهي درجاته .

***

خارج سوريا تحركت حياة السوريين بصعوبة . كانت تتنفس بحرية أكبر بالطبع . ربما كانت حريتها تلك حرية فضاء ، لا حرية ذاتية عميقة . فمن هاجر أو عاش في المنافي من السوريين ، بقي يعيش مثلما أعيش الآن ، مكبّلاً بسلاسل إلى جدران الشام . أما من لم يقع في غرام المدينة ، فقد وقع في حسرة ما فاته من ولع بها أثناء وجوده في البلاد في الماضي . وكانت حينها ، كتب سليم بركات التي عثرت عليها في مكتبة خالي قبل سنوات ، المجموعة الأكثر تداولاً بين المثقفين وكتّاب الشعر ، فكتب سليم كانت ممنوعة ، تباع سراً في مكتبة أنيس مديوايه في القامشلي ، وفي مستودع مكتبة النوري في دمشق في طلعة الحجاز . وما كان متوفراً منها هو كتابان فقط

في السيرة . أما الروايات فلم يكن الحصول عليها ممكناً إلا عبر القادمين من الخارج . كانت دمشق مغلقة ، فلم تكن «الريش» ولا «الجمهرات» ولا «الكراكي» ولا «للغبار لشمدين لأدوار الفريسة وأدوار المماليك» متاحة لمن يريد قراءتها .

أرسل لي خالي كتاب سليم بركات الجديد ، وكان حينها «بالشباك ذاتها . بالثعالب التي تقود الريح» . غلاف أبيض وثعالب ذهبية تقود الريح والقارئ في صفحاته . كان سليم بركات مجنوناً باللغة والخيال الخصب ، خيال مشدود إلى الشمال ، حيث ولدت ، وحيث كان الأكراد يعتبرونه نبياً في البعيد ، حتى إنهم كانوا يقلدون شكله وخطّه وتسريحة شعره ومواضيع قصائده ويستخدمون قاموسه اللغوي .

***

وجدت نفسي ، في آخر السلم الطويل ، في زمن البديري الحلاق من جديد ، والثياب الملتمعة التي تدل على النعمة ، تتلألأ على أجساد لابسيها في الحارات العتيقة .

سطوح المدينة القديمة تبدو من الأعلى مثل صواني البغجاتية ، منبسطة متجاورة ، كان البغجاتية هم صاغة دمشق ، دون أن يكون الذهب مادة شغلهم ، يصنعون الحلويات في هندسة بصرية ساحرة ، فالعين عليها أن تشتهي قبل أن يكتشف الفم ، والأفواه في زمن البديري كانت مشغولة بحديث بنات الليل . كانت ستناي تشغل تفكيري ، حتى في

الزمن القديم الذي رحلت إليه .

قال البديري إنه في ذلك اليوم أمر الحاكم بأن يُخرجوا بنات الهوى ، وهنَّ الشلكات ، من البلد إلى خارج البلد ، وأظهر أنه يريد أن ينفيهن إلى بلاد أخرى ، ونبّه على مشايخ الحارات أن من وجد في حارته ذا شبهة لا يلومنّ إلا نفسه ، ثم نادى مناد أن النساء لا يسبلن على وجوههن مناديل ، إلا حرم الباشا ونساء موسى كيخية . ثم شرع أعوان الحاكم بالتفتيش وشددوا ، فانفرجت بعض الكربة ، ثم ما بقي هذا التشديد غير جملة أيام ، إلا وقد رأينا البنات المذكورات يمشين كعادتهن في الأزقة والأسواق وأزيد ، ورجعن إلى البلد ، ورتب الحاكم عليهن في كل شهر ، على كل واحدة ، عشرة غروش وجعل عليهم شوباصياً ، بل قطع من الناس وسلب والله المستعان .

الله هو المستعان دوماً على كل شيء على ما يبدو . وبه تمشي الأمور كما يحلو لصاحب القوة . صدر المدينة يتقسّم من الأعلى وفق خرائط تلك القوة . البيوت عالية السطوح ، ترسل خطوطاً من ضوء أزرق إلى البيوت عالية السطوح . أما البيوت الواطئة فيخفت ضوؤها حتى ينطفئ .

أيقظني صراخ ستناي . كان فادي قد استغل غيابنا أنا وجاري في الأعلى ، وهجم عليها ، مقتحماً باب غرفتها وستارته السميكة .

***

لم أمت بعد ، لكنهم قالوا إنّي مت . لم أعد أذكر ، هل كنت أنا صاحب الفكرة أم هم؟ لكنهم قالوا رحل ، واتشحت البلاد بالسواد . كنت أسمع همسهم من خلف الأبواب .

غير أنّي لم أمت . طالت الأيام والسنوات ، وصرت شبحاً ، لكن من لحم ودم . ربما من جلد ودم .

***

ـ أنا من فتح باب الاجتهاد ، بعد أن بقي مغلقاً سبعة قرون .

ـ توصف بأنك من أغلق كل باب .

ـ هذا سخف . وكلام جهّال ومخربين .

ـ كيف فتحت باب الاجتهاد؟

ـ إن نظرت إلى حياتي ، ستجدها مناظرات يومية ، حوارات وحروباً مع المتخلفين وأصحاب الخرافات ، وحتى أولئك المتشددين ، يكفي موضوع الطلاق الذي أخذوا يشترطون فيه الشروط ، ويعقدونه ، ويجلعون للألفاظ دوراً أهم من حياة الأسرة ، حتى إن الحلف بالطلاق كان عندهم طلاقاً ، بينما أنا رأيته مجرد كلام لا يهدم البيوت . هذا مثال بسيط والأمور الأكثر تعقيداً تجدها في كتب التاريخ . هل تعرف ما الذي عانيته كي أقول رأيي؟

ـ أعرف

ـ ما تراه في يدي ليس رقعة للكتابة ، أنا ممنوع من الكتابة

هنا ، أخذوا أقلامي وأوراقي ، سمحوا لي فقط بتلقي الرسائل من أهلي ، وتلك الرسائل أغسلها بالماء ، وأجففها وأكتب عليها بالفحم .

ـ أنت سجين رأي ، أمس واليوم .

***

كان الغزو قد بدأ ، لم يكن غزواً عدائياً ، كان كغزو الجراد الجائع . أهل السهول شرق سوريا ، قادمون إلى دمشق . أراضيهم صارت تراباً يابساً ومتحجراً ، وأنهارهم جفّت . آبارهم صارت ضروعاً ميتة ، وأشجارهم ماتت . كرومهم احترقت ، والسمك الذي كان يسبح في الأمواج صار يسبح كهياكل عظمية في الغبار .

***

وأنا في حبسي هذا ، أقع في الغياب ، أهوي فيه إلى آخره . ليس له آخر ، لا قعر ولا مستقر . جئت إلى دمشق . تركت خلفي عشرة إخوة في قريتنا اللعينة . كان الناس من حولي يحتقروننا ، ليس لأننا فقراء وحسب ، بل لأنهم كانوا قد قبلوا أن يكونوا عبيداً للسلطة في إسطنبول وبعدها في دمشق . عبيد لهم وأسياد علينا في الوقت ذاته . كيف يمكن لشخص مثلي أن يعيش في هذه القرية الصغيرة القذرة؟ ناسها أعداء لنا ، كانوا يتبجحون بمراتبهم الدينية والإقطاعية ، لم يكن أمامي سوى العيش بين الأعداء الآخرين ، في اللاذقية الميناء

السني المسيحي الرطب . لم يكن أيّ شخص من أسرتي قد وصل إلى تلك المدينة البعيدة ، كنا نخاف منها . بشكل أو بأخر ، كنا في الجبل . من أين يأتي صوت الممرضة؟ مع أني انتبهت جيداً إليها ، حين دخلت وخرجت . لم تعد بعد ، إلا أنني أسمع صوتها البشع .

***

عدنان عجوز في السبعين ، يعيش وحده في تلك الشقة في شارع بغداد ، وسط الماضي البعيد . والده كان حاكماً عسكرياً للقدس ذات يوم . القدس ذاتها التي تراها في وجوه الجميع . باب بيته بسبعة أقفال فوق بعضها البعض . شيء من الظلام يخيم على الغرف . ومعه الهواء الرطب الراكد .

على عتبات مقبرة الدحداح ، وسكانها الذين لا يرحلون ، يفتح العجوز باب الغرفة المغلقة على الدوام . تشرق الفضة من الداخل ، من إطارات لوحات وأثاث قديم ، من سيوف وأسلحة عثمانية . كان شيء ما يشدني إلى المكان ، لكن مالكه كان بغيضاً بصورة لا تحتمل .

ـ كان فخري البارودي صديقي الحميم ، وكنا نقضي الأيام في السهر والبسط ، قبل أن يحترق بيته . هل يمكن أن يحترق بيتي أنا أيضاً؟

لم أصبح سياسياً مثله . أبي الضابط دفعني لكره السياسة والرجال ، لا كره النساء وليس الرجال ، بل كره الاثنين معاً .

حتى إنّي لم أعد أعرف إن كنت رجلاً أم امرأة . أعرف أني دمشقي أصلي ، وأن أراضينا في الهامة ، وأني مذكور في كتاب ظرفاء الشام . هذا ما أريده أن يبقى .

كان هذا الكلام يخرج من فم الرجل الأشقر ، وكانت تتخلله ضحكات نجاة قصاب حسن المتقطعة . نجاة الذي قال لي بعد أن دخلت إلى اللاتيرنا عصر يوم صيفي : تعال اجلس معنا وقدّم نسخة من كتابك هدية لصديقي هذا ، واسمع منه . كان يعدّ لي فخّاً .

***

دخلت إلى النورماندي ، كان طيف صحراوي عتيق ، يعيش في دمشق عقوده الصعبة ، أسمر نحيل ضئيل القامة ، يداه تشهبان أعواد الشوك ، ترتجفان طيلة الوقت ، ليس لأنه كان مدمناً كحولياً ، مع أنه كان كذلك ، لكن لأن روحه كانت أكبر من جسده ، كان جسده يعارضه ، يقاوم انتفاضة شخصيته العارفة التي اختارت أن تتخذ من دمشق مسكناً .

صديقي الموريتاني محمد البخاري ، أعرج الفلسفة المشّاء في شوارع دمشق ، كان معسرتي ورشيد وأمثالهما يسخرون منه ، ويتندرون على طريقته في الكلام ، ويقلدون رعشة يديه . لكنه كان يضحك ، ليس هذا حقل اهتمامه . كان يفكر ويترجم ويقرأ ويناقش في التراث والمدارس الفلسفية الحديثة في الغرب . كان يحدّث نفسه كل يوم ، يطوّر معارفه ، وفي

الليل يهرع لتجرع مشروبه الذهبي دون أن يرتوي من حانات الشام ومقاهيها .

قال البخاري في تلك الليلة ، إنه ملّ من سماع النميمة والأحاديث الفارغة على الطاولات ، وإنه يرغب بفعل شيء مختلف . قال : دعنا نتحدث عن الثقافة الشعبية القديمة ، البدوية ، أنت بدوي الجذور ، يمكنك أن تفهمني .

ـ نعم بالطبع عزيزي محمد ، لكن لماذا أنت متوتر؟

ـ أنا متوتر .

ـ نادراً ما تكون هكذا .

ـ الشام تغيرت ، هؤلاء ليسوا عزمي بك الموره لي وحيدر حيدر ونايف بلوز وغيره . هؤلاء زعران .

ـ من تقصد؟

ـ هؤلاء كلهم .

ـ جيل معين؟

ـ لا . خلطة من الأجيال . شيء مزعج جداً . انحطاط .

ـ دعنا نرجع للثقافة الشعبية . ما الذي يجعلك تفكر فيها الآن؟

ـ الثقافة الشعبية تتأثر بهذا الانحطاط ، لكن هي الوحيدة القادرة على ردعه ، لأنها ذات جذور ، أما الانحطاط فهو طحالب تنمو على السطح . عدت اليوم إلى الشعر الشعبي الموريتاني اسمع :

«لا تملي ياعين رعي النجومْ/ وانهمالات دمعك المسجومْ/
قد جنيت الهوى شهيا جناه/ فاستحالت ثماره كالسمومْ/
وكذاك الهوى إذا الوصل واتى/ كان قطفا من يانعات الكرومْ/
وإذا الوصل عز منه منال/ أينعت بالهوى ثمار الهمومْ» .

ـ هل هذا شعبي؟

ـ غير معروف إذا كان شعبياً أم فصيحاً . تعلم نحن بلد المليون شاعر . كلهم شعراء . أضحكتني بسؤالك ونسينا الهموم والنجوم .

***

ـ عالم الليل في دمشق ، عالم مختلف . دمشق ليست تلك المدينة التي تظنونها .

قلت هذا للجالسين حول الطاولة الصغيرة في الحانة القديمة في شارع العابد ، لكنهم لم يلتفتوا . التفتَ شخص واحد . قال إنه من المهاجرين ، وإن والده جاء من أوزبكستان ، لكنه صار دمشقياً . قال إنه دمشقي الآن ؛ لأنه اكتشف أسرار المدينة ، امتزج بها وامتزجت به .

***

ـ أنت جعلت الحكم في حياة المسلمين بالقوة ، وشرعنت حاكمية المتغلّب .

ـ من قال هذا؟ الوراثة في الحكم وصفتها بأنها «خيانة للأمّة» ، وحدّدتْ شروطاً لمن يستحق أن يحكم ؛ الأمانة

والقدرة والكفاءة . الحاكم يستمد سلطته من الأغلبية ، كما في عهد الخلفاء الراشدين . قلت هذا . ألا يقرأ أحدٌ الكتب؟

ـ اليوم يحاربون للاستيلاء على السلطة وتطبيق الشريعة .

ـ هذه خرافات . الاستيلاء على السلطة لا يكون موجباً للإقرار بحكم المتسلّط ، وذلك لعدم وجود دليل شرعي سالم من القدح فيه علمياً . أما استمراره في الحكم فخاضع لقدرة الأمّة على خلعه أو إقراره .

ـ أنت إذاً مع خلع الحاكم؟ مع الخروج عليه .

ـ بعد فساد الحاكم لا يمكن القبول بسلطته . وفساده يكون أخلاقياً أو مالياً أو عسكرياً أو قضائياً ، وفي شغله بالسياسة والمجتمع و حتى في إدارة شؤون الناس .

قال هذا وأمسك بالقضبان التي تفصل ما بيني وبينه . كانت سنواته الطويلة باديةً على حركات يديه .كانتا تتحركان وتتركان خلفهما آثارهما الضوئية الداكنة . عاشق لدمشق . جاء إليها وجنّ بها وبنى فكره كلّه من تلك العلاقة بها .

***

إلياهو أيضاً جاء إلى دمشق . وفي المدينة التي تختلط فيها الهويات والأخلاق والأهواء والأعراق والطبقات ، كان عليه أن ينشئ منصته الخاصة .

ليس صعباً في المناخ السوري الخارج من قمع عبدالناصر الرهيب زمن الوحدة ، أن تجد من يستمع إليك ، وأنت تتحدث

عن حلم عربي قومي من جديد ، ولكن بشعارات ديمقراطية .
وكانت الضربات التي تلقاها الجهاز الأمني السوري كبيرة ، بغياب السراج الذي كان يعرف بـ«السلطان الأحمر» ، والذي حبسه الضباط الشوام ، قادة الانفصال . ولكن عبدالناصر أمر رجله الخطر محمد نسيم ، بتنفيذ عملية عاجلة لتهريب السراج من سجن المزة إلى لبنان ثم إلى القاهرة .

بقيت المخابرات السورية بعده ، في تلك الأيام ، جهازاً بلا مخالب ، ضعيفاً هشاً وبلا خطط . وكتبت صحيفة الأيام الدمشقية في عددها رقم 7494 الصادر في 24 كانون الأول من العام 1961 خبرا عن تسمية أعضاء اللجنة التي ستتولى وضع الدستور الدائم ، ومرسوم تشكيل حكومة جديدة ، تلك الحكومة كانت ثالث حكومة يتم تشكيلها بعد الانفصال في أيلول من السنة نفسها ، وبعد شهور ، قام قائد الانفصال عبدالكريم النحلاوي بانقلابه العسكري الثاني .

وصل إلياهو إلى دمشق ، في كانون الثاني من العام 1962 ، بين توقيتي الانقلابين ، وبعد هروب السراج ، ليعيش اليهودي الشرقي في ذلك الفراغ الأمني الرحب الذي يمكنه من فعل ما يريد بلا أيّ معوقات ، وكانت مهمته تبدأ بالبحث عن شخص محدد وصلت معلومات مؤكدة تقول إنه يعيش في دمشق .كان عليه أن يعثر عليه أولاً ، ثم ينتقل إلى البدء بتنفيذ مهمته .

***

لم يكن لديّ ما ينقذني ممّا أنا فيه سوى التذكر، ولم يكن لديّ ما ينقذني مما كنت فيه في الأربعينات، سوى التفكير في الماضي أيضاً. كان المعلّمون الكبار ينقلون لنا سير الماضي الرهيبة. أعجبني خالد بن الوليد، ومعاوية من جديد، لكن مشكلته أنه لم يكن علوياً. صلاح الدين الأيوبي كان شيطاناً، لكنه خلق حطين. وحطين محطة، عليّ أن أخلق لنفسي حطّيني مثلما فعل صلاح الدين. ها نحن ذا في العام 1951. إلى أين أذهب؟ لا بدّ من دمشق. عليّ أن أتسلّح جيداً قبل أن أدخلها. هذه عاصمة الأعداء كلهم، أهل المدن والأغنياء والسنة والعلماء والإقطاعيون من جماعتنا والأدباء والسياسيون وكل الأشرار. سنواتي تمر دون أن أجد الوقت لالتقاط أنفاسي. حمص ليست المكان المناسب لي. عسكر وبرد وأغنياء، والمزيد من السنة.

***

بعد أن قدّم لنا الويسكي الفاخر، وأدار شريطاً في آلة التسجيل، كانت أغنية لطيفة التونسية «لما يجيبو سيرتك، يحلو الكلام» وبينما كنا نتبادل الحديث حول التاريخ، مدّ العجوز فجأة يده إلى معن وإليّ أنا أيضاً، وأخذ يبكي دافناً رأسه في حضن معن. نظرنا إلى بعضنا البعض، معن وأنا. ماذا يريد هذا العجوز، لكنه لم يكن ينتظر سؤالنا حتى، فقد بدأ يتصرف كعاهرة عجوز محرومة لم يعد يقبل بها أيّ زبون.

***

في ملاحظات هائل اليوسفي التي كتبها على الملف الذي أعطاه لي ، أجد ما يلي مكتوباً بقلم الحبر الأخضر «كتب أكرم الحوراني ، والذي حكم عليه بالإعدام وعاش منفياً طيلة حياته ، يصف قصة إلياهو في مذكراته «لقد كانت محاكمة كوهين مهزلة من المهازل ، وإهانة لذكاء الشعب في سوريا ، وفصلا من فصول الكذب والتزوير الذي ما زال يعم عالمنا العربي حتى الآن» .

«صلاح الضللي» رئيس المحكمة . بدأ بمحاكمة كوهين ، وكان غاضباً جداً ؛ إذ إنه أخذ على الفور ، يتلفظ بالشتائم بحق الإذاعات وأصحاب الصحف العربية ، متهماً إياهم بأنهم عملاء مأجورون ، وفجأة سأل إلياهو عن رأيه فوافقه بأنهم «عملاء مأجورون بالمصاري» .

كان أخطر ما جاء في أقوال إلياهو كوهين لرئيس المحكمة عندما نهره قائلا «اسكتْ جاسوس» ، قول إلياهو «أنا مبعوث ولست جاسوسا» . فوافقه رئيس المحكمة على ذلك قائلا «أنت مكلّف وغيرك مأجور ، أنت تقوم بواجبك بس هؤلاء . .» فقاطعه إلياهو مبتسماً ومكرراً كلماته «هؤلاء أيضاً مأجورون بالمصاري» .

***

اهتز جاري وترنّح على وقع صراخ ستناي ، فهوى بنا السلم بطيئاً ، وقع هو أولاً ثم وقع فوقه السلم ، ثم وقعت فوقهما أنا .

ليس هذا تصويري . قرأت هذه الصورة من قبل . كتبها علي الطنطاوي الدمشقي الأديب العالم ، لكنه وقع حينها في أحد فروع بردى في غوطة دمشق ، وقبله وقع صاحبه الذي كان يركب خلفه على دراجته الهوائية وهي تعبر الجسر الخشبي القديم ، ووقعت فوقه الدراجة ، ثم وقع فوقهما الطنطاوي . لكن هذا ماحصل فعلاً ، وريثما نهضنا أنا وجاري ، عن أحجار أرض الديار الصلبة ، شبه محطمين ، كان فادي قد تمكن من إخفاء معالم جريمته ، وخرج مسرعاً من غرفة ستناي وجلس يداعب ريش ببغائه الأحمر قرب باب المطبخ ، لكن ستناي لم تتوقف عن الصراخ .

***

تملصنا معن وأنا ، بصعوبة بالغة ، وتذرعنا بأننا سنخرج قليلاً ونعود ، لكننا هربنا مسرعين ، وكدنا نقع عن درجات بيت العجوز في شارع بغداد . نظرنا إلى بعضنا البعض . ما الذي أصاب هؤلاء؟ هذا ابن الطبقة السياسية الكبرى التي كانت تحكم دمشق وسوريا بأقاليمها الكبرى؟ ولم لا يكون هكذا؟ فلكل مدينة عتيقة ترفها وتهتكها العميق بصورة أو بأخرى .

***

ـ كنتَ أنت أول من منع الناس من الهرب من دمشق .

ـ نعم . لمن يتركونها؟ كان التتار على الأبواب ، وصلوا

حمص وبعلبك ، وأمراء هذه القلعة أصابهم الذعر . من سيقود الناس؟ الجبناء؟

ـ لكنهم جادلوك .

ـ جادلوني حول ماذا؟

ـ بأن التتار كانوا من المسلمين ، وأن محاربة المسلمين أمر غير مقبول .

ـ هؤلاء معتدون ، لا مسلمون . من يسفك الدماء ويغتصب النساء لا يبقى مسلماً . قلت لهم : لو وجدتموني أنا ، في صفوف العدوّ ، وأنا أحمل مصحفاً على رأسي ، اقتلوني . ملأت هذه القلعة بالبشر من أصحاب القلوب الشجاعة التي تريد فقط الدفاع عن دمشق .

ـ لكن بعضهم يقول إنك تركتهم وخرجت من دمشق .

ـ نعم خرجت . من هذا الباب ، أكاد أراه ، باب النصر . ذهبت إلى الكسوة ، وبقيت مع الجنود ، كي يصيبني ما يصيبهم . طلب منّي السلطان أن أقف تحت رايته ، فقلت لا أقف إلا تحت راية قومي أهل الشام . ووعدته أنه سينتصر . وحلفت له بأني متأكد ، حتى قال لي بعض الجهلاء : قل إن شاء الله ، فأجبتهم أقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقا ، لأني متيقن من أن الناس إن صدقّت أنها ستنتصر فهي ستنتصر ، وإن لم تصدق لن ينفعها أيّ دعاء .

ـ هل كان هذا كلام رجل دين؟

ـ لم يكن الوقت وقت رجل دين ، كان وقت الرجال الثابتة ، حتى إني قلت للناس لا تصوموا رمضان ، وأنا لم أكن أصوم ، وكنت أدور عليهم آكل معهم من قصعاتهم ، وأشرب من أباريقهم .

ـ عجيب موقفك . كان بإمكانك أن ترحل إلى بلاد أخرى . لم تكن هذه حرباً دينية .

ـ لا لم تكن حرباً دينية . قلت لأحد الحراس أن يأخذني إلى مكان يختاره لي ، فقال أيّ مكان ، قلت المكان الذي لا شك أن الواقف فيه سيموت ، فأخذني الجندي على مقربة من جنود التتار أثناء الحرب ، والغبار في كل مكان ، فقاتلتهم بنفسي ، وقلت للسلطان قبلها في القاهرة : إن كنتم أعرضتم عن الشّام وحمايته ، أقمنا له سلطاناً يحوطُهُ ويحميه ويستغلُّه في زمن الأمن .

ـ نعم ، لكنك دخلت دمشق مع السلطان وأنت تقول للناس : أنا رجل ملّة ، لا رجل دولة .

ـ كنت أهرب من السلطة . ليس هذا ما يشغل العلماء من أمثالي .

***

الجزء الأول من مهمة إلياهو لم ينجح . لم يتمكن من الإمساك بأي خيط يدلّه على الرجل الذي كلّفته قيادته بالبحث عنه ، فقرّر تجاوز الأمر والانتقال إلى القسم الثاني

الأكثر أهمية . وفي تلك الفترة من عتمة الستينات ، وبسبب الصراع على النفوذ بين أركان الحكم ذاتهم ، أجرى صحفي سوري يدعى زهير المارديني ، كان يعمل مراسلا في مجلة الأسبوع العربي التي تصدر في لبنان ، مقابلة مع أحمد سويداني رئيس المخابرات السورية ، بطلب من سويداني نفسه ، الذي وضع تحت تصرف المارديني «ملف التحقيق مع كوهين» ، الملف ذاته الذي أعطاني هائل اليوسفي نسخة منه ، وقد وردت في ذلك العدد ، نقلا عن ملف التحقيق ، تفصيلات ومعلومات عن قضية كوهين أكثر مما ورد في المحاكمة ، وقد علّقت الصحافة في ذلك الوقت على الأمر بالقول «إن الجاسوس لم يعترف أمام المحكمة ، إلا بمعلومات تافهة أرسلها لدولته ، وقبلت منه المحكمة أقواله على علاتها ، فهل هذا يعني أن المحكمة لم تنظر إلى تحقيقات المخابرات السورية بصورة جدية؟» ، حتى إنه وفي أوائل العام 1965 كتبت المحرر اللبنانية «إن كوهين قد دخل سوريا كمغترب مليونير باسم كامل أمين ثابت ، وأصبح صديقا مقربا لقيادة البعثيين عن طريق تغطية النفقات المالية للحزب» . وكتب أكرم الحوراني في مذكراته «لقد كان هدف كوهين السعي لتوجيه حزب البعث بما يلائم سياسة إسرائيل في سوريا والمنطقة العربية» .

***

برد موسكو كان أكثر إيلاماً من برد حمص . ما زلت

أرتجف منه . ما الذي يدور في الخارج؟ لا أسمع سوى صوت حذاء الممرضة على بلاط الغرفة . بدني يقشعر مع احتكاك حذائها بالسطح الأملس للبلاطات الرخامية . بنيت هذا من أجل مهام أخرى . آليت اهتماماً بتفاصيل أردتها أن تعوضني ، لا أن تعذبني وتسرقني من ذاكرتي .

لم أعجب بالشيوعيين مرة واحدة ، ولا حتى بالساحة الحمراء ، ولا بضريح لينين . كان لينين ضعيفاً ، لم يكد يحكم حتى انكشف أمام شعبه ، لولا الرجل القوي الذي بنى الدولة ، لكنه كان شيوعياً أيضاً . أتاتورك هو الأكثر روعة ، لذلك لا أحب الروس ولا الشيوعيين .

***

انتهت مهمة إلياهو ، وكان لا بدّ من التخلص من اليهودي الشرقي ، ذي القيمة الرخيصة بالنسبة إلى قادته ومديريه في إسرائيل . كان عليه أن يعيد صياغة حزب البعث القومي العربي الاشتراكي ، ويمدّه بالمال الكافي بعد أن تم تفكيك جميع الأحزاب في زمن عبدالناصر ، وكان إنشاء قيادة جديدة للبعث ، معظمها من العسكريين ، أفضل ما يمكن للتمهيد للانقلاب العسكري البعثي الذي استغل الناصريين ، والذي وقع بالفعل بعد وصول إلياهو إلى دمشق بسنة وثلاثة أشهر في الثامن من آذار من العام 1963 .

مهمة إلياهو قامت على فلسفة «اخلق العدو ، بدلاً من أن

تُفاجَأ به» . نصنع عدواً مناسباً لنا ، خيراً من أن نترك سوريا للاحتمالات . وأفضل عدوّ هو ذاك الذي يرفع صوته بما يعجب الشعب : الوحدة والحرية والاشتراكية والعدالة والمقاومة والصمود وتحرير فلسطين ، دون أن يفعل شيئاً من هذا ، بل تكون مهمته ضمان السيطرة التامة على المجتمع السوري ، وضمان تأخر البلاد وتراجعها التنموي والإنساني .

***

رجلان في غرفة معزولة من غرف المحكمة العسكرية الشاحبة ، يصنع المشهد الأبيض والأسود مناخاً مشوشاً ، أحضر القاضي الضللي إلياهو ، ليتحدث معه على انفراد :

ـ قل لي الآن . لماذا لا تبدو خائفاً من الإعدام؟

ـ يا سيدي القاضي ، هذا لن يحصل ، وسترى .

ـ لماذا تبتسم؟ هل تعوّل على ضغط الدول الأجنبية علينا؟

ـ لا .

ـ على ماذا إذاً؟

ـ لا يحتاج الأمر إلى ضغط . لن يتخلى عني أصدقائي .

ـ أين هم أصدقاؤك؟

ـ حولك ، في كل مكان .

الحيرة ترتسم على وجه القاضي . لم يتمكن من العثور على تفسير لثقة إلياهو تلك . وفي الوقت ذاته ، كان الذين يحيطون به من الرفاق البعثيين ، يلحون عليه بإصدار الحكم

بالإعدام على إلياهو ، الذي حين أنهى ما كان يجب عليه أن يتمّه .

***

في زنزانته المنفردة ، كان إلياهو ينتظر ، ينتظر وينتظر . لكن شيئاً لم يحدث . أخذ يفكر بناديا زوجته العراقية التي تركها في إسرائيل دون أن تعرف شيئاً عن مهمته . فكر في صوفي ابنته ، وفكر في رسالته الأولى إلى الموساد ، تلك الرسالة التي لم تكن أكثر من رقمين «٨٨» وكانت تعني «وجدت بيتاً لأسكن فيه في دمشق» . كان بإمكانه العودة إلى إسرائيل بعد أن حقق الكثير ، لكن الشام كانت قد سرقت عقله وقلبه ، فبقي فيها مواصلاً المغامرة .

تمت تصفيته بمشهدية كفيلة بضخ المزيد من العداء لإسرائيل ، حين قيل إنه كان جاسوساً لها وإن القيادة البعثية في دمشق قد اكتشفت أمره وأعدمته ثأراً لمبادئها وحرصاً على أسرارها العسكرية وهيبتها القومية العربية .

لكن إلياهو كوهين ، من جديد ، كان اليهودي الشرقي الذي تمت التضحية به ، مثله مثل بقية الشرقيين يهوداً ومسلمين ومسيحيين . السكان الأصليون الذين تمت وتتم إبادتهم بهذه الصورة أو تلك .

كان إلياهو من حلب ، حسبما عرف عن أسرته ، إلا أن

رئيس المحكمة التي حاكمته قضت عليه بالإعدام اللواء صلاح الضللي وهو من مدينة دير الزور ، سبق وأن قال إن إلياهو ربما يكون من يهود دير الزور ، ويرجع هذا لشبه لاحظه الضللي بين إلياهو وبين تاجر يهودي سوري من دير الزور ، اسمه «كرجي» وهو صاحب محل لبيع الألبسة في الشارع العام وسط الدير بجوار الحلاق حمدي الخضر .

كان إخاد يسمع كل ما كنت أقرأه له ، بعد أن أكتبه ، وكان يقول : مفتاح أسرار دمشق في الستينات ، الأسرار الثقافية والسياسية والمجتمعية . سنوات تغيرت فيها المدينة ، وتغيرت معها وبسبب تغيرها طبيعة المشرق كله .

ـ نعم . كانت زمناً صعباً .

ـ لا . كان زمناً يسيراً . فالناس حينها كانوا مشغولين بصراعاتهم على البقاء . أرياف تتمدن ، ومدن تجرفها سيول القادمين من الأرياف ، حتى الأزياء كانت تلفت النظر ، فما كانت ترتديه الفتيات في باريس ونيويورك ، كانت ترتديه طالبات المعاهد والجامعات في دمشق وحلب وحمص .

ـ كان الشكل يتغير .

ـ وكانت خرائط المدن تتغير أيضاً . والدي كان يعتز بصداقة رجل يسكن في منطقة في قلب دمشق ، قلب دمشق تغير في الستينات . مرة أخرى .

ـ مع إيكوشار؟ .

ـ مع إيكوشار ، الفرنسي العجوز الكريه .

ـ لكن إيكوشار عاد حينها إلى سوريا بطلب من حافظ الأسد . كان من قبل يعمل تحت إمرة جيش الاحتلال الفرنسي . تم استدعاؤه هذه المرة من قبل احتلال آخر .

اسمع ؛ في العام 1968 قام وزير الدفاع حافظ الأسد باستعمال نفوذه الكبير ، باعتماد مشروع إيكوشار ، لوضع مخطط تنظيمي لمدينة دمشق بالتعاون مع مهندس معماري ياباني يدعى بانشويا .

وذات يوم سألت مهندسة فرنسية أستاذها إيكوشار عن مخططه الذي وضعه لدمشق ، فأجابها بانفعال قائلاً «لا تدافعي عن دمشق ، هذه مدينة قذرة» . كان هذا طبيعياً ، لأن رؤية إيكوشار لدمشق ، تفترض أنها مكان فارغ في أحسن الأحوال . أما هدف تلك الرؤية فقد كان إحكام السيطرة على المدينة من قبل قوة إدارية .

هدم مشيل إيكوشار بناء البلدية التاريخي ، الذي كان أول مكان يعلن منه استقلال سورية ، وهدم مبنى البريد والبرق وفندق فيكتوريا العريق ، وهدم جامع يلبغا ، ثاني أكبر أثر معماري بعد الجامع الأموي ، وأوصى بهدم محطة الحجاز وهدم المدرسة الشامية التاريخية ، وهدم السوق العتيق . صمم العجوز الكاره لدمشق الأحياء الدمشقية الواقعة خارج سور دمشق ، ومنها سوق ساروجا الذي كان يعرف في الماضي باسم

«إسطنبول دمشق» ، كمساحات جاهزة للإعمار الحديث وقرر هدمها ، لتزول معالم كاملة عن الوجود وكأنها لم تكن .

ـ يتغير الإنسان بتغير العمارة .

ـ الإنسان عمارة وجزء هندسي من العمارة الكلية للمدينة الحية .

ـ هل تذكر سنان؟

ـ من هو سنان؟

ـ سأحدثك عنه . ذات ظهيرة في مقهى البرازيل في فندق الشام ، اقترب مني شاب ، أكبر مني بسنوات قليلة ، يشبه ممثلي السينما ، بشعر أبيض وقميص أزرق . طلب الجلوس والحديث بعد أن قدّم نفسه «أنا سنان» .

ـ أهلا بك .

ـ أراك على شاشة التلفزيون ، ويهمني جداً أن أخبرك بمشروعي الكبير ، ربما تجد فيه ما يلفت نظرك .

ـ تفضل أهلا وسهلا .

أخذ سنان يحدثني عن نفسه ، وعن كونه أحد أهم المهندسين المعماريين في العالم ، وعن سكنه في أميركا بجوار المخرج السينمائي السوري الأميركي مصطفى العقاد صاحب فيلم «الرسالة» و«عمر المختار» المعروفين ، رغم أنه لم يكن يستلطفه كما قال .

لفت نظري اعتداده بذاته ، وإيمانه العميق بسحر العمارة

وأهميتها التي تفوق مجرد كونها تصميم بيوت وأبنية للسكن والخدمات .

قال سنان إنه استبدل جوار العقاد بجوار شخص آخر يؤمن أنه سيغير التاريخ .

ـ من هو؟

ـ الرئيس بشار الأسد . فعلت المستحيل كي أسكن بالقرب منه ؛ لأني لا أستطيع العمل دون أن أكون على اتصال روحي به .

كنت قد سمعت عنه قبل فترة ، حين دعا بشار الأسد أركان الدولة كلهم ، لحضور محاضرة عقدها سنان في مركز أكاديمي يدعى مركز رضا سعيد بجامعة دمشق . لم أعرف ما السبب ولا ماذا حصل حينها ، لكن قيل لي إن الوزراء والمسؤولين لم يكونوا مرتاحين للطريقة الرسولية المتصنعة التي كان المعماري يتحدث بها .

ـ اسمي سنان ، وأنا أفخر بأن اسمي يطابق اسم خوجه سنان أغا . المعمار سنان تعرفه ، المهندس التركي الذي صمم أهم المباني في التاريخ ، في التكية السليمانية في دمشق ، وجامع العادلية في حلب ، وجامع شاه زاده وقصر طوب قابي وجامع محمد باشا البوسني في صوفيا عاصمة بلغاريا ، وجامع خسرو باشا المعروف بجامع الخسروية في حلب ، وجامع السلطان سليمان ، وفي مكة رمم قباب الحرم المكي وترك أعمالاً

رائعة في البصرة والقدس والمدينة المنورة .

ـ رائع . أعمال معمار سنان مذهلة .

ـ نعم . لكن أنا أختلف عنه بعض الشيء . نتفق في كوننا من أبناء الضحايا ، فهو أرمني كما تعلم ، وقد أدخلوه عنوة في الإسلام وفي الجيش الانكشاري التركي لاحقاً . أما أنا فعلوي ولا يخفى عليك حجم الاضطهاد الذي تعرض له العلويون عموماً على يد السلفيين على مر العصور ، إلا أنني شاعر ومعمار سنان لم يكن شاعراً .

لم أكن قد عرفت حينها ، أن الرجل لا يحب الظهور كثيراً ، وأنه يعمل في المدينة منذ فترة ، وقد نفّذ مشاريع عديدة ، لكنه سيحدثني عنها ، فهو لا يتردد في الحديث عن نفسه بانبهار ، وكأنه لا يصدق أن جسده يحمل اسمه .

لكنه بدأ يتوتر ، وهو يسرد لي قصة مشروعه الإشكالي . ظهرت قطرات من العرق على جبينه ، ثم شرد وقال :

ـ إنهم يحاربونني ، وواضح لماذا . حين نفذت تصميمي لساحة العباسيين في دمشق لم تبق وإلا وهاجمتني . هذه الدولة مليئة بالوهابيين .

ـ ما بها ساحة العباسيين؟ (وكنت بالفعل لا أعرف شيئاً عن الأمر) .

ـ هنا المشكلة . هم متخلفون جداً ، ولا شيء يشوب المشروع . لكنهم لا يدركون أهمية دمج المعمار بالثقافة

بالتاريخ . سأقول لك ما الذي فعلته . خلقتُ إحدى عشرة كتلة من الإسمنت كل كتلة ترمز لخليفة عباسي ، تدور حول بعضها البعض ، في تناغم وتدرّج لوني ، وكلما اشتد اللون الأحمر بات العصر دموياً أكثر كما كان في عهد الخليفة الذي تشير إليه كتلته . وكلما كان الانحطاط أكثر كان الانحدار أكبر . تحيط بهذا كلّه هياكل معدنية هي الدول التي نمت في العهد العباسي ، الدولة الفاطمية ودولة الأندلس والدولة الأيوبية . إنها ليست مجرد ساحة تدور من حولها السيارات . سيكون في داخلها متحف يظهر العنف الذي ساد في عهد العباسيين ، عبر خمس وسبعين لحظة تاريخية .

ـ لافت جداً . لكن لم أفهم لماذا حاربك البعض كما تقول؟

ـ حاربني المحافظون . يغارون على تاريخ العباسيين . اصبر حتى أروي لك حكاية ساحة الأمويين التي صممتها بصورة مختلفة تماماً ومدهشة .

***

كان يتكلّم بحماسة الشباب ، وكأن الزمن لم ينل من حنجرته وتعابير وجهه شيئاً ، يكرّر أنه في تلك اللحظات لم يكن متديناً ، كان دمشقياً وحسب .

ـ قلت لأمير القلعة : لو لم يبق في هذه القلعة حجرٌ على حجر لا تسلّمها لهم .

ـ بعد عشر سنين من كلامك هذا ودخولك دمشق ،

سجنوك في القاهرة .

ـ نعم . هذا شأن آخر . لكن أخرجوني منها للحرب من جديد ، ووقفت معهم .

ـ هذا ليس شأناً آخر ، هو جوهر الموضوع . لا تنس أني قلت لك إنك أيقونة التكفير في هذا الزمان .

ـ لم أكفّر أحداً .

ـ كتب عنك ابن حجر العسقلاني أن بعض العلماء وقفوا ضدك ، سأقرأ لك ما كتب «لقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مرارًا بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع ، وعقدت له بسبب ذلك مجالس في القاهرة ودمشق ، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ، ولا حكم بسفك دمه ، مع شدة المتعصبين عليه حينئذٍ من أهل الدولة ، حتى حبس بالقاهرة ثم بالإسكندرية» .

ـ قلت لك ، لم أكفّر أحداً ، ولا يجرؤ أحدٌ على الطعن بمعرفتي .

ـ لكن عليّ أن أكون صريحاً معك ، كثير من علماء الشيعة يقولون إن حربك ضد التتار ، كانت حرباً بين طائفتين ، شيعة وسنة ، لأن التتار كانوا شيعة ، وأنت كنت تقود جيش السنّة .

ـ هل يغيّر هذا في الأمر شيئاً؟

ـ نعم يغيّر .

ـ وهل كان غازان سنياً أم شيعياً حين ذهبت للقائه

ورفضت تناول طعامه كما فعل وفد أعيان دمشق الذين كانوا معي ، وقلت له : كيف آكلُ من طعامِك وكلُّه مِّما نهبتم من أغنام النَّاسِ ، طبختموه بما قطعتم من أشجارِ النَّاسِ؟ ثم دعوت له صادقاً حين طلب منّي هذا . هل كنت سأدعو له لو كان لديّ منه موقف بسبب تشيّعه؟ أم بسبب إعلانه نيته اقتحام دمشق وتسليمها لمن كان يريد تدميرها؟

***

في ساحة العباسيين ذاتها التي أعاد سنان صياغتها ، كانت تتم عمليات الإعدام بالشنق ، للخارجين على القانون . لكن إلياهو كوهين لم يعدم هناك ، بل في ساحة المرجة . وكنت كلما مررت من أمام أعمدة المشنقة القديمة في العباسيين ، أتخيل إلياهو ، حتى وإن لم يكن قد علق عليها ، ولا في المنطقة ذاتها ، لكن شبحه كان موجوداً دون شك .

***

سلمى تخلع قميصها الحريري الأبيض ، ثم تخلع قميصها الحريري الأبيض ، تخلعه من جديد . تتكرر اللقطة ، كلما رأيتها مرتدية ذلك القميص الأبيض ، في مقهى في البرامكة . يعيش فيه جسر صغير يعلو فوق ساقية ثم ينحدر ، حرارة المساء الدمشقي ، وأصوات الليل المبكر .

***

أوراق هائل اليوسفي ثقيلة على المناخ في سوريا في تلك الأيام . لذلك كان من الصعب أن يعرض هذا البحث الاستقصائي الواسع ، الذي يتطلب فضحاً لشخصيات كبرى تتحكم بسوريا . وصلتنا التهديدات بالتوقف عن الكتابة ، فتوقفنا .

***

كل شيء يحدث من حولي ، دون أن يكون لي دورٌ فيه ، كأنما يقودني قدرٌ كتب اليوم ليصحح خطأً ظل يرتكب ألف عام . نحن خارج التاريخ . نحن من؟ نحن من؟ هل هذا سؤال؟ نحن أنا .

***

ـ ماذا عن ساحة الأمويين؟

سألت سنان ، وقد بدأ يغيظني حديثه . يالها من جلسة أولى مليئة بالشرر المتطاير من أعماقه ، والدهشة التامة داخلي من ذهنية هذا الرجل ذي الملامح السايكوباتية .

ـ ساحة الأمويين صنعت فيها شيئاً آخر . اسمع . أنا أحاول فعل التالي . حقن أركان دمشق بحقن ثقافية ثقيلة وهامة وحساسة ، حتى تبقى إلى الأبد .

ـ نعم . . . إلى الأبد .

ـ يطل على ساحة الأمويين مبنى الإذاعة والتلفزيون . والساحة عبارة عن حديقة دائرة خضراء فقط . أين يمكنك أن تضع الحقنة؟

ـ أين؟

ـ لا يوجد موقع سوى سور مبنى التلفزيون .

ـ صحيح .

ـ وهذا ما فعلته . أخذت تعهد تصميم سورَي المبنى ، وخرج من بين يدي تصميم مذهل وعملاق .

ـ ماذا فعلت؟

ـ بنيت كتلاً إسمنتية أيضاً مثل كتل ساحة العباسيين . لكن هذه المرة ، كان عددها أربع عشرة كتلة ، على عدد الخلفاء الأمويين .

ـ مرة أخرى؟

ـ نعم . مرة أخرى . أليس اسم الساحة ساحة الأمويين؟ إذاً لتكن ساحة للأمويين ، الكتل واقفة ، لكنها تنحني إلى الأمام . تميل ، وكأنها تركع ، باتجاه بيتي .

ـ باتجاه بيتك؟

ـ ألم أقل لك إني سكنت إلى جوار قصر الرئيس بشار الأسد؟

ـ تقصد أن الكتل الإسمنتية تركع باتجاه القصر الجمهوري؟

ـ نعم . تركع .

***

تحيرني شخصيته . فالزمن الذي كان قبله ، كان كفيلاً بجعل العقول تنقلب على ذاتها ، ليحافظ كل صاحب عقيدة على عقيدته ، والزمن الذي جاء بعده ، كان زمن التفتت إلى أديان

جديدة بدلاً من دين واحد . بماذا تختلف صورته عن صورة أيّ مؤمن بعقيدته من أبناء الطوائف؟ أليسوا متمسكين باختلافهم ، غير مؤمنين بما لدى غيرهم من عقائد؟ أليس هذا تكفيراً؟

كنت أحدّث نفسي وأنا ذاهب إلى القلعة ، كي أتسلل عبر جدارها الداخلي الكبير بأقواسه العالية ، لأصل إلى زنزانته المعتمة . كان خيالاً ، لكنه كان سجيناً حقيقياً ، مثله مثل كل المعتقلين في سوريا . هل هم خيالات أيضاً؟

***

. كنت أخاف من اللاذقية ، وخفت بعدها من حمص ، كان شعر جسدي يقف ذعراً . لا أحب محادثة البشر ، بقيت قليل الكلام . خفت من موسكو أيضاً ، لكن أكثر المدن التي أثارت رعبي كانت دمشق ، لذلك لم أبق فيها ، ليس لي عملٌ في هذه المدينة .

***

غرفة ستناي كانت دوامةً من صيحات ، والفتاة تلطم على وجهها ، وتخمش خديها بأظافرها . كانت تصرخ من حنجرة بعيدة بعيدة :

ـ لماذا لا تبلغين الشرطة؟

ـ لا . الشرطة ستأخذني أنا ولن تفعل له شيئاً .

ـ كيف؟ هذا اعتداء ومحاولة اغتصاب .

ـ محاولة؟

ـ هل اغتصبكِ؟

ـ كيف يكون الاغتصاب؟ أنا لا أعرف .

***

ما هذه الأمور التي تحصل معك؟ سألني إخاد .

ـ لماذا تستمع إلى هؤلاء المرضى؟

ـ هؤلاء وثائق يا صديقي ، وثائق المدينة وزمنها ، جنون لا حدود له ، يطحن في الشام . جنون وعي ومادة ، جنون ثأر ووجود ، جنون شبق وجوع ، جمال رخيص يجاور جمالاً أصيلاً . قيم خاصة وفريدة .

ـ وما تزال هذه الأبنية قائمة في دمشق حتى اليوم؟

ـ نعم طبعاً . أنت وكل الناس تمرون بها يومياً .

***

الطيران علّمني أموراً كثيرة . اخترت الطيران لأنتحر ، ولم أختره لأنظر إلى الناس من فوق كما يخيل إلى كثيرين . لم تكن حياتي سعيدة ، وهي ليست كذلك الآن ، مسجوناً في جسدي ، حتى لساني يعجز عن الحركة . بالكاد أفتح جفني وأعيد إطباقه سريعاً ، حتى زوجتي التي اخترتها ، ابتعدت عني . هل كانت تخطط لهذا الأمر منذ أن تزوجنا رغماً عن أبيها وأسرتها؟ لا شك أنها كانت ترسم الخطط . هؤلاء بلا ضمير . أعرفهم .

***

منى صبية تهتم بالشعر ، حيوية ومندفعة باتجاه الحياة اندفاع الأفراس . كان ناصر يستعد ليخبرها ، بعد تردد طويل ، بأنه قد وقع في غرامها . كانت الثمانينات ، والمدينة الفراتية لم تألف بعد ما تغير في البلاد ، في الجامعة الجديدة ، ذهب ناصر صباح اليوم ليقول لها إنه كان يكتب لها طيلة الوقت ، حين كان يكتب عن الحب . أما حين كتب عن الموت فقد كانت قصائده عن أخته التي خطفتها مياه نهر الخابور في قريته «البصيرة» . لكن ما عرفه في ذلك اليوم ، كان كفيلاً بجعله يصدق أن كل ما كتبه عن الحب أو عن الموت ، كان عن منى . فقد قالوا له إنها أحرقت نفسها بلا مقدمات . سكبت الكاز على جسدها ومررت عود الثقاب على حافة علبته الخشنة ، وذهبت إلى الفناء .

***

يتباهون بهذا النهر . بلادنا كلها أنهار . نهرهم صغير وحقير . جبالنا تلد كل يوم نهراً ، ينابيعها لا تجف . هؤلاء يعرفون كيف يتباهون بما لديهم ، نحن شعب غبي ومتوحش . ما الذي يحدث في الخارج؟ أريد أن أعرف . أسمع دقات قلبي المتباطئة ، أتخيل ذلك النهر حين رأيته أول مرة في الخمسينات ، كان بغيضاً . أما هؤلاء المتباهون في دمشق فقد كانوا أكثر بشاعة منه .

***

ليس من المألوف ألا يكون لك صديق من المعتقلين السابقين . هذا إذا لم تكن أنت معتقلاً أصلاً . ولذلك كانت تنشأ في سوريا شبكات من العلاقات ذات حلقات متطابقة ، يكون فيها السجين السياسي السابق والفلسطيني الذي ولد في أرض فلسطين ثم نزح إلى سوريا ، أو ولد بعد نزوح أسرته ، إلى جوار اللاجئ العراقي ، أبطالاً أساسيين في المشهد .

ستجد المثقف السكير ، والسكير غير المثقف ، من لوازم التكوين الإنساني في الشلل والصداقات ، ليصبح من النادر أن تجد شخصاً متوازناً نفسياً ، لم يتعرض لرضوض وصدمات وأزمات عاصفة في حياته .

من بين السوريين المتبقّين في كل مجموعة ، كان بوسعك أن ترى المسيحي والعلوي والسني والكردي والعربي والشركسي والدرزي والإسماعيلي ، كانوا يجتمعون حول مائدة الوحشة في البلاد التي حُرّم فيها كل شيء إلا التيه .

كانت الظلمة حالكة ، ولم يكن ينيرها سوى الحياة كسيّاح في المكان ، يعبرونه كما يعبر السائح ، يعيشون يومياتهم كما يعيش السائح . كل شيء مؤقت ، المال والسكن والحب والصداقات ، كل منهم كان يهاجر إلى الفراغ .

حين وصلت إلى دمشق ، كانت تخرج من الثمانينات ، منهكة ، منكسرة ، فقد قرر الرئيس أن يصبغ تلك العشرية من الزمن ، بصبغة الاعتقالات وتفكيك أيّ تجمع أهلي ، سواء كان

ثقافياً أو سياسياً أو نقابياً أو حتى رياضياً . وحين خرجت من دمشق ، كانت كل تلك الحلقات قد تفككت ، بعد أن عرف الناس أن الهجرة إلى الفراغ ليست سوى تجمّد في المكان ، وانصهار للروح في دوامة المدينة الساحرة .

***

لم أطل المقام في دمشق . لا أستطيع ، لم أقو على البقاء فيها بصورتي الحالية ، أعزل من كل شيء . أردت أن أكون مسلحاً ، لكن هذا المسدس لا يكفي . قد يهاجمك العدو من كل جانب ، لذلك عليك أن تكون حذراً ومدججاً بالأسلحة من كل نوع . لا توجد حنفية تنقّط قطراتها المؤذية ، لكنني أتخيلها الآن ، كانت كل حنفيات الفنادق القديمة في المرجة تنقّط ليلاً ، تقطر قلقاً . ليست موجودة الآن . رائحة العسكر القذرة ، وأجسادهم التي تنضح بالعرق والقذارات ، عبيد جدد . ليسوا جدداً ، كانوا عبيداً دوماً . كثيرون منا خدموا العثمانيين في جيوشهم الانكشارية . خدموهم بطاعة عمياء ، ورغم أن العثمانيين كانوا يحتقروننا ، إلا أن جنودهم الذين يتحدرون من جبالنا كانوا أكثر الجنود إخلاصاً للسلطان .

***

قال ناجي إن كل من كان ينتسب إلى الشعبة الثانية ، كانت تنظّم له إضبارة ، كي نعرف من هو؟ ومن أين جاء؟ وما هي خلفياته؟ فلا يعقل أن يستأمن على أسرار الدولة ، شخصٌ

غير مدروس بما فيه الكفاية . ولذلك فقد احتفظنا بنسخة من إضبارة علي هذا . كلما قرأتها أضحك ، كيف تمكن من التسلل إلى موكب الرئيس شكري القوتلي وخداعه . كان طفلاً ملعوناً ، ماكراً .

***

كان خالي مهووساً بالتصوير الفوتوغرافي . لم يكن يكتفي بالتقاط الصور ، بل كان يقوم بتحميضها كما يقال ، وطباعتها بعد ذلك . تراكمت لديه آلاف الصور عن آلاف الأشياء المختلفة ، أشخاص ولحظات وأمكنة . الصورة الفوتوغرافية البيضاء والسوداء ، ليست مجرد تصوير ، ولا رغبة بتثبيت الزمن ، كانت استباقاً لوضع اللحظة في سياق ، بالاستناد إلى عدد لا نهائي من اللحظات . حين قرأت آلاف الصور التي تركها خلفه ، كنت أرى الزمن وهو يجري مثل آلة مجنونة بالسرعة .

***

لم يكن موجوداً في زنزانته . ظننت أنّي أخطأت في الزنزانة . مررت على الحجرة المجاورة ، لا أحد . لعلّه في الثالثة . لا أحد أيضاً . تفحصت الزنازين على طول الممر في القلعة . لم أر له أثراً . هل أغضبه حديثي؟ هل اعتبر أني أتهمه في فكره؟ لماذا اختفى؟

***

شرفة بائع الفضة

لم أكن أكتب كل شيء في قبونا المخفي إخاد وأنا . كنت أستعيد تلك الطاقة التي لطالما امتصها جسدي من الحجر الأبيض والأسود في حارات الشام . ولم أكن أعلم أن الحجر المرصوف على الأرض ، وذاك المبعثر في حي الحمراوي قرب الجامع الأموي ، كان قد تركه المشير المنتحر عبدالحكيم عامر ليذوي وحده ، منذ مطلع الستينات . لم يكن الناس قادرين على مشاهدة تفاصيل الحمراوي بسبب البيوت التي تغطيه . لكن زياراتي لجوزيف ، بائع الفضة في الطابق الثاني من مبنى وكالة تللو الصغير في سوق السلاح القديم وزقاق «بين البحرتين» ، كانت كفيلة بجعلي أتعلق بهذا المكان .

كنت أقف على الشرفة الصغيرة المطلة على الحمراوي ، وأنظر كيف يترك الإنسان مثلما يترك هذا المكان ، الذي كان يعرف بزقاق «ابن نوح» ، قبل أن يبني القاضي كمال الحمراوي في العام 1480 داره الكبرى في القسم الشرقي منه قرب باب الخضراء التاريخي . على حدود الحمراوي ترك أسعد باشا العظم قصره ليقوم عند المدخل الغربي ، حيث المدرسة الجوزية وخان التتن وخان السفرجلاني والمدرسة الأيوبية . كل هذا كان

يحيط بدمار هائل ، كان قائماً قبل أن يجري تدمير بقية المدن السورية .

دمار العمارة الهندسية هو ذاته دمار العمارة الإنسانية .

***

لا يسألني أحدٌ عن الحدث ، فالحدث في هذا الورق هو الحركة الكبيرة للوحة الرمل في تكوينات الشام ، لا حركة الشخوص .

***

أخذت أعود كل عصر إلى القلعة ، صار هاجساً سيطر على تفكيري طيلة الوقت ، البحث عن طيف سجين القلعة . وكانت الأعوام تجري كدوران سريع للشمس . لم يبق منه سوى سلاسل الحديد ، وظلال بيضاء في الزنزانة المعتمة . كان موجوداً ، لكنه لم يكن يريد إظهار نفسه . بقي سجين رأي في القلعة وفي عقول الناس . كنت سأقول له : إنهم يعتبرونك مثل القديس أوغستين ، أو مثل توما الإكويني ، ويقولون إنك قد أثّرت بمارتن لوثر ، لكني لم أقل . غضب ذلك الرجل وغيرته على دمشق ، أكبر بأضعاف من غيرته على الفقه والشريعة . كان عاشقاً لدمشق ، والعاشق مستعد لقتل كل من ينوي ، مجرد النية ، الاقتراب من معشوقته .

***

بقي خالد يمضي وقته في السجن في خدمة بقية الزملاء

الأكثر قوة منه . صحيح أنه دخل السجن السياسي ، لكنه لم يكن سياسياً ، بل كانت لديه ميول . لكن تلك الميول التي لم يكن يعرف ما هي ، قرر أن يكتشفها بنفسه في السجن . لم يكن يعرف أنه يمكن أن يخدم السجناء الأقدم بطرق مختلفة ، يطبخ لهم البطاطس المهروسة والبيض ، وينظف لهم بطانياتهم من البراغيث والقمل ، ويكنس زواياهم ، وأحياناً كان يراقب الذين يخدمونهم بعد أن يطفئ السجانون الأضواء ليلاً . بعضهم كان ينام إلى جوار من يدفع له عملة السجن (السجائر) ، ويقوم بما يطلبه منه السجين . وكان أسوأ زبائنهم من السجناء السياسيين ، الإسلاميون ، فهؤلاء قضوا حياتهم في التحريم ، تحريم كل شيء ، ويظنون أن فترة سجنهم فترة استراحة من التحريم . أما الشيوعيون ، فقد كانوا يميلون إلى اليأس ، ولا تحدثهم أنفسهم بالشهوات ، فضابط الأيديولوجيا في أعماقهم مستيقظ دوماً . قد لا يكونون من زبائن رفاق خالد ، لكن بعضهم كان يقوم بدور مشابه في زنازين أخرى . السجناء المنتمون إلى الأقليات الدينية والعرقية كانوا الأكثر انكساراً . فلديهم عقوبات مضاعفة . كيف يعارضون نظاماً سياسياً يحميهم من الغالبية التي يسميها «همجية»؟ ولماذا لم يدخلوا في تحالف الأقليات الذي أنشأه منذ العام 1970؟ كانت هذه أسئلة المخابرات السورية لهم ، فهم خونة أكثر من أولئك الإرهابيين المسلمين السنة ، ولذلك كان السجناء السياسيون

الأقلويون ، في حالة احتراق نفسي دائم ، لا تسمح لهم بالتمتع بتلك الخدمات السرية . لم يتهمه أحد بأنه كان قد وشى برفاقه ، فلا رفاق لديه أصلاً ، ولم يكن ينتمي إلى أيّ شبكة سياسية أو حزب سري ، لذلك أحبه السجناء ، واعتبروه ضحية لذيذة ، يمكنهم استغلاله كيفما أرادوا طالما أنه ، والذين يشبهونه ، يجدون توازنهم في هذا العطاء . خارج السجن ، كان عماد ، شقيق خالد ، يعيش مع إخوته الصغار ، بعد موت والده وهروب زوجة والده الشابة ، وكان بيته في دير الزور عبارة عن مقر غير رسمي للمثقفين . يأتون مساء حاملين زجاجاتهم في أكياس ورق ، بعد أن يشتروها من بائع الخمر المسيحي ذاته في شارع الجبيلة قرب سوق الهال .

لم يكن أيّ منهم ، يعرف ما هو موضوع السهرة الليلة ، كانوا قادمين من مناطق مختلفة ، ومن مهن مختلفة ، معلمون ومهندسون وعاطلون عن العمل ، لكن الجميع كان يدّعي أنه يساري ، ولديه قصص يرويها عن نضاله ، ومعاناته مع المخابرات السورية . وكان لا بد من شيء يسمعونه لبعضهم البعض ، فهم قراء لا يشبعون من الكتب ، يتبادلونها ويسرقونها من المعارض ، ويجدون متعة في استعارة كتاب والاحتيال على صاحبه ، كي ينسى لمن أعاره . لكن هذا لم يكن يكفي . أخذ كل منهم بالتحوّل التدريجي إلى أديب .

***

أنا صورة ، صورة عظيمة للجميع ، للتاريخ كله ، وللبشر في المشرق ، للأمكنة والأعماق ، لوحشية المشرق ، وقسوة المشرق . أعرف نفسي أكثر من الآخرين .

هل صحيح إن كان جمال عبدالناصر يستحق أن يكون قائداً للعرب جميعاً؟ في زمن الوحدة أخذونا إلى القاهرة ، كنا عسكراً ، عبيداً كما قلت .

***

قتلني ناجي برائحة البخور ، أعمى عيني . قد يكون بخوراً رخيصاً . أو ذا طبيعة خاصة ، لكنه ليس بخوراً لطرد الشياطين وحدهم ، بل الملائكة معهم أيضاً . تابع حديثه وهو يبتسم : ولد علي في بيئة فقيرة جداً . كان أبوه شيخ دين كما يقال . كان يعلّم الأطفال الكتابة والقرآن تحت الشجرة ، وكان من بين هؤلاء الأطفال ابنه علي ، علّمه الشعر والأوزان وحفّظه الكثير من الأبيات والقصائد لشعراء كبار مثل عنتر وأبو تمام والمتنبي . ومرة زار رئيس الجمهورية القوتلي مع مجموعة من السياسيين والبرلمانيين بلدة جبلة ، فخطط علي الذي كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره ، أن يفعل ما كان يفعله الشعراء في التاريخ ، يمدح الخليفة الذي صار يسمى رئيساً في تلك الأيام .

يقطع ناجي حديثه ، ويحمل لوحة من لوحاته الصغيرة ، ويقرّبها من وجهه ، كي يراها جيداً ، ويقول : انظر ما أجمل لوحتي هذه . انظر إلىٰ الألوان الترابية .

ـ نعم . رائعة .

اللوحة كانت عادية ، بسيطة ، مألوفة ، رأيت منها المئات من لوحات التراث والشاميات ، لكني كنت أريده أن يعود إلى الحديث الذي كنا فيه . سعل وعدّل جلسته ، ومسح اللوحة بخرقة حتى لَمّعها ، ثم أخذ يحاول تعليقها بسلك يتدلى من السقف . كان يعلقها فلا يدخل السلك في حلقتها ، ثم يعيد تعليقها من جديد ، فلا يدخل السلك في الحلقة .

***

كانوا يخدعون أنفسهم ويخدعون أصدقاءهم ، فينسخون كتابات لرسول حمزاتوف أو ناظم حكمت ، وأحياناً قصصاً لتشيخوف ، ويدّعون أنها لهم ، فتدور بينهم الحوارات وتدور وتدور . كان عماد مخموراً طوال الوقت . لا يعمل . لا يحب العمل . وحين يضطر إلى المال ، يستدين من ضيوفه . وفي غالب الأحيان ، لا يكلف خاطره عناء الاستدانة ، بل يطلب منهم أن يجلبوا معهم الطعام والشراب واحتياجات البيت لإخوته الصغار .

وبعد أن باع كل الأثاث الذي تركه والده ، لم يبق لديه في البيت شيء يبيعه . غير أنه اكتشف بضاعة جديدة ، يستطيع أن يجذب بها زبائن جدداً ليقضوا الوقت عنده ليلاً . عرف أن الشعر سهل وممكن . شجّعه على هذا شيوع موجة الكتابة البسيطة ، التي لا تتطلب أن يكون الشاعر مثقفاً ولا عارفاً

بتاريخ الشعر وأوزانه ومراحل تطوره . كان يكفي أن يكتب كلمات مفككة وعبارات تشبه الخواطر ، ليناقشها رفاقه الذين يفضلون فعل هذا على السهر في المطاعم والأماكن العامة المكلفة ، والتي تغفو على ضفة نهر الفرات ، ويسميها أهل الدير «الجراديق» .

***

ليل المدينة ، هو المدينة .

النهار عبور سريع من ليل إلى ليل .

***

أخيراً علّق ناجي لوحته ، وجلس ، قال : سألت علي ذات مرة ، عن قصته مع الرئيس ، فقال لي : أردت أن أتعلّم .

ـ هذا حقه .

ـ نعم . بيني وبينك أعجبني إصراره على التعلّم . لكن لم تكن المشكلة في رغبته بتحصيل العلم ، بل في نظرته إلى من يمنحه هذا .

ـ لا نعرف .

ـ لا . نعرف . قال لي : نويت أن أمدح الرئيس بقصيدة ليرسلني إلى المدرسة ، وسألت أبي ، فسخر مني ، وقال لن تتمكن من الوصول إلى القوتلي . هذا الرئيس وأنت مجرد صبي فقير منتوف ، لكنه دعا لي أن يوفقني الله . ذهبت حافياً بثياب الفلاحين . طردوني أول الأمر ، حين عرفوا أنا ابن من .

فهمت على وجهي في الحقول ، وركضت باتجاه جبلة ، ووصلت إلى مبنى البلدية . قلت لرئيس البلدية وكان اسمه ياسين علي أديب إن لديّ قصيدة ترحيب بالرئيس ، وطلبت منه مساعدتي . وصل الرئيس وقرأ الكل كلماتهم . وكاد الوقت ينتهي ، لكن رئيس البلدية قال للرئيس إن هذا الصبي لديه قصيدة من أجلكم فخامة الرئيس ، فأذن لي . فصعدت إلى المنصة وقرأت القصيدة ، إي والله هذا ما حكاه لي وقتها في الشعبة .

ـ هل تعرف القصيدة؟

ـ عندي كل شيء . هو يخفيها ولا ينشرها في كتبه ، لكنك ستجد كل ما تريد في أرشيفي . دقيقة .

فتّش ناجي بين أوراقه . وأخرج ورقة صفراء وقرأ منها :

سلاماً على هذا الهلال الذي يبدو/وأهلا وسهلاً أيها الأسد الوردُ/حللتم فخلّفتم سروراً وبهجةً/وذكراً عظيماً دونه المسكُ والندُّ/حببناكَ عن بُعدٍ وجئنا تقرّباً/ فكان كما شئنا ولم يحل البعدُ/فداكَ نفوسٌ لم ترد خوض ذلّةٍ/ولم تفتكر إلا وتفكيرها المجدُ/أيا ابن الكرام الصيد من آلِ يعربٍ/ ويا أيها المبرورُ والعلَمُ الفردُ/ تجلّدْ وكافحْ ما استطعت لنعتلي/فأنتَ لنا السيفُ ونحن لك الغمدُ/أشكري وإن الشكر باقٍ تصونهُ/غطارفة عد لهن ألسنة لدُّ/ إذا حذفتْ ياء ولامٌ من اسمهِ/بدت قوةً لا يستطاع لها ردُّ/فنحن كما شئتم قيامٌ

بأمركم/ونحن على آثاركم أبداً نعدو» .

تابع ناجي : هناك أبيات أخرى ، خذ الورقة . حينها قال له القوتلي : ماذا تريد مقابل قصيدتك؟ فقال علي : أريد أن أدخل المدرسة ، فقال له القوتلي : ستدخل المدرسة ، وأرسله إلى مدرسة اللاييك الفرنسية دون أن يكلّف أسرته دفع أيّ تكاليف ، حتى يحصل على شهادة البكالوريا .

***

كنت قليل الكلام ، لكن ملاحظاتي لم تكن تتوقف عن التدوين في عقلي . في غرفتي ذاتها في حارة العزرية وفي زقاق ضيق من أزقة دمشق القديمة ، كان أبو غازي صاحب البيت يرتدي برنيطته طيلة الوقت ، لا ليغطي صلعته بل ليبدو فرنسياً ، مثل بعض المسيحيين القادمين من سهل حوران . أبو غازي البخيل ، كان يضطهد ابنه عطية ، وعطية يضطهد بدوره التلاميذ الصغار الذين يدرسهم في مدرسة قريبة . كان عطية قد بدأ في عقده السادس ، دون أن يتزوج . والده لم يكن يشجعه على الزواج والمصاريف «بلا طعمة» ، ولم يكن في البيت سوى أنا وأبو غازي وعطية ، نشرب الشاي الثقيل كل صباح . ولأني كنت قليل الكلام ، ظن أبو غازي أن هناك سراً يختبئ خلف صمتي ، فأخذ يراقبني طيلة الوقت ، ليل نهار ، جعل شغله متابعة ما أفعل . وحين كنت أحتاج لإجراء اتصالات ، كان يفتح لي القفل الكبير الذي يضعه على سماعة الهاتف كي لا يستعمله ابنه

عطية ، ويقف خلف الباب يسترق السمع . لم يكن أبو غازي ممن يؤمنون بالراديو ، فهو يحمل الأخبار المزعجة ، ولا يفضل مشاهدة التلفزيون الأبيض والأسود المتهالك في صالونه ، فهو يستهلك الكهرباء ، ولذلك لا ضرورة له . كان جسده غريباً ، مثل تفكيره . فعيناه لا تتحركان وحدهما ، كان جسمه يتحرك معهما يميناً ويساراً وإلى الأعلى والأسفل .

***

قال لي معن قبل أن نصل إلى ساحة صغيرة يطلق عليها الديريون اسم دوار المدلجي ، إن الشاعر الذي سيعرفني إليه ، شاعر خاص ، وإن قريباته الصبايا المثقفات يحتفظن بأشرطة مسجلة بصوته في سرداب البيت . كنت قد حضرت لإلقاء قصيدة عن الأحجار الكريمة ، ولم أكن قد كتبت قبلها أيّ قصائد . لكنني كنت أقرأ ككاتب ورسام ، لا كقارئ يستقبل ما يكتبه الآخرون . دخلنا الباب العتيق . ممر معتم . ثم غرفة إلى اليمين . ثم طاقة في الجدار في صدر الغرفة تشبه الخزانة ، استقبلنا الشاب النحيف بابتسامته ، كان أكبر منا سناً ، ربما كان قد تجاوز الثلاثين . طلب مني بعد أن جلسنا أن أقرأ له ما لديّ ، فقد أخبره معن بأني شاعر وهو يحب أن يسمع مني . فأخرجت ورقي وقرأت . كانت القصيدة على شكل دفتر صنعته بنفسي ، بخطّي الراقص كالعلامات الموسيقية ، أو ما يشبه الخط السنبلي المغربي الأندلسي ذا الدوائر السوداء الذي

بقي يرافقني بقية حياتي . يشب ومرجان وفيروز وعقيق وأحجار قمر . . . كان عالماً كنت أنا أول ضحاياه .

***

على الواتس أب ، راحيل تناقشني في مشكلة تشغل بالها . اتصلت بي ، وأنا أردت أن أستمع إليها جيداً أولاً ، أكثر من رغبتي بالرد .

ـ أنا لا أعرف كيف صارت داعش من حولنا وحوالينا هكذا . تعرف إبراهيم إن أخي هنا في إسرائيل ، داعشي؟

ـ داعشي كيف؟

ـ داعشي مثل داعش . هو من الأصوليين اليهود . ومرة سألته : يا أخي لماذا يوجد دم كثير في التوراة؟ هل يختلف هذا عن عنف الإسلاميين؟

***

كانت أقسى لحظاتي تلك التي دخلت فيها الغرفة التي مددوا فيها ابني الأكبر . أمرت بأن يغلقوا الباب وألا يدخل عليّ أحد . كنت معه ، لكني كنت وحدي . كان جسده مهشّماً ، شبكت أصابعي وجلست أمامه . هل تمكنوا مني؟ هل استطاعوا طعني في خاصرتي؟ من الذي فعل هذا؟ كان أبشع مافي الأمر أن هو من فعل ، ابني نفسه هو من وجّه إليّ هذه الطعنة الغادرة بخنجر مسموم .

***

معن كان دليلي السري ، صديقي الذي يقرأ أفكاري ، ومنذ أن غادرت المدينة ذات شتاء وأنا أفتقد صوته المبحوح في الأماكن ، عابث بريء ولد بعد قصة حب بين شاعر فوضوي وامرأة خلقت من زجاج رقيق .

***

تقدّم بي العمر سريعاً ، وكانت تجاعيد تظهر على يديّ وعروق تتدفق وتنبو عن الجلد . كنت أريد هذا ، ولم أعرف أن أزمنة تتخالط في الكيمياء التي اخترتها لوعيي .

***

على مقهى «عصمان بيك» جلسنا . كان نهر الفرات يجري بشدّة . مياهه تحفر تحت الجسر العتيق . قال سمير وهو يحرّك السكر في كأس الشاي : بعد أن قرأت قصيدتك أردت أن أقول لك شيئاً واحداً فقط . . ستموت شاباً .

***

عاد إخاد ينسج المستقبل على نول أفكاره . قلت : لا أؤمن بالخيال المشطور عن الواقع ، ولا أؤمن بواقع غير خيالي . التفت إليّ وهو يشعل الشموع في شمعدانه العبري ، وقال : سترى أن كل شيء خيال . خدعكم الأميركيون بنظرية المؤامرة ، كي تتوقفوا عن التفكير . العالم مؤامرة . الحياة الطبيعية مؤامرة . اليوميات مؤامرة . ينهال تراب علينا من السقف تحت ضغط القذائف . لا تهب نسمات تطفئ شموع إخاد . كان يظن أنها

اشتعلت إلى الأبد ولا شيء يقدر على إخمادها .

***

شكوت إلى صديقي الطبيب النفسي من هاجس سيطر علي . قلت «أعتقد أنني مصابٌ بالهايبرثيمسيا» . وهي كما تصفها القواميس والمراجع الطبية حالة نادرة يبلغ عدد المصابين بها في العالم عشرين شخصاً فقط ، تجعل المريض يتذكر كل تفصيل من تفاصيل حياته الدقيقة ، مهما تراكمت فوقها ذكريات ومهما مرّ الزمن . لم يقتنع الطبيب النفسي . قال إن تلك الحالة ليست من الأمراض العصبية أو النفسية . لكنني أعرف بنفسي تلك التفاصيل التي لا تغادر ، كل اللحظات وكل الذكريات ، تحضر وتتجمع في كل لحظة . وبدلاً من البحث في كتب الأمراض العصبية والنفسية ، تتبعتُ جان بودريار الذي كان قد كتب أن تجاوزنا للتاريخ متعالٍ ، وأن التاريخ الكبير ، هو نوع من التاريخ المعاكس . قال بودريار : مشينا إلى أمور تافهة ومبتذلة ، حتى أصبحت أشياء ذات أهمية تاريخية . كان يعتقد أن حرب الخليج لم تقع . كان يؤمن بأن الإغراء هو سيد الكون الرمزي ، في حين تمثل السلطة الإتقان الوحيد في الكون الحقيقي .

هذا ما يحدث .

السلطة صنعت هندسة الحياة ، وصارت أكثر حقيقية من الحقيقة .

***

تبدو حياتي فوضوية ، لكنها مهندسة أيضاً . عرفت هذا حين ظهرت سلمى فجأة في أحد مشاهدها . كانت تطوراً طبيعياً للأشكال الثمانية التي تصنعها أحداث يومياتي المضيّعة قصداً . وكما كنت أفعل في كل مدينة أرحل إليها ، كنت أضيّع نفسي عامداً ، كي أعود وأبحث عن طريق العودة . وفي تلك الطريق ، أكتشف أشياء جديدة ساحرة ، وأكتشف أموراً عن نفسي . أخذت وقتاً طويلاً حتى أدرك أنها لم تكن فوضى ، بل خليّة نحل فارغة أراها من داخلها لا من خارجها ، بنياناً هندسياً معقداً ، منطقه في تعدد خلاياه وتطابق متتالياته .

***

فراو يوليا البائعة الألمانية في البقالة الصغيرة قرب زاوية «بوتس شتراسه» ، لم تكن ألمانية . عرفت هذا بعد مرات عديدة ترددت فيها عليها لشراء السجائر .

«صبيّ المحل» شيروان ، كردي يزيدي لطيف ، حاول مساعدتي في ترجمة أسماء الأغراض التي أحتاج لشرائها كل مرة . ظننت أنه من أكراد سوريا ، لكنه قال إنه من أرمينيا ، وإنه من مجموعة أكراد هربت من كردستان وعاشت بين الأرمن .

زبون آخر كنت أراه في بعض الأحيان ، بشعر أشقر مبيض ، وعصا ينحني عليها بصعوبة ، محركاً ساقه المتبقية ، فالأولى مستبدلة بساق صناعية . كان الزبون روسياً ، يشتري البيرة والفول السوداني بوجه كئيب ورمادي . لاحظت أن المرأة

تتجنبه ، وتترك اليزيدي يبيعه ، بينما تنشغل في إجراء اتصال هاتفي ، أو بتقليب بعض البضائع في الغرفة الخلفية للبقالة ، والتي جعلوها كمستودع صغير . لكن أحاديث كانت تدور باللغة الروسية بين الزبون الأعرج وأطفال البائعة ، لم تكن أحاديث غرباء . وفي مرة ، سألتها هل يوجد عندها زجاجات مياه لا غاز فيها للبيع؟ قالت : لا . قلت : ولكن صبيّ المحل الذي يعمل عندك باعني واحدة من قبل . قالت : هذا زوجي وليس صبي المحل .

ـ عفواً أعتذر .

ـ لا بأس .

ـ شكراً .

وذهبت سريعاً لأهرب من الموقف الحرج . فقط كانت المرأة في الخمسينات بينما اليزيدي في أواسط العشرينات ، ولم يخطر لي أنه يمكن أن يكون زوجها .

أخذت أتسلى بمراقبة البقالة ، وشخصياتها التي تتحرك في مداها ، فعرفت حقائق هامة مع الوقت . المرأة روسية أيضاً ، وسرجي الأعرج كان زوجها ، وصبي المحل كان فعلاً صبياً للمحل . لكن بعد انفصال الأعرج عن زوجته بسبب إدمانه على الكحول ، تزوجت من اليزيدي ؛ لتترك الأعرج يعيش في آلامه وكآبته ، يستدين زجاجات الفودكا من بقالتها ، لأنه بدأ يتآكل جسدياً ، فقد كان جندياً روسياً متقاعدا قطعت ساقه

في حرب البوسنة ، أثناء تنفيذ المرتزقة الروس مجازر ضد المسلمين البوسنيين لدعم الجيش الصربي بقيادة سلوبودان ميلوسوفيتش .

أي شيء أعظم من تلك السطور يجعلني أمسك طرف الخيط إلى أن يوصلني إلى الفكرة التالية؟ كل هذا الاختلاط الثقافي يحدث على مقربة مني ، خمسون متراً ربما ، أو سبعون . في «بوتس شتراسه» في دورتموند على الزاوية المواجهة لمواقف سيارات مدرسة الأطفال ، حيث ينصبون خيمة السيرك ، تدور حرب الحضارات بين الجندي الروسي مرتكب المجازر ومحكمة الحياة .

كان اليزيدي يروي لي بفخر تلك المعلومات ،لكنه لم يكن ينتقم من معلّمه السابق .كان لطيفاً معه ، حتى إنه كان يساعده على عبور الشارع حين يكون مخموراً غير قادر على تحريك جسده برجل واحدة وعصا . اليزيدي كان يحدثني بالألمانية المكسرة وبعض الإنكليزية ، ومعها تعبيرات تركية وعربية ، ولا شكّ أن تفاصيل وملامح كثيرة قد تداخلت أو تبعثرت في حكايته ، بسبب ركاكة البث وضعف الاستقبال . ولكنه كان يتوقف بين الوقت والآخر ، ليلعن داعش التي قامت بأسر نساء يزيديات في جبل سنجار ، بين العراق وسوريا ، وسبيهن وبيعهن في سوق العبيد .

***

تبدّد معن في دمشق مثلما يتبدد نهر العقرباني في البادية بعد أن يجتاز الغوطة . بقي في عقلي كما هو ، رغم مرور الأعوام . رحلت أمّه التي نذرت حياتها له ولإخوته ، لم تعرف من الدنيا سوى هؤلاء الأربعة ، ولم تكن تريد من دنياها سواهم . كانت طيراً وحيداً يعبر .

***

الآن أسمع صوت تنفسي ، لكن صدري لا يعلو ولا يهبط . من الذي يتنفس قرب أذني؟ أكاد أشم رائحة بدلة عبدالكريم الجندي في آخر جلسة بيني وبينه في ذلك المقهى في الربوة . حذرته ، لكنه لم يكن يفهم ، وأنا لست منزعجا من كونه لم يفهم . هؤلاء كانوا يثيرون قرفي . أغبياء وعسكر . .عبيد .

***

كانت قد بدأت تظهر مع مرور الوقت ، نباتات رهيفة بين شقوق الجدار الذي رسمتُ عليه رسومات مستنسخة من كتاب مظفر النواب «للريل وحمد» . رسومات لضياء العزاوي . وقتها تعرفت إلى نوع مميز جداً من الألوان الغريبة بالنسبة إليّ . إنه «الغواش» . وصفه لي كاسر ذات مرة ونحن نجلس على الرصيف المطلّ على حديقة النصارى في دير الزور . بالغواش كنت أرسم الشخصية التي يحدثني عنها كاسر . كنت أراها كل يوم ، لكنّ وجوهاً أخرى كانت تتشكّل لها ، بعد أن يقص

علي صديقي الملتحي بعود الكبريت الأبدي المترنح بين شفتيه وقميصه المشجّر الذي كان حديث المدينة .

***

راحيل ذات الأصول المصرية تشك في كل شيء . لماذا يتكرر الدم في الكتب المقدسة؟ قال لها شقيقها إن هذا ليس دماً ، فكلمة الدم كانت تعني الحق ، وتعني المال ، وتعني النفس .

***

أن تعيش منفصلاً عن الواقع . لا يعني ألاّ تعيش الواقع ؛ بل يعني أن تكون بلا وجود فعلي فيه . تصبح شاهداً فقط في أحسن أحوالك ، لكن أن تكون بطل حكاياتك ، أو واحداً من أولئك الأبطال ، أمرٌ يجعلك تستمتع حقاً وأنت تقول : عشت ألف سنة ، مليئة بالأحداث واليوميات ، صغيرة وكبيرة ، عادية وخطرة ، مدهشة ومملة . لكنني عشتها كلها ولعبتُ أدواري فيها كل مرة .

***

تسعون يوماً في الضباب . ليس ضباباً كهذا الذي أنا فيه الآن . هذا ليس ضباباً ، بل دخان من بياض . كان ضباب لندن أواسط الستينات يختلف عن كل ما رأيته . من الذي يتحرك في الغرفة . لا أرى شيئاً؟ كانوا معي لكنهم كانوا ينتمون إلى القدر القذر ذاته ؛ يوسف الصايغ وناجي جميل

وحسين الملحم . ليس لديّ الوقت لتذكّر ماذا كنا نفعل حينها . لم يكن مهماً ، ما كان جديرا بالعمل هو ما فعلته وحدي ، فحي كنزنغتون الذي سكنا في شقة فيه ، لا يجعلني فقط أشعر أن من مهمتي ستكون تغيير التاريخ ، بل لأن تاريخيته حاضرة في كل زاوية منه ، صرت أشعر أني قد بدأت بالفعل بتغيير التاريخ وإلى الأبد .

***

مثلما تشتهر المدن بمعالمها ، تشتهر أيضاً بمجانينها . ومدينة مثل دير الزور كانت أصغر من أن تضيع فيها آثار مجنون ما يذرع الطرقات هنا أو هناك . كان «حسون أبو البسّة» و«أبو نعيم» و«صليحة الخنثى» و«كس أخت فرنسا» وآخرون معهم من مشاهير المدينة الفراتية . ورغم أن كلاً منهم كانت له ميوله ، إلا أن جميعهم اشتركوا في الخروج عن العقل والعادة . حسون كان عجوزاً فقد عقله يمشي في الشتاءات حافياً أو عارياً ارتبط اسمه بالقط ولا يعرف أحد لماذا . أما صليحة فكان بائع خبز تنور ، ولكنه كان أيضاً بائعة . أكثر ما عرفه به أهل المدينة هو حفظه لأبيات الشعر القديمة العامية التي تبكي الحجر ، وكان يتجول في ما يسميه الديريون «البرية» والتي تعني تلة القبور عند مدخل المدينة من طريق الشام . كان يفعل هذا مجاناً ، يقترب من فلانة التي تكتسي بعباءتها السوداء وهي تزور قبر أحد موتاها ، زوجها أو ابنها أو شقيقها أو والدها ، فيبدأ

بالنعي ، حتى تنهار المرأة وتغرق بدموعها ، حينها يعرف أنه نجح . وحينها ترتاح الزائرة وتعطيه بعض المأكولات التي تحضرها معها ، أو ربما أعطته بعض النقود القليلة التي يرفض أخذها لولا الإلحاح الشديد عليه من قبل النساء .

زيارة القبور بقيت تعني لي فعلاً مميزاً ، فلم أكن أقوم بهذا لأغراض روحية ، بل كي أستكشف عوالم الشواهد ، التي يمكن من خلالها أن تقرأ تاريخ المكان ، من خلال كيفية كتابة أسماء الراحلين عليها ، ارتفاعها ، فخامتها أو تواضعها ، المدونات التي تركت عليها ، إهمالها أو الاهتمام بها من قبل من تبقى من أقارب الموتى ، وكنت أجد شواهد تعود إلى أكثر من مئة عام ، تظهر كيف كان أهل الدير يجلّون من يفقدونهم ، وهذا كان بالنسبة إليّ من علائم المدنية المزدهرة .

«كس أخت فرنسا» كان جاسوساً عمل لصالح الجيش الفرنسي الذي احتل سوريا ومعها دير الزور بعد العام 1920 . وحين رحلت فرنسا ، لم يرحمه أهل الدير ، فكانوا ينتقمون منه بشتيمة سيدته الراحلة ، دولة الاحتلال ، وكانوا كلما رأوه أمعنوا في الشتم ، حتى فقد عقله .

أما نزار فقد كان شخصاً مختلفاً ، صورته هي صورة المدينة ، وحاله هي بالضبط حال غالبية السوريين . ولد لأسرة ميسورة ذات أصول معروفة ومقدّرة من قبل المجتمع ، لكنه ولد مشوهاً ، قبيحاً بأنف كبير وملامح تختلف عن ملامح أهله .

ولأن والدته «قدّوسة» ، كانت امرأة تحب المظاهر ، فإنها لم تقبل بأن يرى الناس ابناً لها على هذه الصورة ، فيعيّروها به ، لذلك فقد حبست المرأة ابنها نزار في قفص على السطح ، مثلها مثل الوحوش والدواجن . أخذت تطعمه من خلف قضبان القفص ، بينما تعيش حياتها الطبيعية مع أسرتها دون أن ينغّص عليها هذا المخلوق تقاليدها وطقوسها اليومية . لكن ذات يوم ، أخذت الحمية جيران قدوسة فاشتكوا إلى الشرطة ، وقالوا إن المرأة تتصرف بوحشية مع ابنها ، فقامت الشرطة بتحريره ، وإرساله إلى المدرسة ليعيش حياة طبيعية . كان نزار يحب السينما ، وكان مولعاً بحفظ السيناريو والحوار الذي يراه على الشاشة ، مهما كانت اللغة التي يعرض بها الفيلم . وكان رفاقه يغارون منه لأنه يتفوق عليهم بهذا ، لكنهم كانوا يشعرون بأنه مخلوق من جنس آخر بسبب شكله ، فأخذوا يشتكون إلى أهاليهم منه ، ويتهمونه بأنه يخيفهم بشكله ، فعادت أحاديث الناس تحاصر قدوسة ، التي لم تجد بداً من حبس ابنها من جديد .ومع الوقت ، لم يجد نزار طريقة يتخلص بها من مأزقه هذا ، سوى الجنون .

قرّر أن يصبح مجنوناً ، وأن يمارس الجنون على أصوله ، فحمل سيفاً خشبياً وأخذ يطوف به شوارع دير الزور ، يتمتم بكلمات غير مفهومة ، ويصرخ بوجه هذا ، ويبتسم لذاك ، حتى اعترف بجنونه الناس ، وتنفست قدوسة الصعداء . صار اسمه

نزار «أبو نعيم» وكان أكثر مجانين المدينة حميمية ، كان الصغار والكبار يحبونه ، ويدخلونه إلى بيوتهم ، ليسمعوا منه موشحات في شتم أمّه قدوسة وبخلاء المدنية وعاهراتها ولصوصها ومخبريها . وشيئاً فشيئاً صار أبو نعيم هو دير الزور ، لكن بصورة مجسدة واضحة وقحة ، فالجنون الذي اختاره ، كان الجميع قد اختاروه كي يتمكنوا من النجاة ، وسط غابة يهيمن عليها التجهيل والمخابرات والظلم والاعتقال والفقر والمناخ الحار اللاهب .

***

انتقلت معي تلك العوالم إلى دمشق ، وانتقلت معها شخوصها ، ليس في الذاكرة وحسب ، بل في الواقع أيضاً .

***

كل يوم أمرّ على جارتي ، تحاول مساعدتي بابتسامة مزيفة ، كي تبرر انشغالها بطنين الواتس أب ، بينما عيناي تبقيان مثبتتين على الجندي الروسي المتقاعد الجالس بكآبة على باب المحل .

***

حين انتقلت إلى دمشق ، جاء معي هؤلاء ، وكان لا يمضي شهر ، دون أن يظهر واحد منهم في يومياتي بهذه الصورة أو تلك . كانوا أطيافاً عرفت أنها ستمضي يوماً ما إلى مصائر مثيرة ، لكنني لم أرد لها أن تفنى في الحريق الكبير . كان سمير

يغتاظ مني بسبب ودون سبب . لم أكن أهتم ، فبيننا صداقة عميقة ، تقوم على تلك المعادلة . عليّ أن أقدم له شيئاً دوماً مقابل أن يتوقف عن غيظه . كنت أحب غيظه ، ولحظات محاولاته الالتفاف عليّ بصورة أو بأخرى . الحقيقة أن تلك العلاقة لم تغادر لحظتها الأولى ، كانت علاقة بين نصين أدبيين ، أحدهما يريد الانقضاض على الآخر ، ولم تكن بين شخصين على الإطلاق . كتب بأدواته التي ما زلت أراها بدائية ، لكنها أصيلة ، وكتبت بأدواتي المليارية التي لا شكل لها ولا وصف . كانت تتغير باستمرار ، وكان هذا ما يجعله في ركض مستمر للحاق بها .

***

واقع موازٍ ، أو واقع غير الواقع . هذا ما كنت أراه . وحين عشته ، عشته هكذا ، حتى إنه كان يخيّل إليّ أنني بإمكاني أن أبدأ الفيلم من أوله دوماً ، ومتى شئت . كان فيلماً ولم يكن واقعاً ، وربما أعرف ذات يوم ، أنه لم يكن لاهياً وعابثاً إلى الدرجة التي تصورتها ، بل كان أكثر واقعية من الواقع ذاته .

***

لم أكن معتاداً على مقابلة شخصيات غير عسكرية . السياسيون أعرفهم ، خاصة رفاقنا المثرثرون ذوو الشعور الممشطة بطريقة سخيفة . هذا الرجل مختلف ، الوزير جورج طومسون في وزارة الخارجية البريطانية . أردت أن أقول له إنني لست

لورنس . لكن من هو لورنس؟ ابن حرام تافه قاد بعض البدو الرعاع . أستطيع التفوق على الجميع . في رأسي صور . الآن باتت بعيدة ، لكنها ليست باهتة . أين ذهب الجميع؟ لماذا وضعوني هنا؟ سيقولون الكثير عن ذلك اللقاء بيني وبين طومسون . لم أكن أعرف ، هل أؤدي له التحية العسكرية؟ هل مظهري لائق؟ لم يكن الوزير موظفاً عسكرياً ، لكنّ هؤلاء البريطانيين كلهم جنرالات ، حتى تشرشل كان عسكرياً والملك كان كذلك ، ربما حتى الملكة إن دعت الضرورة . هكذا تنشأ الأمم بالثياب العسكرية .

***

كنت أعيش بين أبطال حاضرين ، حاضرين بقوة . إن تركتهم وانشغلت عنهم بأمور أخرى ، يلاحقونك . وعلى الرغم من أني لم أكن أعني لهم الكثير ، كما كنت أظن ، إلا أنهم جعلوني شاهدهم ، كما جعلني غيرهم شاهداً . بين هؤلاء الحاضرين ، كنت أعيش ، وبين غائب لكنه حاضر . غيابه كان بحجم المدينة الكبيرة التي يخترق صدرها الفرات ، وحضوره كان بحجم تأثيره على أبطالي العابثين .

***

خمارة «أبو شمس» التي دلّني عليها عماد ، كانت عبارة عن «عليّة» ، سقيفة فوق أحد المحلات في الشارع العام في دير الزور ، وكان أبو شمس يفتحها في الثامنة صباحاً ، حيث يمكنه أن يقدم

فيها للزبائن المشروبات الروحية التي لا رائحة لها ، كي يتمكنوا من الذهاب إلى أعمالهم بعد زيارتها . فيها كنت أسمع قصصاً عن المساجين ، لا بسبب تهم سياسية ، بل للتجارة بالحشيش أو التهريب أو بيع الآثار . كانت مكاناً فقيراً وغير مرتب ، لذلك لم أعد إليها بعد عدة زيارات . لم يكن يثيرني فيها شيء ، سوى أنها كانت كسراً للنظام ، وكنت أتعمّد كسر النظام . في عليّة «أبو شمس» ، قال لي عماد إن قصيدته الطويلة التي يكتبها ستتفوق على قصائد ناصر . كان ناصر عقدة للجميع ، ثقافته الرفيعة وشخصيته الخاصة الهادئة جعلت منه مشكلة لرفاقه .

***

ذات صباح جاء خبر سيء . فتاة أخرى من دير الزور قامت بإحراق نفسها . لم يعرف السبب ، ولم يسأل أحد عن السبب ، فكل الأسباب متوفرة . لكن هذه الفتاة كانت تعني لي الكثير . فقد كنت أتحدث معها طيلة الوقت في بيت أهلها ، ريثما يأتي شقيقها بعد أن يرتدي ثيابه . لم تكن المنتحرة حرقاً ، سوى أروى ، شقيقة كاسر .

ذهبنا إلى المقبرة ، لدفن أروى ، واجتمع الناس حول الجثمان الذي كانوا يستعدون لدسّه في التراب . كان الصمت يخيم على الجميع ، لكن كاسر استطاع أن يجعلهم ينفجرون بالبكاء ، حين قال لأروى كلمة أخيرة قبل أن يدير ظهره ويبتعد : مع السلامة أروى .

في الليلة الأولى لدفن أروى ، سمعت من كاسر عزفاً غير عادي على الغيتار . كان ينهمر ، كان يندفع مثل موجات النهر ، مثل رياح الغبار الهائلة التي تهب على المدينة . لم يبك ولم يحزن ، كان يعزف فقط ، «أستورياس» أندريه سيغوفيا من جديد ، بعشرات الأشكال والإيقاعات . يعزف على الأوتار المشدودة التي قال إنه تمكن من تحويلها بعوده الكبريتي ، إلى أوتار يصدر عنها هارموني الحجاز ، وهو ما لم يكن ممكناً بآلة غربية .

***

خالي العائد إلى المدينة بعد هجرة العائلة إلى القامشلي قبل عقود طويلة ، والعائد أيضاً بعد حياته في دمشق ، كان يفعل شيئاً محدداً دون شك ، مقصوداً ومتعمداً في مدينة مبددة الهوية مثل دير الزور . جئت إلى المدينة بعد أن غادرها بشهور ، لكنه لم يغادر ذاكرة أهلها .

كان الغائب الأكبر ، الذي أفقد المدينة توازنها ، بين محافظين لا يريدون التقدم إلى الأمام ، وجيل جديد من الذين لا يريدون البقاء في أماكنهم ، وبين تشويه كبير طال معظم ملامح الحياة ، الأخلاقية والفكرية والسياسية . المخبرون في كل مكان ، ومعهم المنافقون وأصحاب الرقاب الملوية ، والانحطاط بدأ يتمدد على الأجساد كالعفن ، يحفر فيها كالصدأ الذي لا يرحم . كان خالي واحداً من تلك الحلقات المفقودة . وكما في بقية المدن السورية في الثمانينات ، تم ضرب الناس في مقتل ،

حين كسرت تلك الحلقة الشابة ، بين منفيّ ومعتقل ، حتى يبقى السوريون في خلخلة الأجيال . كان ظلاً وارفاً جميلاً وعالياً ، يظهر خلفي حين ألتقي بالآخرين .

***

ـ نحتاج شارحاً للماركسية والثورة ، لم يعد لدينا أحد بعد سفر صبحي حديدي .

قال ناصر ، الذي عبّر عن انهيار الشريحة المعارضة المثقفة في دير الزور ، بحملة اعتقالات العام 1987 ، والتي طالت كثيرين من نخبتها .

ـ خالك كان يمثل حالة لا يمكن تعويضها . كنا نذهب إليه ليحكم بيننا في مسائل فكرية ، فهو الأكثر اطلاعاً على الثقافات ، واليوم تجدنا جزراً متفرقة ، شحيحة وشاحبة معاً . أرجو أن نجد من يفعل هذا ، فلم يعد لدى الناس أحد هنا يدلهم على نجمة الصبح الحمراء .

قلت : لنفعل هذا جميعاً .

ـ بالنسبة إليّ ، طريقي مختلف .

كان هذا كثيراً عليّ . بالكاد كنت أفك الحرف في المعارف ، لكنني أرث حضوراً فريداً ، ثقة نادرة ، وفيضاً من محبة الآخرين ، مفتاحاً سرياً غامضاً تركه الغائب الحاضر ، لذلك كان على الصمت أن يعينني معظم الوقت .

***

لا يصغي إخاد إلى كلماتي . يعترف أنها تسحره ، لذلك لا يريد الاستماع إلى أيّ منها . قرّر أن لديه وظيفة إنسانية عليه أن يؤديها قبل أن ينتهي وقته . يتزلزل المكان الذي نحن فيه ، تحت القصف . وتميل المزهريات الموضوعة على الرفوف ، تقع الجرة الزرقاء والبيضاء من رفّها العالي ، وحتى تصل إلى سطح الأرض ، تكون قد قطعت مسافات من القلق والخوف ، تتشظى متحولة إلى رمل أبيض وأزرق .

***

يذوي ناجي في زحام المدينة ، ومشواره اليومي من الشعلان إلى التكية السليمانية ، يعلو صوت مواء قططه الألف . يتحلل في ألوان عنتر وعبلة والزير سالم في لوحاته ، لكنه لا يختفي ، بينما يكتفي هائل اليوسفي بصوته المزكوم ، وحروف الباء والميم المتداخلة في غنّته على الهاتف . سيأتي اليوم الذي نفعل فيه ما لا نستطيع فعله الآن .

***

كان طومسون دائم الابتسام . نظارته المدوّرة السوداء تقف على أنفه الملتئ ، وجهه كان رغيفاً أبيض ، هؤلاء لم يعرفوا الجوع في يوم من الأيام . ربطة عنقه المليئة بالأشكال المثمّنة اللامعة ، قامته الطويلة ، وشعره الذي يرجعه إلى الخلف . هذا من يستحقّ أن تؤدى له التحية ، لا القرود الذين يطلبون منا احترامهم في الاجتماعات الحزبية . هل هذا مسيحي وميشيل

عفلق مسيحي؟ كان يجب أن نعدم عفلق، ليس جديراً بصناعة التاريخ. كل الدمشقيين ليسوا جديرين بهذا. نعومتهم لا تمكّنهم من فعل شيء. كلام بكلام. لم أعد أشعر بجسدي. أحياناً أشعر به كلّه، كل خلية فيه. أين ذهبوا؟

***

أخذت مفتاح بيته من جدتي. كانت مستأمنة على البيت. تزوّره وحدها وتبكي طويلاً على ابنها الذي شردته المخابرات. تفتح النوافذ للشمس. تسقي النباتات التي تركها في الجنبات. تنفض الغبار عن المكتبة التي ضمّت آلاف الكتب الثمينة. لم يكن البيت مهجوراً، كان عامراً به وبزوجته وطفليه، وبراقصة باليه منحنية تستقبلك على الجدار بعد أن تدخل من باب البيت.

رحلته من هذا البيت الآمن الصغير في مدينة هادئة يلفها ضباب نهر الفرات ورطوبته، عبرت به الحياة فوق تضاريس وعرة متخفياً في دمشق، بين باب توما وجرمانا، والهرب في عربة نقل الصحف إلى بيروت الثمانينات، ملعب حافظ الأسد الخلفي حينها.

تلك الأرمادا كما سمّاها هو في رسالة أرسلها لي بعدها، سفينته غصّ سطحها بالمهاجرين الهاربين من الشرق، بغيتاراتهم وأغانيهم البحرية الحزينة، نقلته من الشواطئ

اللبنانية إلى جزيرة قبرص ، حيث سليم بركات الذي استقبله معانقاً بعينين يحيط بهما السواد .

كنت أدرك حينها أنه يقصد الهزيمة ، باستعارة أرمادا الأسطول الإسبانية الذي لم يكن يهزم ، لكنه هزم على يد الإنكليز في القرن السادس عشر . هزيمة وصفها الإسبان حينها ، بالكلمات التالية «القتال الذي خاضه الاسطولان الإنكليزي والاسباني في حرب البروتستانت والكاثوليك ببحر المانش ، كان في نظرهم ، المعركة الأخيرة الحاسمة بين قوى الخير وقوى الشر» . عواصف هوجاء تبتلع آلاف الغرقى . في ما بعد حفرت الكلمات التالية على ميدالية هولندية تحتفل بذكرى تلك الهزيمة «يهوه نفخ فتبدّدوا 1588» .

نهاية تلك الأرمادا الشخصية كانت في باريس ، حيث صديقه القديم الرسام بشار العيسى ، الذي سيسألني بعد ثلاثين سنة عن لوحة من لوحاته أهداها إلى خالي . لأعترف له همساً بأنّي اضطررت إلى بيعها في مدينة بحرية خارج سوريا في لحظة يأس . كانت أجمل اللوحات التي اقتنيتها ، وكان كمّ المرأة المرسومة فيها يتهدّل على ذراعها ، بينما تتشابك أصابع يديها اللتين كانتا تفكران . لكنني لم أنس عنوان مقتني اللوحات الذي بعته اللوحة ، قرب مبنى صحيفة السفير في شارع الحمراء . وصفته له ، وربما سيعثر عليها ويتمكن من شرائها من جديد ذات يوم ، مع أنه أهدى إلي بدلاً منها لوحته

«سمرقند» التي تسبح فيها الكائنات في الأزرق ، وفي نوافذ تتراكب فوق بعضها البعض .

***

زجاجة . قارورة . لا أعرف كيف أسميها ، فراغ من زجاج مغلق بالفلين والشمع . كانت ضخمة جداً ، وفي قعرها توجد حفنة من التربة . نبتت فيها نبتة الترادیسكانتيا كحلية اللون ، التي كانت قد أدخلت بدقة وعناية ، وبأدوات وملاقط خاصة ، من فم الزجاجة إلى عنقها الضيق إلى قعرها الواسع ، كأنها رسالة ملقاة في بحر . كان خالي يجد الوقت لهذه الأمور؟ لكن الترادیسكانتيا بقيت بعد أن رحل عن بيته الذي لم يعد إليه ثانية .

***

البيت الأخير الذي ضم بشار وصبحي في دمشق كان في أزقة ركن الدين والشيخ خالد ، حيث مالك البيت الدمشقي الذي لا يتحدث إلا بالفصحى ، والسقيفة التي لم يكن لها درج ، ودالية العنب التي تسقف أرض الدار . قبل أن يغادر بشار إلى بيروت في بداية الثمانينات ، كانت لوحاته الكبيرة تتناهبها الحيطان القديمة . لم يكن بشار سياسياً حينها وحسب ، كان قادماً من «خربة باب السلام» وسط حقول القمح الذهبية في الجزيرة ، السهول التي ما تزال رغم مرور الزمن رصيده اللوني الأكبر ، وكأنها يراها كل يوم من جديد .

ومنذ المعرض الأول الذي أقامه في المركز الثقافي البعيد في القامشلي في آخر عام من الستينيات ، وهو يحمل غضبه المتأجج ، مع عروقه الكردية ، لم ينس ما قاله أحد وزراء الثقافة السوريين عن أعماله ذات يوم من أيام السبعينيات «لو يتخلى عن سوداويته وخشونته» . لكنه لم يتخل . عرف أن هذا ما يستفز الآخر ، وبقي رغم الشفافية العالية في أعماله شديد السوداوية خشن الصلصال . وبقيت رحلة خيام أمه «جازية» إلى جبل عبدالعزيز هرباً من ثلوج الشمال ، هي اللحظة التي لم يتمكن من مغادرتها ، وربما لم يرد يوماً فعل هذا ، حتى في لوحته التي تبدو التلال فيها منسوجة من مربعات ملونة ، تعلو طريقاً برتقالية اللون . لكن بشار العيسى كان بالفعل ، أول من ابتكر الأفق ، ليس في الفن الكردي وحده ، بل في اللوحة السورية . ابتكره في أعلى اللوحة وأغلقه من فوقه .

***

رجل بدأ الصلع يهيمن على رأسه ، ينحني فوق جهاز راديو قديم . يقطع سلكاً ويلحمه بآلة اللحام الرصاصية ، فيتراقص خيط من الدخان ، ثم يقطع سلكاً آخر ، ويجرب . لا شيء ، يوصل السلك بسلك آخر ، ويلامس رأس إبرة آلة اللحام بالسلك الرصاصي من جديد ، فيتصاعد خيط آخر من الدخان الخفيف ، ترافقه رائحة تخترق الأنوف بسرعة . لا شيء أيضاً . يلقي الراديو فوق كومة من الراديوهات التالفة .

ويتناول آخر على طاولة من خشب محفّر .

كنت أجلس أمامه وأنظر إلى أصابعه التي لا تريد للراديو أن يعمل . كانت نزقة ، تبحث عن عمل آخر ، وعن فكرة أخرى .

مواجهة مثقفي دير الزور مع الواقع كانت مزدوجة ، لكنها تتكثف في لعبة خطرة . أن تكتب قصيدة نثر هذا يعني أنك معارض للنظام . . . الشعري العمودي والموزون ، وبالتالي معارض للنظام الرسمي الأمني السياسي .

لا أكثر . وكلما أمعن هؤلاء الشباب في التجريب في قصيدة النثر ، كانوا يمعنون أكثر في تمزيق سلطة نظام حافظ الأسد على الذائقة والفكر والوعي .

مصلح الراديوهات الذي يعلو هرم أجهزته التالفة إلى جانبه ، لم يكن سوى سليمان ، الغجري الكردي الديري معاً . وأكثر المستمعين قدرة على فهم التفاصيل ، وأوسع مثقفي المدينة قدرة على منح الآخرين فرصة للعبث ، قبل أن يناقشهم في القوالب والتراكيب . ومع أنه لم يدخل مدرسة يوماً ، إلا أنه علّم نفسه القراءة والكتابة بنفسه . وفي دكانه ذاك ، كان يجتمع معتقلون سابقون وأكراد بشوارب غليظة يناضلون سراً ، ومنكسرون عابرون من أعمالهم إلى بيوتهم ، قبل أن تحكم ظهيرة المدينة الملتهبة سعيرها على الشوارع . النص الشعري سياق خارج السياق ، وحرب بالكلمات تدور على هامش

الحياة . لكن في متنها أيضاً ، في علاقات القراء بالكتاب ، وفي علاقات الكتّاب بالكتّاب ، وكذلك في الوحدة والعزلة ، حيث كان ناصر يقضي أيامه في البحث عن دقائق النفّري ولزوميات أبي العلاء المعري .

***

جدتي كانت تذهب في مشوارها اليومي إلى بيت ابنها ، تتخيله ، تعيش معه ، تشهق تفاصيله مع تنفسها ، وكنت أعيش مستقبله في بيته دون أن أفتح النوافذ . أنظر إلى الكتب وصورة رياض الترك المكبرة الموضوعة خلف طاولة الكتابة . وكانت جلساتي تلك نوعاً من اليوغا ، درساً في الصمت ، قراءة وكتابة وتخيـيلاً . «طيران فوق عش الوقواق» الرواية التي ترجمها خالي للكاتب الأميركي كين كيسي ، كانت مشهداً دائماً ، يدور كل لحظة في دير الزور . يقرأها أهل المدينة وهم يرون أنفسهم في أبطالها . لكنهم كانوا يشعرون بأنّ شيئاً قد انتزع منهم حين أجبر مترجمها على الرحيل عن مدينته التي اختارها ، وكان بوسعه أن يعيش في دمشق مثل غيره من أبناء المدن السورية التي هاجر مثقفوها إلى العاصمة . لكنه أراد أن يكون على نأي عن الحياة المزدحمة ليترك بصماته على الأشخاص والأماكن . وفي مكتبته عثرت على ديوانه الذي حرص على إخفائه طيلة الوقت ، ولم يفرج عنه يوماً ، «عن لحظة الطهارة القديمة» . كان قد نشر بعض قصائد كتابه ذاك

مبكراً في مجلة الآداب اللبنانية أواخر الستينيات ، وهو ما يزال فتى لم يصل لسن العشرين ، ثم طواه إلى الأبد . وربما من شدة إدراكه لجلال الشعر ، قرّر إبقاء علاقته به سرّية .

***

قرأت قصيدتي «دفتر ملكوت الحجر» في المركز الثقافي في أمسية جماعية . اختاروا لي أن أقرأ أولاً ، فظن الجمهور أنه نوع من التكريم ، فصارت القصيدة التي تتحدث عن الأحجار الكريمة ، حديث شباب المدينة . وفسّر لي شاعر أعمى ما أريد قوله حسبما فهمه هو . وبينما كنت الشاب الغريب القادم إلى عتمة المدينة ونورها ، كان من السهل أن تنتشر أخبار نص أدبي مختلف بين المهتمين بالكتابة ، فصرت كاتباً رغم أني كنت غارقاً في الرسم .

***

المدينة التي يختار أهلها لجدارن بيوتهم الحديثة طلاءً بلون التراب ، هي بادية هندسية ، تراب جديد على شكل مكعبات . يغزوها الغبار ، وترفع شركات النفط الأميركية والفرنسية التي تنقب عن البترول في الحقول المحيطة بها حرارة أيامها ولياليها . هكذا كانت دير الزور ، وهكذا كنا نصفها حين غادرناها .

***

وضع قبعته العسكرية على طرف السرير ، وروى لي ببهجة ، كيف أن كلباً رمادياً هجيناً كان يسحره كل يوم في هضبة الجولان ، كان خالي حينها برفقة ضباط القبعات الزرق ، وكان ذلك الكلب الرمادي الذي شغل تفكيره ، يتذكر جيناته في ساعة محددة يومياً ، فيذهب باحثاً عن أعلى نقطة في المعسكر ، وهناك يبدأ بالعواء ، يستحضر جدّه الذئب من أعمق قطرة في دمه .

***

كنا في المتحف الوطني في دمشق ، حين نزلت الدرجات إلى حيث قسم مخصص للآثار التدمرية . لم أكد أخطو على الدرجة الثانية ، حتى دوّى صوت انفجار رهيب ، سدّ آذاننا للحظات ، وأفقدنا السمع . جمعنا والدي بذراعيه . اقترب الرجل الضخم الذي يضع مسدساً في خاصرته ، وقال : لا تقلقوا ، مجرد طائرة استطلاع إسرائيلية أسقطناها .

كان الرجل يكذب ، فالصوت المدوي كان بسبب تفجير الأزبكية ، الذي قتل فيه عدد كبير من العسكريين ، والذي اتهمت به السلطة المعارضة السورية ، وكان مقدمة لعمليات إبادة نفذها نظام حافظ الأسد بحق المدنيين . الأزبكية التي سأسكن في أحد بيوتها الشعبية بعد سنوات .

***

من بين أبنائي كلهم ، كانت البنت أكثر شبهاً بي . الباقون

يشبهون الآخرين، ليس في أشكالهم وحسب، بل حتى في طباعهم. ماذا تفعل الممرضة؟ حقنت عروقي بمادة باردة. أرتجف مثل جنين مولود للتو، مرمي بدماء الولادة، متروك بلا تنظيف، بلا اهتمام.

***

متعب جداً أن نقضي الوقت في الجدالات وتبادل الأفكار، ونحن نجلس هنا، في حبس اختياري. إخاد لم يكن وهماً، كان رجلاً. أريد له أن يكون وهماً حين احتاج إلى ذلك، لكنه لم يكن وهماً. حتى إني أضيق به وبنقره المستمر على رأسي بأسئلة لا تنتهي.

ـ وماذا فعل علي حين جاء إلى دمشق؟

ـ سكن في قبو في القصاع.

ـ مثل كل القادمين. ما الذي يسحركم في باب توما؟ النساء؟ لا شك أنهن كن سبب إقبال الشعراء على الحياة في الحي المسيحي، سفور وتطور، وأنتم قادمون من الحجاب والانغلاق.

ـ هذا ليس صحيحاً.

ـ لكنه كان صحيحاً مع شخص مثل محمد الماغوط. ألم تقرأ قصيدته الفاضحة عن باب توما؟

ـ الفاضحة؟

ـ أنا أعتبرها فاضحة.

ـ أشاركك في ازدراء مقطع منها ، لكنها ليست كما تقول .

ـ نعم حين يقول شاعر في أواسط القرن العشرين «حلوة عيون النساء في باب توما . . حلوة . . حلوة . . وهي ترنو حزينة إلى الليل والخبز والسكارى ، أشتهي أن أقبّل طفلاً في باب توما ، ومن شفتيه الورديتين ، تنبعث رائحة الثدي الذي أرضعه» .

ـ أعترف أن هذا مقزز .

ـ لا بد أن تعترف بهذا .

ـ لكن ليس هذا فقط ما يجعل من دمشق مشكلة بالنسبة إلى بعض القادمين إليها .

ـ ماذا برأيك أيضاً؟

ـ اسمع الماغوط نفسه «بردى أيها الحسين المتناثر هنا وهناك ، سأستردك من النوافير والصنابير والأقداح وقدور الحساء في المطابخ ومطرات الجنود في المعارك ، وغرف الإغماء والإنعاش في السجون والمستشفيات ، لأرد لك اعتبارك على طريقتي» .

ـ الحسين!

ـ نعم . الحسين . ابن علي بن أبي طالب . الإمام المقدّس عند الشيعة .

ـ أعرفه . أكيد لم يكن يقصد حسين مروة المفكر المادي اللبناني الذي قتله حزب الله .

***

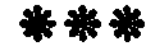
لست نادماً على شيء . لماذا أندم ، وقد خلقت ما لم يستطع أحدٌ قبلي خلقه؟ هؤلاء الذين يحيطون بي بدائيون جداً ، حتى البدو أكثر تطوراً منهم . يحبون العيش في الفراغ ، في الكلمات . تعني لهم الكلمات كل شيء . جسدي منهك . السرطان السافل ، لم يتغلب عليّ . لم يتغلب عليّ أحدٌ في يوم من الأيام . لم يتغلب عليّ سوى ابني البكر .

***

جاء كاسر إلى دمشق ليدرس في جامعتها ، لكنه عاد ثانيةً إليها في الخدمة العسكرية . بقي مجنداً زمناً طويلاً بسبب شغبه ، ممضياً أربع سنوات في ما كان يسميه «حماية سماء العاصمة» ، وكان يتسلى بالحديث على الرادار وأجهزة التنصت مع الطيارين الإسرائيليين وتبادل الشتائم معهم . وفي مخيم اليرموك ، كان يراقب فتاة فلسطينية تتظاهر ضد موقف السلطة السورية البشع من حرب المخيمات في لبنان ، ولكنه لم يكن وحده يراقب تلك الفتاة ، فقد كان صراخها مزعجاً للعسكر السوريين الذين أطلقوا النار عليها من رأسها حتى قدميها برشة واحدة ، قذفت بعشرات الطلقات ممزقة جسد الفتاة . كان هذا المشهد كفيلاً بزرع الذعر في أعماق كاسر ، الذي لم يبق في دمشق بعد إنهائه الخدمة العسكرية ساعة واحدة .

***

ذهبت أنا وطومسون في رحلة قصيرة ، بعد أن تركت رفاقي في شقة كنزنغتون . أراد الرجل الطويل الأنيق أن يقدّمني إلى أصدقائه ، وكانت العجوز تجلس بشعرها الأبيض وفستانها الفضفاض ، تراقب ما سأقول . لكنني لم أقل الكثير . كانت شمس الجزيرة المتوسطية تدخل من نافذة غرفة الاجتماع في الفيلا ذات الطابقين . ثلاثة أيام . تعبت من التذكر . لا أريد فعل هذا ، لكن ماذا أفعل وأنا مكبّل هكذا في جسدي؟ لم تقل لي العجوز الكثير من الكلام أيضاً ، كانت كلماتها دقيقة ومحددة : لا تغيّرْ شيئاً . سيبقى كل شيء على حاله . نحن سنتصرف . مهّدنا لك الطريق ، لتكون الأسد الرابض على حدود أرض الميعاد . أرض الميعاد لم تكن لهم وحدهم ، كانت ضفتي هي أرض ميعادي أيضاً ، ميعاد طال انتظاره .



تحت شجرة ليلة القدر

دمشق كانت تنزّ شباباً كما هي اليوم . من بين كل رأس دبوس وآخر فيها ، كانت حياة تولد من جديد . دمشق هي مدينتي ، رغم أني من مدن كثيرة أخرى قبلها وبعدها . غير أنها ، وحدها ، المكان الذي لا أتوقف عن العيش فيه ، سواء كنت فيه أو خارجه . جميع الأماكن التي سكنتها في دمشق ، كانت من أجل أن أعرفها أكثر . لم أكن أشكو من التنقل المستمر ، رغم أنه كان مصيبة . إلا أن الديوانية ببيوتها الواطئة في شارع حلب الموازي لشارع بغداد قرب الأزبكية ، كانت أول فضاء يجمعني مع باعة بسطات الكتب ، الذين جاوروني فيها ، وآل الصبان والقباني ، ناهيك عن الصورة المدهشة لبيوت تقليدية وسط حصار حداثي يحيط بها من كل مكان ، فكانت أشبه بجزيرة دمشقية وسط البنايات . مخيم اليرموك الفلسطيني وحي التضامن وقدسيا ودمر البلد وجرمانا وحارة المصبنة وركن الدين وأسد الدين والأزبكية وباب توما وحارة اليهود والعزرية ومصاطب المهاجرين وغيرها وغيرها ، منازل تعدّدت لقمري المتوحد في كون دمشق الفسيح .

***

الصوت المتحشرج للمحبوس في غرفته ، الذي ظن الناس أنه قد مات في العام 2000 ، ما يزال يعلو وهو يهذي عن حياته .

كنتُ إلهاً . لا شك بأنني كنتُ إلهاً ، لكني لم أكن إلهاً عادياً . خالدٌ وجبار ومنتقم . لا يزول غضبي . . . . فقط ليتني أعرف ما الذي يحدث في الخارج .

أتذكر ما فكرت فيه ، أول شيء ينبغي فعله ، هو ما فعلوه هم ؛ التخلص من الشركاء ، واحداً واحداً . لم أرد إيذاءهم . أردت أن يتعذبوا وهم يشاهدون مجدي ، يبقون في زنازينهم ، يتجمدون في مقاعدهم . إلى ما لا نهاية .

كم أكرهك يا دمشق . عليّ الآن أن أعيش فيك ، رغماً عني ، وعليك أن تكوني العاصمة المهزومة لمليك منتصر سأكونه أنا .

***

قبل أن تقترب الساعة ، كانت البلاد تحترق تحت رمادها . كل شيء يتفكك . كل شيء يزول ، وكنت أحرص على تتبع الأثر . أكتب في الماضي كي أجد ما أكتبه في المستقبل . أرسل لنفسي رسائل ، وأضعها في كبسولات زمنية ، كي أعثر عليها حين يصحو الناس ، بعد حين .

***

في بيت الأزبكية وفي حارة ضيقة من حارات ما كان

يسمى بستان الديوانية ، أرادت سوسن ، الفلسطينية قصيرة القامة ، أن تجرّب صدقي ، فجاءت إلى غرفتي وحدثتني عن العمل السري الفلسطيني الذي كان مخنوقاً حينها في سوريا . لم أظهر اهتماماً ، فحدثتني عن المخيم ، فلم أكترث . حدثتني عن حبيبها الذي كان معنا في الجامعة ، فلم أهتم . عن جورج حبش ، عن صفد التي هاجر إليها أبناء عمي قبل عشرات السنين ، ثم عادوا إلى سوريا مع اللاجئين الفلسطينيين ، فلم أخرج من صمتي . كنت لطيفاً معها ، لكنني لم أكن هناك لحظتها .

سميتها أوديا . اشتققت اسمها مما تغنيه إيرين باباس ، تلك المقطوعات الشعرية التي كان يغنيها اليونان مع موسيقى مرافقة ، بينما كان السوريون يعتقدون أنها تغني الأوديسة . وكنت منهم قبل أن يصحح لي خالي المعلومة ، لكنّي لم أكن جاهلاً هكذا دوماً ، فقد كنت أول من أدخل أشرطة عابد عازرية إلى دير الزور . أخذ سمير منّي النسخة الأولى لـ«جلجامش» ، وصار ينسخها ويهديها للآخرين . أحضرت لهم كذلك أغاني سميح شقير التي لم تكن معروفة جيداً حينها في الشمال الشرقي المعتم . كان الغناء الملتزم عندهم مقتصراً على مارسيل خليفة ، بينما تفرّد ناصر وسليمان بالاستماع إلى الفلسطيني مصطفى كرد ، وروائعه «خسرت حلماً جميلاً» من شعر محمود درويش ، وكانت فرقة العاشقين الفلسطينية

معروفة كذلك . وهكذا عدت إلى فلسطين والفلسطينية قصيرة القامة من جديد ، رغم أني حاولت الهرب منها .

عرفتني تلك الصبية إلى مظفر النواب ، في مشهد سينمائي في موعدنا التالي ، فوجئت بأنها كانت تجلس معه ومعهما شاب نحيل شاحب حول طاولة صغيرة في النادي العمالي ، في إحدى حارات عين الكرش في دمشق ، والذي كان منزلاً قديماً هائل المساحة ، بأشجار البرتقال والنارنج التي تتوزع في حديقته خلف سينما السفراء .

تلك اللحظة كانت بداية صداقتي الطويلة والخاصة مع الشاعر العراقي العملاق ، الذي كنت أرسم لوحات كتابه على جدار غرفتي في دير الزور .

مضت سوسن مع صديقها إلى الحب ، وبقيت مع مظفر . كان صمتي وملامحي الجادة ، كفيلين بخلق توازن بين شاعر شهير وشاعر شاب ، ولم أكن من الدائرين حوله من كوكبة المعجبين ، لكن معرفتي العميقة بتفاصيل قصائده وكلماتها ودراستي المعمقة لحالتيه العامية والفصحى ، جعلتنا صديقين من نوع خاص .

***

كتبت لسلمى قصائد لم أقرأها لها . كان قد فات الأوان ، فقد بدأت أفقد إيماني بأن الشعر قادرٌ على التعبير ، وأن اللغة هي الرسول المناسب ، الذي يمكنه قول ما أريد . أردت أن أرسمها .

حتى الرسم كان من الأشياء التي انتزعت من بين يديّ .

***

ماذا يفعلون في الخارج؟ لماذا تركوني هنا؟ يجب أن أعرف كل شيء ، كما كنت أفعل دوماً . الآن لا أملك سوى ذاكرتي ، ولا أعلم شيئاً عما يدور .

على هؤلاء أن يعيشوا كما عشنا نحن . قررت هذا ، وسيذكرني التاريخ كثيراً ، لأني أول شخص وصل إلى هذا المقام بعد ألف سنة . لعلي قلت هذا؟ هل قلته من قبل؟ لم أعد أعرف ماذا قلت . الممرضة تعطيني حقناً لا أعرف عنها شيئاً . قد تكون نوعاً من المخدر . هل يتعمدون وضعي هكذا؟ ما هي مصلحتهم؟ هل يتآمرون عليّ؟ سأقتلهم جميعاً حين أستيقظ . آآآه متى سأستيقظ؟

***

ابتكروا لي حالة لا مثيل لها ، لاحرب ولاسلم . لم يكن هذا سهلاً . لا يهمني إقناع هؤلاء العبيد . كانت صورتي هي أكثر ما يعنيني . عليّ أن أتخلص من نظرات المذعور التي اعتدت عليها ، وعليهم أن يسجدوا لي . سأجعلهم يفعلون . أما هؤلاء الجرذان ، من أصحاب العكل والكلابيات في الخليج ، فعليهم أن يدفعوا الثمن دوماً ، فأنا من يحميهم ، ومفاتيح عروشهم عندي في دمشق .

الرعشة مرة أخرى . ماذا يفعل بي هذا الدواء اللعين؟

***

صوت سلمى يشبه صوت الشام . ضجيج خافت . ملايين الهمسات والوشوشات .

***

ليسرقوا ويغرقوا في الدماء التي يسفكونها ، ليتحولوا إلى وحوش ، ليخرجوا من التاريخ ، لتتهشم قيمهم . لا قيم سوى قيمي ولا تاريخ سواي .

***

لن يأخذ سلمى مني أحد . هي ما تبقى لي من دمشق .

***

في المكان ذاته بيت الأبش القديم ، الذي صار يعرف باسم النادي العمالي ، وبعد سنوات ، جاء رجل من طرف جلال الطالباني ، واستأذن بالجلوس معنا ، مظفر النواب وأنا ، فأذن له مظفر . قام الرجل بدعوة النواب إلى زيارة كردستان العراق ، فرفض ، فألح عليه ، وقال إنه ينقل له دعوة المام جلال ، لكن أصر على رفضه .

بعد أن غادر ، سألته لماذا رفضت؟ قال : لأن كل زعماء كردستان زاروا إسرائيل ويحتفظون بعلاقات وطيدة معها .

العلاقات مع الإسرائيليين كانت مثار جدل بين السوريين

على الدوام . فغالبية المثقفين العرب ، انحازوا إلى حق الشعب الفلسطيني ، واعتبروا أن القضية الفلسطينية قضيتهم ، وأن إسرائيل كيان مؤقت محتل وسيزول ، وبالتالي قرروا مقاطعتها . لكنهم تسامحوا مع إقامة الفلسطينيين لعلاقات مع الإسرائيليين أو بالأخص المثقفين منهم ، بينما حرّموا على أنفسهم ذلك ، ورجموا كل من حاول التواصل مع الإسرائيليين ، أو حتى اليهود الشرقيين العرب ، واعتبروا أن هذا يندرج ضمن ما سموه «التطبيع» مع العدو .

لكن إسرائيل لم تزل ، ولم تتفكك عقدة الصراع العربي الإسرائيلي الذي استعملته الأنظمة الدكتاتورية العربية كسوط مرعب لجلد شعوبها ، بينما فتحت لنفسها الأبواب لتلك العلاقات السرية مع إسرائيل لتعزيز مكانتها دولياً ، ولضمان الاستمرار في الحكم .

بالنسبة إليّ كان الممنوع مثيراً ، لكنه لم يكن مغرياً لتحقيق أهداف رخيصة ، فما الذي يمكن لي أن أجنيه كفرد من علاقات مع الإسرائيليين؟ لكن حارة اليهود كانت تشدني إليها دوماً . وحين قرأت «شمس المعارف الكبرى» لأول مرّة ، وهو كتاب في السحر والأرقام والحروف والرمل والأسماء ، وضعه أحمد بن علي البوني في القرن الثالث عشر للميلاد في عنابة الجزائرية ، وجدت علاقات خاصة للحروف العربية والعبرية ، وتراكباً في الأبجدية يفسّر الصراع ويفسّر وهم الصراع

معاً . أبعد من موضوع الكتاب ، وأبعد من مجرد الاقتتال على الحق التاريخي .

***

ـ لم يتركّب المشرق من دون العرب بتكويناتهم مسيحيين ومسلمين ويهود . وحين جرى تحطيم ذلك التراكب الثقافي ، تحطمت معه قدرة العرب على بناء التوازن الهندسي للسكان والجماعات والأعراق والأديان والطوائف .

قلت هذا لإخاد المستغرق في التيفيلاه ، كان يصلّي وهو يهتز إلى الأمام والوراء . كان قد أشعل الشمعدان المسبّع .

قطع صلاته والتفت إليّ هامساً : لا يوجد مشرق من غير اليهود ، ثم عاد إلى صلاته ، ثم قطعها من جديد هامساً : ولا يوجد مشرق من دون المسلمين ، وعاد إلى صلاته ، اهتز لنصف دقيقة أو أقل ثم قال : لا أعرف هل من ضرورة للمسيحيين بعد الآن أم لا؟ ربما . . وربما لا .

طلبت منه أن يتوقف عن التأرجح ، وانتبهت إلى أنه لم يقم بخلع نعليه على عادة يهود الشام أثناء الصلاة ، والتي ينفردون بها عن يهود العالم . قلت له : لماذا تصلي بحذائك؟ قال بسرعة وانفعال : وهل هذا المكان كنيس؟ هذا قبر . سوريا كلها باتت قبراً . ونحن نعيش فيها أحياءً أمواتاً ، لا يوجد في سوريا مكانٌ طاهر للصلاة اليوم .

***

ببغاوات فادي كانت تختلف عنه . سحرٌ ملوّنٌ حيّ . كائنات من خيالي وذاكرتي ، أردت شراءها منه ، لكنها كانت حياته التي لا يتخلى عنها ، يؤجرها لشركات الإعلانات ، وأستوديوهات التصوير . يعيش منها . لكنها لم تكن سعيدة معه . كان هذا واضحاً لي . وكانت تخبرني بهذا بصيحاتها والكلمات القليلة التي تردّدها ، حتى تصفيرها كان مختلفاً ، كان نوعاً من النداء المرسل إلى البعيد ، شيفرات تبعث بها إلى مستقبلات ذكية في هذا المكان أو ذاك ، بينما كان فادي مشغولاً بهجميته التي قرّر أن يختارها طريقاً نحو ستناي .

***

«سنصبح نحن يهود التاريخ ، ونعوي في الصحراء بلا مأوى» ، قد لا تجد عربياً لم يسمع بهذا المقطع من قصيدة مظفر النواب «وتريات ليلية» . كان يتنبأ ، وكان غاضباً ، لكن لم يخطر له على بال أنه كان يتحدث في تلك اللحظة عن مصير ملايين ينقلب بهم الحال إلى مشردين في أصقاع الأرض ، تبتلعهم البحار ويصل بعضهم إلى القطب الشمالي المتجمد ، وآخرون يضيعون في الصحارى بالفعل ، حتى العواء لم يسمح لهم به ، فقد عوت ذئاب كثيرة وهي تلتهمهم مع أطفالهم .

دمشق تتوهج ، تتقاذف شظاياها بحار الليل الذي يحيط بها من الأعلى . كانت تشتعل من دون نيران ، وفي شارع الباكستان ، في بيت مظفر ، كان صوت المطربة الإيرانية

الأذرية غوغوش ما يزال يخترق الأبواب . عرفني مظفر على غوغوش وروى لي كيف أنها اضطرت لبيع الورد بعد أن جاء الخميني ، وبعد أن منعوها من الغناء في طهران .

تركته يقرأ في كتاب عن محمد بن عبدالوهاب حرّره وأصدره أدونيس بالتشارك مع زوجته خالدة سعيدة . كان مظفر مندهشاً من قيام شاعر يدعي أنه علماني بالكتابة عن مؤسس الوهابية ، وتقديمه على أنه رائد من رواد عصر النهضة العربية . غير أنه لم يكن مركزاً في ما يقرأ ، بل كانت حادثة قد جرت اليوم تسرق تفكيره . كان مصدوماً ، ولم يكن حزيناً ، متماسكاً . لكنه كان ينهار من داخله . قال إنه اتصل اليوم ببغداد فرد عليه حفيد أخيه ، وقال إنه لا يوجد أحد في المنزل فقد ذهب الجميع إلى المقبرة ، لدفن الجدة الكبرى . تلك الأم التي لطالما تعلق بها مظفر ، وروى القصص والحكايات عنها وعن احتفالها برفاقه في بيتهم الكبير . عرف أنها ماتت هكذا . بزلة لسان من طفل . أما أنا فذهبت إلى النوم ، لم تكن لديّ كلمات تقال .

كان خجولا وقليل الكلام ، لا يشرب الخمر كثيراً كما يشاع عنه ، ولا يحب الكلام الفاحش كما توحي قصائده . سنوات طويلة مرت ، ولم أره يوماً يشتم أحداً أو يذكره بعيب فيه . كان طيفاً يشبه قصائده الرقيقة ، شفافاً كما في «البنفسج» ، ورهيفا كما في «ترافة وليل» ، غائباً في البعيد

كما في «المساورة أمام الباب الثاني» . «في طريق الليل . ضاع الحادث الثاني وضاعت زهرة الصبّار . لا تسل عني لماذا جنتي في النار . جنتي في النار» .

***

حين اقترحتُ على الأوروبيين في اجتماع عقد في تونس ، إنتاج فيلم أقوم بكتابته عن الأمير عبدالقادر الجزائري ، كنت أعرف أنهم سيتوقفون عند مقترحي ذاك ، وسيوافقون على الفور على تمويله . قد لا يكون لشخصية الأمير علاقة بهذا ، بل برغبتهم في أن يظهروا كمن يحتفل بعدوّه ، كمن يكرّم خصمه اللدود ، وكان هذا التحدي بداية فقط .

فيلم قصير عنه وعن بيته لا يحمل قيمة كبيرة . لكنه كان فرصة ماكرة لي ، كي أواصل كتابته لأكثر من عام ، عشت خلالها مع الأمير أدق تفاصيل حياته ، ولم أكن مخطئاً حين عثرت على تشابه كبير بين علاقته بدمشق وعلاقتي بها ، فهو الذي اختارها لتكون مدينته ، بعد أن عجز عن العيش في مدن عديدة قبلها . وحين وصل إليها لم يغادرها ، لم أكن أريد من الفيلم شيئاً واضحاً ، لا العائد المالي ولا الشهرة . كانت الطريق تعنيني أكثر من الوصول إلى الهدف ، كما يقال ، وكانت تلك الطريق من أجل هذه اللحظة التي أكتب بها الآن عن الدمشقي الجزائري .

***

لو يعلم الناس كم كنت أتعذب حين أسمع وأرى رموزهم . وكم يغلي دمي حين يقولون «عاصمة الأمويين» أو حين يذكرون الطاغية صلاح الدين ، سأقتل هذا المستبد ألف مرة . لو يعلم الناس كيف أصاب بالجنون ، حين اضطر إلى الذهاب مع أصحاب اللحى البيضاء لصلاة العيد ، وأستمع إلى سخافاتهم ، كانت حياتي ستكون أجمل لو لم يكونوا موجودين جميعاً .

***

كانت تدور بيني وبين مظفر ، حوارات عن الباراسيكولوجي ، وعالم القدرات الخارقة للإنسان ، وكان العالم الحقيقي الذي يعيش فيه عالماً مختلفا ، عالم ثورات في أنحاء العالم ، وعالم تفاصيل دقيقة وصغيرة .

غرقتُ في النوم على صوت أغنية «من آمده أم» ما تزال غوغوش ترقص رقصتها الفارسية «بابا كرم» ، التي سأشاهدها صورة وصوتاً بعد سنوات طويلة على اليوتيوب .

«أنا مقبلة . وأنت تمسك بيدي وأنا أتعلق بثيابك

لنصل إلى مكان يحل فيه السقم بكلينا

أنت تصاب بهمّ الوحدة

وأنا أصاب بهمّك أنت

الحب جاء مخيّما في صحراء قلبي

رابطا سلسلة الوفاء في قَدمَي قلبي

أنا من مقبلة . ويح قلبي . أنا مقبلة»

لم تكد تمضي دقائق معدودة حتى فتح مظفر الباب ، والهلع على وجهه . كان كطفل انتزعوه من أمه . قال لي «أنا أموت خذني إلى المستشفى» .

قفزت بسرعة ، ونظرت جيداً إلى وجهه الذي بدأ يتحول إلى رمادي . نزلنا الدرجات العالية لبيته . كان الوقت فجراً وشوارع دمشق خالية . لا مارة ولا سيارات . أخذنا نمشي بلا وجهة . لا أعرف إلى أين آخذه ، وما هي إصابته؟ هل هي نوبة قلبية أم ماذا؟ كنت خائفاً من أن يصيبه شيء ، فأخسره كشاعر كبير وكصديق لا يوجد حوله من يساعده غيري في تلك اللحظة .

***

البحث عن بصمات الأمير عبدالقادر في دمشق كان يحتاج غطاء خاصاً . لم يكن مجرد شخص عاش في دمشق . جاء إليها ليفعل شيئاً ، وقد فعله بالتأكيد . غير أن تركته لم تورث بعد ، رغم كل ما بدا وكأنه خطّ سير مولانا الأمير عبدالقادر الجزائري .

***

ظل المعماري الدموي سنان يلاحقني . لم أجد ما أفعله معه . كان متعصباً ومهووساً ، يشبه أولئك الذين يظهرون في ملفات فيديو داعش ، وهم يحملون السكاكين ، أو ما سمّوا لاحقاً باسم الحشد الشعبي الشيعي ، لا فرق ، ولن تغطي

طبقة المساحيق التجميلية ما يمكن لي رؤيته خلف جلده . شيء ما يحرّك أولئك الذين يحرصون على تغيير هوية دمشق ، لا ليحلّوا محلها هوية أخرى ، بل ليرفعوا تنصيباتهم البصرية عالياً بلغة الثأر .

***

لم يعد هائل يتصل بي ، ليس لأنه مات وأنا في سفري ، بل قبل ذلك بشهور . لعله كان خائب الظن ومحبطاً بسبب فشل مشروع مسلسل كوهين . كان يتفاءل بالتشارك معي ، منذ أن كشفنا معاً جريمة حصلت أوائل الألفية في دمشق ، حين قرأت خبراً عن طفل مختطف في حيّ المزة ، كان الخبر يقول إن الخاطفين يتصلون بأبيه مطالبين بالفدية . قرّرت البحث في الأمر ، وقابلت الوالد والأسرة ، وفتشت في محاضر التحقيقات التي أجرتها الشرطة . لم يكن هناك أيّ مفتاح يدلّ على الخاطفين ، فقط طفل خرج يلعب من بيته ، ولم يعد . بعد أيام اتصل أحدهم ليقول إنه قد اختطف الطفل ، وإنه يحتفظ به في مكان ما ، ولن يطلق سراحه إلا أن بعد أن يتسلم مبلغ الفدية ، وكان مبلغاً ضخماً جداً حينها .

ذهبت إلى المحامي العجوز ، وقلت إن «حكم العدالة» الذي تكتبه وتبثه الإذاعة ، بات أمراً حقيقياً هذه المرة . وبدلاً من أن تستعير قصصك الإجرامية من المحاكم ، سنستعير من خيالك شيئاً ما لحل هذه الجريمة .

اتفقنا على أن نتلاعب بالخاطفين ، وننشر أخباراً تدلّ على أننا أمسكنا بطرف خيط يمكن البناء عليه ، واتفقنا أيضاً على أن نتلاعب بالشرطة ، فالعجوز يعلم كما أعلم أنها قد تكون متورطة أيضاً في مناخ الفساد في سوريا . والأخطر من ذلك والمثير أكثر ، أننا تآمرنا حينها على وزير الداخلية ذاته ، وبدأت لغة الصحافة تلعب دورها في الخبر ، الصحافة كما أفهمها ، لا كما قيل للصحفيين ، من أن الإعلام هو انعكاس للواقع ، فقد يصنع الإعلام الواقعَ ، بدلاً من أن يكتفي بنقله . مضى أسبوعان . ذهبت إلى الصحيفة صباحاً في حي المزة ، لأجد الموظفين واجمين ، فقد اتصل مكتب وزير الداخلية ، وطلب حضوري الفوري . كانت المواد المنشورة كفيلة بأن يستدعيني الوزير الذي عرف بقسوته حينها . قال إن هذا الموضوع تجاوز الحد ، وإنني يجب أن أتوقف عن النشر ، وإنه لا يهتم إذا «فطس» الطفل على يد الخاطفين . ومن مبنى الداخلية في ساحة المرجة ، السراي الكبير كما كان اسمه ، مشيت خطوات إلى مكتب هائل اليوسفي ، ونزلت هذه المرة دون أن أنتبه إلى ملهى الكروان ، ثم صعدت إلى المكان الصحيح . حدثته بما قال الوزير ، فقال : لا تهتم ، لديك فرصة أخيرة لكشف الموضوع . وكان صوته عريضا وهادئاً ومرعباً ، كما في السينما .

- كيف؟

- اعلنْ أنك عثرت على الطفل .

ـ كـــيف أعلن أني عــثــرت على الطفل؟ هل تريد أن يسجنوني بتهمة تضليل العدالة ، وتلفيق أخبار كاذبة؟

ـ ماذا ستفعل إذاً؟

ـ معك حق لديّ فرصة أخيرة . سأنشر خبراً واحداً فقط .

ـ ماذا ستقول فيه؟

ـ سأتهم والد الطفل بخطفه .

ـ !!!!

ـ ماذا؟

ـ هذا جنون . .كيف تتهم الضحية؟

ـ الضحية هي الطفل ، الوالد ليس ضحية .

ـ قل لي كيف؟

ـ درست أوضاع الوالد المالية ، رجل غارق في الديون .

ـ طيب . وماذا نفهم من هذا؟

ـ نفهم أنه لا يملك مبلغ الفدية .

ـ هذه معروفة .

ـ لا . . ما لا تعرفه أنه قام بجمع مبلغ كبير من أقاربه ومن فاعلي الخير كي يدفع الفدية .

ـ هذا طبيعي . من أين سيحضر هكذا مبالغ وهو منتوف كما تقول؟

ـ ألم تقل لي إنه لا توجد لدينا جريمة منظمة في سوريا؟

ـ نعم .

ـ في دائرة النظام فقط .

ـ لم أقل هذا .

ـ قلت شيئاً يشبهه .

ـ لا بأس . ليس هذا موضوعنا . اخفض صوتك . لديّ موكلون وزبائن في غرفة الاستقبال ، وراء الباب ، والحيطان لها آذان و . . . .

ـ أعتذر . قلت لي إنه لا توجد جريمة منظمة هنا .

ـ نعم . لا أحد يستطيع منافسة الحيتان الكبيرة .

ـ إذاً ، سنشير إلى الوالد ، ونرى .

ـ هذا خيالي ، وقد تتورط في مشكلة .

ـ لن تحدث مشكلة . فإما أن يكون الوالد هو الفاعل ، وأنه يدعي أن ابنه قد اختطف ، أو أن يشعر الخاطف فعلاً بأنه أسقط في يده ، فيعطينا إشارة ما . معقول لا يوجد سوى رقم هاتف أردني اتصل منه؟ هذا لا يعني شيئاً ، حتى إنه لم يعط أيّ معلومات عن كيفية تسليم الفدية .

نهضت مسرعاً ، وطلبت من اليوسفي أن يدعو لي . وفي العدد التالي كان الخبر يقول إن الشرطة وعلى أعلى المستويات ، تشتبه في أحد أقارب الطفل ، وربما كان قريباً جداً وأنه يدّعي أنه قام باختطاف الطفل ، وكتبت أن الوثائق موجودة لدينا في مقر الصحيفة .

لم يطل الانتظار . ساعات قليلة ، ساعات قليلة فقط ، كان

«طفل المزة» يظهر فيها هكذا أمام بيت أهله ، دون خاطفين أو فدية أو أي شيء . قال لي المحامي العجوز الطيب بعدها إنني أستحق تمثالاً قرب خازوق المرجة . أما الوزير فيستحق أن نجلسه على خازوق المرجة ذاته .

***

عمود المرجة الذي تندفع من حوله الحمائم في حج وطوافٍ دائري لا نهائي يلقي بظله الممتد ليصل إلى مدخل المبنى العريق المبني على الطراز الأوروبي ، حيث تكثر محلات الحلويات العربية الدمشقية . تنفتح من بين تلك المحلات بوابة تعلوها قوس من الحجارة المرصوفة ، واحد وعشرون حجراً . عددتها آلاف المرات وأنا أعبر متقمصاً روح عبدالرحمن الشهبندر في اعتقاله الأول والثاني ، شاباً صغيراً أيام العثمانيين ، ووزيراً طبيباً بعدهم .

علقت صورة على جدار غرفتي لعبدالرحمن الشهبندر بدءاً من تحوّل ذهني من الرسم إلى الكتابة . كان الشهبندر بأنفه الطويل وعينيه اللتين تنظران إلى العمق دوماً ، رفيقاً للأيام والليالي في دمشق ، ولم يكن لعابدٍ مثلي في المدينة من بدّ من أن يلجأ إلى كتابات الشهبندر ؛ مقالاته ومذكراته ومواقفه وصوره ، كلما أراد اغتراف المزيد من دمشق .

كلما نفرت ستيتية وخفقت بجناحيها ، شعرت أنها تفزّ من صوت الطلقات التي قتلت الطبيب الشهبندر في عيادته . لحظة غيرت تاريخاً ، وصورة انكسرت لبلادٍ ما كان ممكناً لها أن

تعبر العام 1940 دون أن يكون الشهبندر حاضراً . وإن عبرته بغير وجوده ، ستكون على الصورة التي نراها اليوم ، وكي تكون كما هي اليوم ، كان لا بد من قتل الشهبندر .

حين أخرجت من مذكراته ، كلامه الذي قاله للملك فيصل الأول ملك سوريا في العام 1920 ، كنت أظن أن الناس ستتلقف تلك الكلمات وتصنع منها تعاويذ ضد كل دجال ، لكن ذاكرة الناس لم تعد كما كانت من قبل ، لذلك يصعب اليوم أن يعاد تكرار «الزعيم» اللقب الذي استحقه الشهبندر في زمنه .

قال الملك فيصل : أنا أقول لك يا شهبندر أنا ابن رسول الله وسأوافق على شروط الجنرال غورو والقيادة الفرنسية . أجاب عبدالرحمن الشهبندر الذي كان وزيراً للخارجية حينها : وأنا أقول لك ، أنا ابن هذا البلد ، ولن أوافق على تسليمها لا لغورو ولا لغيره .

ذلك التقابل بين القداسة والوطنية ، بين شرعية السماء وشرعية الأرض ، هو ما حفره الشهبندر بحروف كلماته تلك ، ما جعله ملهماً ، لي على الأقل ، حين أعالج فكرة الوطن والهوية .

حصلتُ على وثائق من بينها حكم الإعدام الذي أصدره القاضي الفرنسي بحق الشهبندر ، وقد وردت فيه السطور التالية «تبيّن من التحقيقات والمحاكمة أن الدكتور عبدالرحمن الشهبندر قد تآمر دوماً ، وثار على جميع الحكومات التي قامت في سوريا ، وحيث إنه مهيّجٌ للثورة ، وروحها ، وإنه في جميع

القرى التي ينتشر فيها التراخي ، والانقطاع عن العمل الثوري ، كان الشهبندر دوما هو الذي يسارع متعجلا ليهيّج الناس وليستمروا على الفتنة وعلى الحرب الأهلية . . كان في وسع ذكائه وطاقته وفعاليته أن تقدّم خدمات حقيقية إلى وطنه ، ولكنه ، ثائر غير قابل للإصلاح . . حكم عليه المجلس بالإعدام غياباً» .

كان كلام القاضي الفرنسي يشبه الشعر ، من يقول عمّن سيحكم عليه بالموت إنه «كان روح الثورة»!

***

قررت أن أخوض تجربة صوفية من نوع خاص . أعدت رسم لوحات يوسف عبدلكي القديمة بنسخ مضخمة ، غيّرت الأسود إلى الأحمر ، وبقي الأبيض أبيض . لم أرسم بالفحم مثله ، بل بالألوان الزيتية ، ولم أستعمل النفط ، بل زيت الزيتون الطبيعي ، فنمت في غرفتي قطعان من الخيول الهائجة في كل اتجاه . كان يوسف بمثابة الكاهن الشاب بالنسبة إليّ ، لم يكن مجرّد رسام .

بقيت ألوان اللوحات طرية لشهرين ، لم يكن زيت الزيتون يتبخر في الهواء مثلما يفعل النفط ، لذلك تسنت لي الفرصة لتغييرها بين اليوم والآخر ، فكانت اللوحات تتبدل وحركات رؤوس خيول يوسف تتبدل أيضاً ، عيونها كذلك كانت تتخذ انفعالات مختلفة كل مرة .

***

الضوء الأزرق يصلك في الليل مختلفاً عن بقية الأضواء ، يبعد كل بريق آخر ، لا ينافسه في الطريق إلى عينيك أيّ لون . ضوء أزرق يأتي من عيادة الشهبندر في مبنى الشنواني في الشعلان . أجد نفسي في شهر تموز من العام 1940 . يعبر الباب من جانبي خمسة رجال يدعون بأنهم مرضى جاؤوا كي يعاينهم الطبيب ، يدخلهم إبراهيم الكردي ممرض الشهبندر ، بعد أن ينتظروا دورهم . يقترب الشهبندر من أحدهم ينحني عليه كي يتفحص جسمه ، فيطلق الرجل رصاصة على رأس الشهبندر ، ليموت على الفور . خلال دقائق يفر الخمسة بالسيارة التي كانت تنتظرهم أمام العيادة ، والتي ستغيب في البساتين .

***

وصلنا إلى مشفى أمية في حي الجبة ، على بعد أمتار من ساحة الميسات ، بعد أن عثرنا على سيارة أجرة نقلتنا . كان مظفر يفقد الوعي ويعود ثانية .

***

سلمى تزداد ألقاً وتلألؤاً ، وأنا أزداد صمتاً وغموضاً . في تلك الغرفة المطلة على أشجار الأكيدنيا ، كان صوتٌ آخر يرافق صوت تنفس سلمى القريب من صدري ، هديل ذكور اليمام الهادئ الذي لا ينقطع ، يتواصل مثل نقلات عقارب ساعة حائط نحاسية قديمة ، تعبره خفقات أجنحتها المصفقة برفق

على الهواء الشامي البارد . جسد سلمى صورة بيضاء لصوت اليمام .

***

قرب باب الجنيق الذي لم يبق منه الكثير ، ذروة لقوس حجرية عالية ، أحجارها متباعدة ، كانت قد اندفعت من بينها ياسمينة هائلة ، تتدلى إلى الطريق ، بحثت عن هذا الباب طويلاً ، كي أقوم بتصويره وفهم موقعه ولماذا غاب واندثر ، بعد أن كان باباً استعمله البيزنطيون ، وأطلقوا عليه اسم «باب الميلاد» في إشارة إلى ميلاد المسيح . مررنا مشياً باتجاه حي «الفرّايين» ، حيث عليك أن تعبر النهر بجسور صغيرة نصبت ليصل الناس إلى بيوتهم . كان المعمل الذي قال لنا نصوح بائع الأختام والتماثيل الصغيرة ، إنه يقوم بصب قوالب خاصة وإنتاج تلك السلع فيه . أخذنا ننظر إلى بعضنا البعض ، ناصر وأنا . لم تكن هناك أيّ آلات لصب التماثيل ، لاشيء سوى صناديق خشبية وورق جرائد يملأ عرفة كبيرة . قال الرجل في ما يشبه الاعتراف ، إنه كذب علينا ، وإنه اضطر إلى الكذب ، ولكنه الآن سيقول الصدق .

ـ هذه القطع ليست مزورة .

جن جنون ناصر ، كنت أراه هكذا لأول مرة ، يتفجر مثل تنور . أمسك بنصوح من ذراعه وسأله : تعني أنها آثار حقيقية؟

ـ نعم ، من عصور مختلفة .

ـ وهل أنت مجنون لتبيع آثاراً بأسعار رخيصة كهذه؟

ـ إذا قلت إنها حقيقية لن أتمكن من بيعها .

ـ وأين وجدتها؟

ـ لم أجدها . نشتريها بسعر الجملة ، ونبيعها بالمفرق . هناك تجار كثر يوزعون علينا هذه القطع ، يأتون بها من حلب وتدمر والسويداء وإدلب والحسكة وطرطوس واللاذقية .

ـ تجار من أي نوع؟

ـ تجار . عندهم حصانة .

ـ حصانة!

ـ أمن . . أقصد يعني عناصر مخابرات .

***

أريد أن أعض لساني حتى أقطعه . لا فكي يتحرك ولا أقوى على جلب لساني تحت ما تبقى من أسناني . لم أعد أريد سماع صوتي فقط . أين أصواتهم؟ أين مذلتهم؟ أين خضوعهم؟

***

الباب في دمشق ليس باباً ، وأبوابها العشرة رموز وأسرار . بقي منها سبعة أبواب تشير إلى الكواكب ، من الشمال باب الفراديس وكوكبه عطارد ، يجاوره الباب الذي مررنا قربه ناصر وأنا ، باب الجنيق ، وكوكبه القمر ، ثم باب توما وكوكبه الزهرة . باب الصغير حيث كوكب المريخ ، وباب كيسان حيث زحل ، ثم الباب الشرقي باب الشمس ، وباب الجابية باب كوكب المشتري . وحين جاء نورالدين زنكي فتح في سور دمشق باب

الفرج وباب السلامة .

أبواب دمشق ليست أبواباً ، بل قنوات يعبر من يخطو تحت أقواسها من أزمنة ألى أزمنة أخرى .

***

ـ لماذا لا تقول لستناي إنك ترغب بها؟

ـ أنا؟

ـ نعم أنت . هل تريدني أن أصدّق أنك لا تريد منها شيئاً؟

ـ أعوذ بالله . أنا لا أحترم هذه الأشكال . قاذورات . هي تحاول إزعاجي دوماً . تصوّر أنها تلقي بفوط دورتها الشهرية أمام باب غرفتي . هذه حثالة .

ـ أنت تتحدث عنها بشراسة . أخرجها من رأسك .

ـ هذا النوع من المخلوقات لا يستحق سوى هذه المعاملة .

***

سلمى تشبه «الغنّاجة» الدمشقية التي تنبت في أحواض البيوت . تميل على الجدران الحجرية البيضاء ، تغلق ورقها إن لامستها الأيدي ، وتعود لتتفتح ما إن تشعر بالأمان ، وكنت أستبدل علاقتي بها بعلاقتي بالغناجة في الظهيرة ، حين ينام الخلق كلهم ، ولا تبقى سوى الشمس ، وقرينها الظل بكائناته الراقصة حولي .

***

«دمشقُ عدت بلا حزني ولا فرحي/يقودني شبح مضنى إلى شبح/ضيعتُ منك طريقا كنت أعرفه/سكران مغمضة عيني من الطفحِ/أصابح الليل مصلوبا على جسد/لم أدر أيّ خفايا حسنة قدَحي/أسى حرير شآميّ يداعبه/إبريق خمر عراقيّ شج نضحِ/دمشق عدت وقلبي كله فرح/وأين كان غريب غير ذي قرحِ/هذي الحقيبة عادت وحدها وطني/ورحلة العمر عادت وحدَها قدحي/أصابح الليل مصلوبا على أمل/أن لا أموت غريبا ميتة الشبحِ» . كان صوت قصيدة مظفر هذه ، يرافقني وأنا أنتظر خارج بابِ غرفة العناية المشددة ، حيث كان العراقي الغريب يموت غريباً ميتة الشبحِ .

***

جسد سلمى ليلة دمشقية . روحها الجوزاء وهي تدور حول الشام . راحتا يديها ورق الشجيرات الغض على مجرى النهر .

***

في دمشق سكن عماد بيتاً يضم مجموعة من الفقراء ، وفيه رأى أنسام لأول مرة . أنسام الدرزية المكتئبة القادمة من ضيعة قرب شهبا . كانت قد انتهت لتوها من دراستها الجامعية في كلية الآداب . كانت أنسام شابة في العشرين لكنها كانت تبدو عجوزاً في السبعين ، بشعرها المهمل الذي تندفع فيه سواق بيضاء متعرجة . التجاعيد تحيط بعينيها ، تكبّرها أكثر تلك النًظارة السمْيكة . كانت يسارية ، لكنها لم تكن تعرف

إلى أيّ حزب من أحزاب اليسار عليها أن تنضم ، فالحزب الشيوعي السوري صار أحزاباً .

***

جسدي بدأ يتآكل . يتفتّت . لكني لا أموت . أنا خالد . أقول هذا دوماً .

***

عاد عماد إلى استعمال بضاعته . كانت كتابته الكابوسية التي يقول إنها شعر ، تتلاءم مع كآبة أنسام ، لولا بائع الحلويات الجوال الذي كان يسكن معهم في البيت في مخيم فلسطين ، قريباً من بيت إبراهيم الجرادي الشاعر القادم من الرقة ، والذي كتب أفضل المجموعات الشعرية مثل «رجل يستحم بامرأة» و«أجزاء إبراهيم الجرادي المبعثرة» قبل أن يرحل إلى روسيا ثم اليمن بعيداً عن دمشق . كان تمام البائع الأسمر النحيف يحذّر أنسام من عماد ، كان درزياً أيضاً ، لكنه لم يكن متعصباً ولا طائفياً . فقط لم يكن يثق بعماد . يسهر معهم ليلاً في البيت البارد ، حيث تفوح رائحة اليانسون من كل الغرف ، ويستيقظ صباحاً ليركب دراجته الهوائية وينطلق إلى معمل الحلويات ، يأخذ نصيبه من البضاعة في صينية سوداء يثبتها على مقود الدراجة ، وينطلق إلى الشوارع والحارات ، يبيع للناس وللمحلات ، وحين ينتهي يذهب إلى المكتبة الظاهرية . هناك رأيته مرة صدفة ، فسألته : ماذا تفعل هنا؟ قال : أحقق كتاباً .

ـ تحقق كتاباً!

ـ نعم . . كتاب «أمالي ابن سمعون الواعظ» . كتاب صغير مجرد تسع عشرة ورقة ، من وقف الضيائية .

ـ وماذا لفت نظرك فيه؟

ـ لفت نظري كونه من رواية خديجة بنت محمد الواعظة . كان اسمها الشاهجانية التي توفيت في العام 460 للهجرة .

ـ وهل أنت مهتم بالصوفية؟

ـ لا أبداً . لكنني مهتم بالمبلغ الذي سيدفعه لي الدكتور .

ـ أي دكتور؟

ـ دكتور في الجامعة ، حيث تدرس أختي مع أنسام ، يريد أن يطبع كتاباً ، بعد أن يحققه ، وقد اتفق معي على أن أحقق هذا الكتاب مقابل خمسة آلاف ليرة . رزقة يعني أستاذ إبراهيم . سأقرأ عليك ما كتبته عن ابن سمعون : كان قد ورد ذكره عند ابن عساكر وكان صوفياً من أصحاب الكرامات . قال لأمه يوما : أحب أن أحج ، فقالت له : كيف تحجُّ وما معك نفقة ، ولا لي ما أنفقه ، إنما عيشنا من أجرة ما تنسخه ، وغلب عليها النوم فنامت ، ولما انتبهت قالت له : يا ولدي حُجَّ ، فقال : منعتِ قبل النوم ، وأذنتِ بعده ، قالت : رأيت الرسول وقال لي : دعيه يحج ، فباع من دفاتره ما له قيمة ودفع إليها نفقة وخرج مع الحجاج . قال : فبقيت عريانًا ووجدت مع رجل عباءة كانت على عدل فقلت له : هَبْ لي هذه العباءة أستر نفسي بها ، فأعطانيها . وكنت إذا غلب عليّ الجوع ووجدت قومًا يأكلون وقفت أنظر إليهم فيدفعون إليَّ الكسرة فأقتنع بها ذلك

اليوم . ولما وصلت إلى مكة غسلت العباءة فأحرمت بها ، ودعوت الله يومًا : اللهم ارزقني معيشة أستغني بها عن سؤال الناس ، فسمعت قائلاً يقول : اللهم ارزقه عيشًا بلا معيشة ، فالتفتُّ فلم أرَ أحدًا ، فأعدت القول فأعاد الدعاء ، فأعدت الثالثة فأعاد . ولما رجع ابن سمعون إلى بغداد كان الخليفة قد أراد إخراج جارية من جواريه من الدار ، فقال : اطلبوا رجلاً مستورًا يصلح أن تُزَوَّج هذه الجارية به ، فقيل له : قد وصل ابن سمعون من الحج وهو يصلح لها ، فاستصوب الخليفة قوله ، وزُوّج ابن سمعون بالجارية ونقل الخليفة معها من المال والثياب والجواهر ما تحمل الملوك ، فعاش ابن سمعون كما أراد .

***

دمشق تخلط الأزمنة . لهذا كان لحاقي بالأمير عبدالقادر أمراً يشبه اللحاق بحيٍ لا بمن مات قبل أكثر من قرن وعشرات السنين . بيته في دمّر وبيته في العمارة ، وأراضيه التي صارت «حوش بلاس» ، كانت فضاء البحث عنه . لم أكن أعرف أنك بمجرد أن تهمس لأحد ما في دمشق بأنك تبحث عن الأمير ، فإن الهمسة تلك ستصبح همسات تتناقلها شفاه إثر شفاه ، قبل أن تعود إليك . اتصل بي كثيرون ، يعرضون تقديم المساعدة ، غالبيتهم كانوا من أحفاد الأمير وأحفاد أحفاده ، ومنهم من كانوا من مريديه ، وآخرون كانوا من حراس المحفل الماسوني في المشرق .

***

جلستُ على الأرض تحت شجرة «ليلة القدر» الدمشقية ، وهي «مسك الليل» أو كما تسمى باللاتينية سيستروم نوكتورنوم أي ملكة الليل . لم تكن تلك هي الليلة التي تتفتح فيها أزهار الشجرة الأسطورية التي يعرفها أهل الشام . كانت ليلة عادية ، لكنها كانت باردة . نمت تحت الشجرة . على المنحدر النازل من مبنى التجهيز ، وعلى مقربة من التربة العزّية . لم يكن في الحديقة أيّ عشاق ، ولا حتى متشردين . كانت خالية ومهجورة وواسعة على عكس ما تكون عليه حالها نهاراً .

***

هربتُ من عالمي إلى سلمى . خبأتني في بيتها ثلاثة أيام . لم أكن أرى سوى وجهها القمري ، وكان الليل مختلطاً بالنهار .

***

صوفيا سيدة فرنسية في عقدها الخامس ، بشعر قصير ، وثياب صيفية ، وأقراط من فضة مغربية . دعوتها إلى فنجان قهوة في مقهى حديث خلف مدرسة دار السلام ، للحديث عن الأمير ، بعد أن اتصلت وقالت إنها علمت بأني أكتب فيلماً عنه ، وإنها تريد تزويدي ببعض الأفكار .

أخذت أتأمل أقراط صوفيا الفضية المتعددة . قالت بعربية مكسرة ، إنها لا تستطيع العيش دون أن تفكر في الأمير عبدالقادر كل يوم . قالت إنه يعيش معها ، وإنها عرفت الحياة فقط بعد أن عرفت شخصاً اسمه مولانا عبدالقادر .

ـ لم يكن الأمير عبدالقادر مجرد قائد عسكري خسر حربه ولجأ إلى دمشق .

قلت لها ، وأنا أقول ولا أتساءل .

ـ لم يرد مولانا أن يربح تلك الحرب . أراد أن يخسرها ؛ لأنه لم يقبل باستمرار سفك الدماء في بلاده الجزائر . عرف أن فرنسا ستهزمه ، فانهزم أمامها بملء إرداته .

ـ عفواً . .قد لا أوافقك على أنه هزم . هو أراد شيئاً آخر .

ـ ماذا أراد برأيك؟

ـ أراد أن يحوّل قوة العدو لصالحه ، وأراد من فرنسا أن تخسر على المدى البعيد لا في لحظته التاريخية تلك .

ـ تقصد أنه رأى المستقبل؟

ـ رأى الكثير . ربما صنع المستقبل بنفسه ، ولكنه لم يرغب بالبقاء محصوراً في مكان واحد .

ـ يعني أنت توافقني أن الأمير كان ولياً من أولياء الله الصالحين؟

ـ أوافقك ، وأشعر بالارتياح لأنك تؤمنين بهذا .

***

لم يفاجئني الدرابزين الخرمسي برائحته التي رافقتني طيلة تجوالي الدائم في حديقة بيت الأمير عبدالقادر في دمّر . كانت إلى جانبه ظلال خفيفة بألوان عديدة ، تجمّع صورته مثل قطع البازل ، قطعة من هنا وقطعة من هناك ، كما تتشكل الهويات في دمشق ، وكما تشكّلت أنا ، وكنت ألهو بتجميع

تلك القطع ، بعضها يبلغ من التعقيد درجة كبيرة ، بحيث يمكن وضعها في أكثر من مكان في الصورة ، ويبقى مناسباً كل مرة ، لكنه سيعطي في كل تجربة معنى جديداً وملمحاً جديداً وهوية جديدة .

***

نبض مظفر يصل إلى 203 وينخفض بسرعة ليصبح خفيفاً بالكاد يتمكن الجهاز من قياسه . كان الرجل يغيب . عيناه كانتا تعودان عيني طفل ، ثم فتى في بغداد ، وشاباً في البادية في الجنوب مع الفلاحين ، حيث كان يلتقط لهجاتهم التي صنعت لغته الشعرية من كل مكان في العراق . حروف الجيم والكاف والألفات المائلة وتلك المدورة ومعها الخيالات والأسماء والتفاصيل .

أصوات الحياة تبدأ كما في كل صباح دمشقي ، تسبح الشام برائحة البنّ الزكية ، ضباب الشام من بخار القهوة المتصاعد من كل شرفة ونافذة في المدينة . كان قد دفع حياته كلها ثمناً لإيمانه بالحزب الشيوعي العراقي ، فيما اتهمه قياديون فيه بأنه منحرف ، واستغلوا اعتقاله في إيران والتعذيب الذي تعرّض له على يد الفرس ، وكرسي الإخصاء الذي وصفه في قصائده . قالوا إنه هندي وليس عربياً ، وقالوا عنه إنه لا يعجبه العجب . لكن لم يستطع أحد أن يخفي بغرابيله شمس القصيدة التي كانت تشرق كل مرة من أوراقه التي يكتب عليها بخطّه الصغير جداً ، والذي كانت تصعب قراءته على

العين المجردة . لكنه كان عابراً مقيماً أصابته دمشق بمسّها .

وقرب هذا المشفى في الجبة ، كان مقر الأمن السياسي ، أحد أخطر أجهزة المخابرات السورية ، حيث كان يستدعيني العقيد المسؤول عن المنظمات والمثقفين ، بين الوقت والآخر .

ـ لماذا لم توافق على العرض الذي قدمّه لك صاحبك الكردي جوان وصديقته الكردية في مقهى الهافانا قبل يومين؟

ـ هل وصل خبر هذا العرض بهذه السرعة؟

ـ أرجو أن تجيبني عن السؤال ، كي لا أقوم بتوقيفك تحت في القبو .

ـ لم أفعل شيئاً يستوجب التوقيف . كان عرض عمل .

ـ عرض عمل مقدّم من منظمة إرهابية تنوي إصدار مجلة؟

ـ هذا ما فهمته . ولذلك رفضت .

ـ كيف؟ اشرح لي .

ـ طلب مني صديقي جوان أن ألتقيه مع صديقة له ستكون موجودة . هكذا بدأ الأمر .

ـ ثم؟

ـ ثم قال إنها مناضلة كردية عائدة من حلبجة وجبال قنديل في كردستان العراق ، وإنها مسؤولة عن الاتفاق مع من تراه مناسباً .

ـ الاتفاق على ماذا؟

ـ الاتفاق على إدارة تحرير مجلة يصدرونها بالكردية والعربية .

ـ أعرف المشروع ، والصبية عندي تحت .

ـ من الذي أخبركم إذاً؟ . . ما دامت الصبية سجينة عندك .

ـ لا ضرورة للشرح . تستطيع أن تستنتج بنفسك .

ـ صديقي ما غيره؟

ـ غير مهم . هؤلاء ينتمون إلى حزب العمال الكردستاني السوري ، وتعلم أننا حظرنا نشاطهم منذ زمن طويل .

ـ أعلم . ليس هذا ما منعني ، بل لأني لم أر المشروع يشبه تفكيري ، حتى إنه ليس كردياً كفاية . هناك ما هو غير مريح في الكلام ، وفي نسخة المجلة التي عرضاها عليّ . لا أريد العمل معهم ، لست مضطراً . لكن أنت يا سيادة العقيد تسألني : لماذا لم أوافق؟ هل كنت تريدني أن أوافق؟

ـ لا . . أضحكني سؤالك . الأمور معقدة بعض الشيء . جيد أنك لم توافق . الله معك . انتهى التحقيق .

عرفتُ لاحقاً أن عقيد المخابرات هذا ، كان قد أصبح صديقاً لعدد من المثقفين المعارضين ، صديقاً حميماً ، إلى درجة أنه كان يسهر في بيوتهم ويتبادل معهم الأنخاب والآراء السياسية .

***

الرسائل التي كانت تصلني من باريس ، كانت جسراً مع المكان الذي أنا فيه ، ولم تكن كما كنت أعتقد ، تفصلني وتباعدني عنه . كان خالي بخطّه الأنيق المنضبط ، يتحدث في

كل شيء ، وكان يصبر على أفكاري ، لكنه لم يكن يتردد في تصحيح كل خطأ لغوي أقع فيه ، حتى بتّ أراه يصحّح لي الهمزات والنحو والتراكيب في منامي . كان تواصلاً خاصاً ومهيباً . لم يكن عادياً بالنسبة إليّ ، أن يكاتبني رجل يصنع مسودات لرسائله . من يفعل هذا؟ نسخة عنده وأخرى يضعها في مغلف بريدي يسافر عبر البحار والحدود . لم يكن يرد على رسائلي باهتمام وحسب ، بل كان يشير إلى تفاصيل صغيرة قلّما يحسن الآخرون النظر إليها وملاحظتها . كان يقول إنه يبحث عن غبار دير الزور بين درجات الميترو في باريس . كان حنينه حقيقياً وأصيلاً . وكنت أنا الجديد على المدينة ، أعبرها كما تعبرها طيور الزرزور خمرية الصدر المهاجرة فوق جزر الفرات السبعين .

وحدها بطاقة وصلتني منه ، كانت مختلفة تماماً عن لغة الرسائل . لوحة لمارك شاغال ، باريس بالمقلوب .

***

طيف يوليان المرتد

أعطتني صوفيا الفرنسية كتباً عن الأمير ، وصوراً نادرة له ، ودعتني للانضمام إلى جمعية خاصة تهتم بتراثه الصوفي ، وكانت تتحدث عنه وهي تذرف الدموع دون أن تشعر . غير أن أكثر الوارثين إثارة لاهتمامي كان واحداً من أحفاده المهاجرين ، وكان رجل أعمال . اتصل بي والتقينا ، وعرض هو الآخر المساعدة ، كانوا جميعاً يريدون قول شيء عنه ، شيء مختلف كل مرة .

في فندق من فنادق المدينة الفخمة ، كان لقاؤنا . كان الرجل يعكس هدوءاً عميقاً يأتي من داخله ، وكان يحدثني عن جده علي رضا باشا الركابي ، أول رئيس حكومة سوري ، بعد خروج الأتراك من الشام ، في شهر تشرين الأول من العام 1918 ومن خلال حديثه عن جده ذاك ، وعن تكليفه بمنصب حاكم المنطقة الشرقية من سوريا قبل أن يصبح رئيساً لحكومة العهد الفيصلي حتى انهيار سوريا الملكية وخسارة يوسف العظمة في ميسلون أمام الجيش الفرنسي ، ثم انتقاله إلى الأردن رئيساً للوزراء أيضاً ، رغم كونه سورياً دمشقياً ، وكيف اعتزل السياسة مفضلاً الإقامة بين حيفا والقدس . روى لي

ذلك كله عن تاريخ أسرته وعن الأمير عبدالقادر جد والدته أيضاً . كان الرجل الأنيق أكثر تأثراً بالأمير من المرأة الفرنسية ، وكان يكثر من ذكر نابليون الثالث صديق الأمير عبدالقادر ، ويربط ما بين مشروعيهما في كل من باريس ودمشق . «نابليون تروا» كما كان يحب أن يسميه ، أراد بناء الحداثة رغماً عن خراب أوروبا ، أراد إنهاء الحروب لبدء عهد جديد يرث مبادئ الثورة الفرنسية ، دون أن يتلوث بركامها وحطام الإنسان بعد اندلاعها . والأمير عبدالقادر ، أراد فضاء جديداً يضع فيه بذاراً للحداثة في وقت مبكر جداً ، فلم يجد مركزاً يتحرك منه ، للتأثير شرقاً وغرباً ، أفضل من دمشق .

***

واحدة من القطع التي عدنا بها أنا وناصر من زيارتنا للمعمل المزيف في الفرّايين ، كانت عملة معدنية قديمة لونها نحاسي مخضر ، حفرت عليها صورة واسم يوليان ، أما وجهها الخلفي فقد نقش عليه رسم لجندي روماني يرفع راية بيد ويُخضع أسيراً باليد الأخرى ، أما الرسالة المكتوبة فقد كانت VIRTVS EXERCITVS ROMANORVM «شجاعة -فضيلة- جيش الرومان» .

كنت أحتفظ بها بيدي المتعرقة ، وأنظر إليها بين الوقت والآخر ، يوليان هو الإمبراطور الروماني الذي قال عن دمشق

إنها «قاعدة سوريا المجوّفة» ، وسمّاها «عين الشرق» . كان هو ذاته القائد الذي نعته التاريخ بـ«المرتد» . وكان أكثر ما يثيرني في حياته ، تنقله بين المدن ، وولعه بالمعرفة ، وعدم استسلامه للفكر الموروث ، وكذلك ارتباط حياته في مرحلة ما بديار بكر ، التي لم تكن تبعد عن مسقط رأسي في القامشلي السورية سوى بضعة كيلومترات ، وكذلك دفاعه حتى الموت عن نهر الفرات العظيم . كتب يوليان بالحرف في رسالة وجهها إلى أهل الجليل يشرح فيها سبب تركه للمسيحية أنه «إذا لم تكن كل قصة من هذه القصص (الواردة في سفر التكوين) أسطورة لا أكثر ، وإذا لم يكن لها ، كما أعتقد بحق ؛ تفسير يخفى عن الناس ، فهي مليئة بالتجديف في حق الله . ذلك أنها تمثله ، أول ما تمثله ، جاهلاً بأن التي خلقها لتكون عوناً لآدم ستكون سبب سقوطه ، ثم تمثله ثانياً إلهاً حقوداً حسوداً إلى أقصى الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر ، وهي دون غيرها ، المعرفة التي تؤلف بين عناصر العقل البشري وتجعله وحدة متناسقة ، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة . ولِمَ يكون إلهكم غيوراً حسوداً إلى هذا الحد فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء؟ . . . ولم يغضب الإله العظيم ذلك الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين؟ يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما تقرها وتتطلبها

الوثنية . ولم لا تقبلون الشريعة التي نزّلها الله على اليهود؟ تقولون إن الشريعة الأولى كانت مقتصرة على زمان ومكان معينين ، ولكن في وسعي أن أنقل إليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف ، لا العشرات فقط ، من الفقرات التي تقول إن الشريعة نزلت ليعمل بها في جميع الأزمان» .

كان الفرس كما يفعلون اليوم ، يطمحون إلى احتلال سوريا ، ولكن يوليان حاربهم بشراسة في ربيع العام 363 وعبر نهر الفرات وعبر دجلة بعده ، ملاحقاً جيوش الفرس الذين كانوا يحرقون الأرض قبل انسحابهم منها ، كي يموت السكان ، وكي لا يجد جنود يوليان ما يكفيهم من الغذاء أثناء تقدمهم ، وأثناء تلك الحرب النبيلة ليوليان ضد الفرس ، غدر به أحد المسيحيين ، وصوّب إليه حربة اخترقت كبده ، فمات باغتيال سياسي ديني وليس في معركة حربية .

عدتُ من عصر يوليان ، كنت أقذف العملة القديمة بإبهامي إلى الأعلى ، تدور حول نفسها عالياً ثم تعود إلى يدي . وفي كل مرة أرى وجه يوليان المرتد ، ثم يظهر الجندي الروماني وأسيره ، ثم يظهر يوليان ، ثم يعود الجندي وأسيره ، وأثناء طيران العملة كان وجه يوليان يتبدّل باللونين النحاسي والأخضر ما بين القوة والمعرفة والشك .

***

سلمى هي دمشقي الثانية . وكما أكتشف في المدينة كلّ يوم ، أرحل في سلمى كل يوم ؛ لأرى العالم الذي لم أره من قبل .

***

في متحف صغير في بيته في دمّر ، وضعتْ ملابس خاصة بالأمير عبدالقادر . كان ارتدائي لتلك الثياب والأوسمة بمثابة تجربة روحية خاصة مع ساكن دمشق الذي رفض أن يبقى في بورصة التركية ، لا لشيء ، سوى أنه كان يقصد الشام . خرج في رحلته من معسكر في الجزائر إلى سجنه في قلعة أمبواز ثم إلى باريس ثم إلى إسطنبول كي يصل إلى الشام ، وكي يكون أول شيء يفعله في دمشق هو زيارة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، في مقامه على كتف قاسيون .

وبقبعة الأمير ذاتها نزلت درجات مقام الشيخ محيي الدين ، حارس الشام الأجلّ . رجعت إلى محيي الدين ، بعد سنوات طويلة ، بعد أن كان آخر عهدي به ، وأنا أبيع أكياس التمر الصغيرة على الأرض أمام باب جامعه . كان عليّ أن أشق طريقي بنفسي ، في وعرٍ اخترته ، وفي مجاهل أردت أن أمشي فيها . ألقيت نفسي في دمشق ، وأردت ألا أكون أقل من عجينة لونية من عجائن المدينة المتماوجة على سطحها ، وخاماً من خاماتها . كانت زوجة صديقي المخرج السينمائي العلوية تقول لبناتها عنيّ إني كمن يرفض أن يتلقّم من يد الكاهن في

الكنيسة ، وكان يدهشها أن أصر على أن أتذوق كل شيء بنفسي لا بأيدي الآخرين . كنت أعرف هذا ، ولذلك كانت دمشق أكبر من مدينة بالنسبة إليّ ، كانت عالمي المكتشف الذي لم أفرغ من اكتشافه بعد .

***

قال الأطباء إن جسد مظفر اختار أضعف نقطة فيه ، ليرد على صدمته حين علم بموت أمّه ، ولم يكن هناك ما هو أضعف من قلبه ، فارتجّ قلبه ، واختل نظامه العميق . ما أبعد الأعماق كانت عبارة من قصيدة لمظفر ، يكررها في النص وفي إلقائه الفريد «ما أبعد الأعماق . . ما أبعد الأعماق . . ما أبعد الأعماق» .

***

ـ بماذا أنت منشغل يا كاسر؟

ـ بنوتة موسيقية .

ـ وماذا تكتب؟

ـ نوتة موسيقية

ـ نوتة ماذا؟

ـ أنوّطُ صوت أزيز النيونات في سقف المركز الثقافي . لا شك أن هناك نظاماً ما يتحكم بالأضواء البيضاء المنهكة . يزداد التيار وينخفض ، فتتغيير الأصوات . لا شك لديّ بوجود نظام خاص بالفساد ، يتحكم بكل شيء . يمكن قراءته حتى من

خلال صوت نيون يجاهد كي يضيء بكهرباء يسرقها الفساد . سأريك غداً النوتة التي فرّغتها من سوق العتيق . يكفي هارموني نداءات الباعة وردود الشوايا على صيحاتهم ، ليكون نسيجاً متناغماً وحده .

***

قرر المحبوس أن ينتحر . كان جلده رقيقاً جداً ، لكن الممرضة لم تترك له شيئاً يقتل نفسه به . لا توجد أدوات حادة . حتى أظافره باتت بسبب تقدمه في العمر ضعيفة لا تخدش جلد طفل ، ومع ذلك فقد قامت الممرضة بقصها بخبث حتى نز الدم من حوافها .

قال لنفسه بصوت ضعيف مبحوح : كيف أقتل نفسي؟ وهل يستطيع الإله أن يقتل نفسه؟ يتركونني هكذا؟ سأشنق نفسي بغطاء السرير ، ويمكنني أن أصدم رأسي بالجدار ، أو بحنفية الحمام ، أو أبتلع مفتاح الحمام . لا يمكنني أن ألقي بنفسي من الشرفة أو من النافذة ، لا توجد أصلاً شرفة أو نافذة في هذا المكان . مكان أبيض ينعكس بياضه على عينيّ ضوءاً مبهراً يغشي بصري ، لكنني أراه أسود ، رمادياً ، رصاصياً .

***

«الدين واحد . ولو يعيرني المسلمون والمسيحيون انتباههم لقضيت على اختلاف وجهات النظر بينهم ، ولغدوا إخوة في الداخل وفي الخارج» . كتب الأمير عبدالقادر هذا . كان يرى

الهويات متخالطة بشدة ، لا حل لتجاورها إلا بامتزاجها ، فأخذ مفتاح «فصوص الحكم» من ابن عربي وبدأ منه طريقاً في دمشق . «اعلمْ أن مسمى الله أحديٌّ بالذات كلّيٌ بالأسماء» .

***

كانت سلمى مجرّةً زرقاء ، بنفسجية ، حمراء وبيضاء ، وكنت أروح فيها مسلّماً جسدي للسفر البعيد في المجهول .

***

شيئاً فشيئاً ، أخذ فيلمي البسيط يتحوّل من الحديث عن الأمير عبدالقادر ، كما اعتدت دوماً في كل ما أفعل ، إلى الحديث عن دمشق . ثم عن جرح غائر كانت قد تعرضت له في العام 1864 ، استغله الجميع ، وكذب فيه الجميع . «طوشة النصارى» هي التسمية المتعارف عليها ، للأحداث التي ضربت دمشق في تلك السنوات وما تلاها . كنت أقف أمام اللوحة العملاقة في بيت الأمير ، والتي تصوّره وهو وسط حرائق الشام ، والضحايا تستغيث به ، بينما يقبل أحد القساوسة يده . لم تكن المرة الأولى التي أهتم بها بطوشة النصارى ، لكن هذه المرة ، كنت ألاحق ليس ما كتب في التاريخ ، بل ما لم يكتب ، ولم يدر حوله أيّ كلام . كيف تغيرت المدينة بعد الطوشة . من ذهب ومن جاء؟ وما تأثيرها على لحظتنا هذه؟

كتبتُ حين بدأ يتجمع لدي المزيد من الوثائق الدمشقية ، أن المدينة كانت في ذلك الوقت ، مركزا من مراكز التجارة

العالمية في القرن التاسع عشر، بفضل ما سمّي بـ«نفط» ذلك الزمان؛ صناعة الحرير والنسيج. تلك الصناعة التي كانت في أوج ازدهارها في دمشق، ومنها كان يتم التصدير إلى الغرب والشرق، وكانت قد بدأت بعض البنوك الأجنبية تفتح فروعا لها في حلب ودمشق. كانت غالبية صنّاع الحرير والنساجين من مسيحيي القصاع وباب توما والقيمرية، وشيئاً فشيئاً صارت دمشق تشكل أكبر مركز صناعي لإنتاج الحرير والاتجار به في العالم، بالإضافة إلى صناعة بقية أنواع الأقمشة والمنسوجات، بالإضافة إلى نظام الجاكار الميكانيكي الذي كان أول من أدخله إلى دمشق في خمسينات القرن التاسع عشر حنا بولاد وإخوته المشهورون بإنتاج حرير البولاديّة.

كان يجب تدمير ذلك كله بأيّ صورة، وإجبار أولئك النساجين على الهجرة إلى العالم المنافس.

***

في ليل دمشق تنظر إلى المجرّات. ترمي نظرك بعيداً، تراها وأنت فيها، فتتخيل أنك ترى نفسك أيضاً في القبة السوداء ذات الأضواء المتناثرة.

***

قال لي إخاد، وهو يجادلني في ما كتبت، إن حرب القرم لم تضع أوزارها يوماً منذ أن اندلعت، لكن ليس في فضائها الجغرافي، بل استمرت في بلاد الشام، وبعد أن سيطر الأتراك

على كرسي أنطاكية والعاصمة الروحية في القسطنطينية ، ورثت الإمبراطورية الروسية عرش الكنسية الأرثوذكسية بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية . صارت موسكو تدعى بـ« روما الثالثة » ، ونصّب الروس أنفسهم حماة للأقليات المسيحية في المشرق ، وخاصة الأرثوذوكس . أوروبا كانت تُهزم وتنتصر في حروبها مع الأتراك والروس ، لكنها في كل مرة كانت تستعمل «حماية الأقليات» لتضغط على العثمانيين أكثر ، من أجل الحصول على المكاسب السياسية .

ـ لكن حرب القرم غيرت المعادلة نوعاً ما ، فالتحالف كان بين العثمانيين والفرنسيين والبريطانيين ضد الروس .

ـ نعم . . . ينسى قرّاء التاريخ اليوم أن يسألوا : لماذا قدحت شرارة حرب القرم وقتها؟ كانت قد مرّت عشرون عاماً صعبة على الأتراك ، تعرضوا فيها لضغط هائل من موسكو ليمنحوا للأرثوذوكس حقوقاً كاملة في السيطرة على كنيسة القيامة وجميع الأماكن المقدس في سوريا وتحديداً في فلسطين ، أعطى فيه العثمانيون ما يشبه الحكم الذاتي للمسيحيين الأرثوذوكس . لكن هذا لم يكن مرضياً للمسيحيين الكاثوليك الذين تدعمهم فرنسا ، ما دفع السلطان العثماني إلى منح الكاثوليك المزيد من الامتيازات في العام 1852 ، فثارت ثائرة نيكولاي الأول إمبراطور روسيا ، الذي كان متديناً متطرفاً ، فقام بإرسال مبعوثه الخاص ووزير البحرية الروسية إلكسندر منشيكوف إلى

إسطنبول . طلب منشيكوف من السلطان أن يطرد الرهبان الكاثوليك من الأماكن المقدسة في فلسطين ، ويعيد للأرثوذوكس الحقوق الحصرية بالسيطرة عليها . لم يكن هذا فقط ما أراده منشيكوف ، بل إنه أصرّ على أن يمنح الأرثوذوكس الحق بالوصاية على مفتاح كنيسة المهد في بيت لحم ، وكذلك النجم الذي وضعه الأرثوذوكس في موضع مولد المسيح ، والوصاية الكاملة على قبر مريم العذراء ، وأن يصدر السلطان أمراً ببناء قبة كبرى لكنيسة القيامة بتمويل من بطريركية الروم الأرثوذوكس وحدها ، وكان من أكثر مطالب منشيكوف استفزازاً للسلطان أن يقيل وزير خارجيته فؤاد أفندي ، لأنه كان على صلة وثيقة مع لندن وباريس . طلب البريطانيون من السلطان التركي أن يوافق على كل ما طلبه منشيكوف ، لكن الفرنسيين لم يقبلوا بذلك ، فأرسلوا قطعهم العسكرية إلى المياه التركية ، فلم يكن هذا كافياً لمنشيكوف ، الذي سارع إلى وضع المزيد من المطالب ، ومنها استقلال الجبل الأسود عن الدولة العثمانية ، فاندلعت الحرب . كانت قد مرت سنة على بدء العمليات العسكرية ، حين وقع الأتراك والفرنسيون والبريطانيون عهداً يمنع أياً منهم من عقد أيّ مصالحة مع الروس ، إضافة إلى إعلان الحرب المشتركة ضد موسكو ، وخاضوا حرباً امتدت لاثني عشر شهراً في سيفاستوبول في أوكرانيا ، وانتصروا فيها على الروس .

***

بدأ حبيس البياض بتمزيق أغطية سريره ، أخذ يلفّها حول عنقه ، لكنه لم يكن يملك الطاقة لخنق نفسه . كان يتوقف كل دقيقتين متذكراً تلك الشجرة التي كان رفاقه يستمعون تحتها إلى أحاديث زكي الأرسوزي . لم تكن تعجبه تلك الأحاديث . كان يسمع إلى ما هو أفضل منها ، حسب اعتقاده ، حين كانت زوجته تحدثه عن شخص عاد من المهجر اللاتيني ، مبشراً بسوريا الكبرى .

***

صليب الصيّاد

لا يمكنك أن تعيش في دمشق دون أن تلفك غلالة التاريخ ، لا تاريخها فقط ، بل تاريخ العالم ، حتى تصبح الحكواتي والمستمع في الوقت ذاته . لا تقرأ التاريخ لتعلم ، لكن لتصغي إلى همسات تأتي من كل شبح يرفض مغادرة المدينة ، منذ أن تركت روحه جسده فيها .

***

التهتك كان سمة النخبة الأساسية . لعلها لم تكن نخبة ، لكنها لم تكن عموم الناس . طبقات من المثقفين والفنانين تغرق ذاتها في الفسق ، ليس لأنه من طبائع الحياة ، كان رداً على منعها من فعل أي شيء . كانوا يعيشون في عالمهم الموازي ، انتقاماً ممن فوقهم في سلّم السلطة ، ومن الذين تحتهم في سلّم المعرفة . قال صديقي توفيق المحلل السياسي والأنثروبولوجي : سنذهب إلى المسبح ، لكنه مسبح خاص في مزرعة صديقة لي . أنت مدعو .

ـ من سيكون هناك؟

ـ مخرجة سينمائية وشاعرة وصديق لي معارض يكتب في الفكر . وآخرون تعرفهم جميعاً .

ـ أين هذا المكان؟

ـ بين الفلاحين في الغوطة .

ـ حسناً . نذهب .

***

رسم إخاد على الطاولة الخشبية أمامنا دائرة ومثلثاً ، وسهماً يشير إلى الشمال الشرقي ، قال : مات نيكولاي الأول ، وورثه ابنه ألكسندر الثاني . كان الابن ميالاً إلى السلام أكثر من مواصلة الحرب ، خاصة حين أرسل له الأوربيون والأتراك مبعوثاً نمساوياً يهدده بأن دولاً غربية أخرى ستنضم إلى حلفهم ضد الروس ، وكان الروس قد شجعوا الصرب والبلغار على الثورة ضد الأتراك ، لكن حين تقدمت القوات الروسية إلى أراضيهم ، لم يكن لدى هؤلاء أيّ حماسة في التمرد على سلطة العثمانيين .

الرواية تتكامل وتتعقد ، لكنها تعود لتنفرد مثل خيوط الكرمة ، بين ما يقوله إخاد وما أقوله : دارت معارك طاحنة على جبهات عديدة ، غيرت وجه العالم ؛ نزوح سكان وهجرات وثورات وانقسامات على أسس عرقية ودينية وشعبية ، خراب كبير مهّد لخراب كبير .

في الخامس والعشرين من شهر فبراير من العام 1856 أعلن عن بدء أعمال مؤتمر السلام في باريس ، وفيه وقعت معاهدة استغرق التوصل إليها أكثر من ثلاثين يوماً ، ونصت على حرية

الملاحة في الدانوب بإشراف دولي ، وإعلان البحر الأسود منطقة محايدة يمنع على الروس تحريك قطع عسكرية فيها ، ومنح الاستقلال لرومانيا ، بينما بقيت صربيا تحت سلطة العثمانيين ، بالإضافة إلى اعتراف السلطان العثماني عبدالمجيد بالمساواة التامة بين رعايا الدولة العثمانية من جميع الأديان والطوائف ، ووافق على أن يتم اللجوء إلى التحكيم في حال نشبت أيّ خلافات دولية ، لكن سبب الحرب غاب عن بال الجميع ، إلا فرنسا ، التي ثبتت حقوقها الحصرية بالوصاية على الأماكن المقدسة في سوريا . أما أهم وثائق حرب القرم فكانت تلك التي صدرت عن السلطان عبدالمجيد ، الوثيقة التي عرفت بـ«الخط الهمايوني» والتي فصّلت الحقوق العامة للمواطنين وخاصة المتحدرين منهم من أديان ومذاهب وطوائف وأعراق مختلفة . ألغى السلطان فيه الجزية المالية التي تفرض على المسيحيين واليهود ، وكلّف المسيحيين بالخدمة الإلزامية ، وسمح لهم بدفع بدل نقدي يعفيهم منها ، ومنحهم تمثيلاً وفق كثافتهم في أصقاع الدولة . وبسبب فرض البدل النقدي الذي وجب على المسيحيين دفعه ، ستعود دمشق لتكون مسرحاً من جديد لتغيرات كثيرة ستحدث وستطال الشرق كله حتى هذه اللحظة .

قال إخاد معترضاً :

ـ قبل أن تصلَ إلى الطوشة . . . أريد أن أقول لك إنك

وكثيرين تعطون للمسيحيين طابعاً وصورة غير حقيقيين . ماذا عن موقفهم حين جاء إبراهيم باشا وجيشه المصري واحتل سوريا؟

ـ مع إبراهيم باشا بدأت الحروب الطائفية في سوريا . هذا صحيح . لكن لماذا لا تنظر إلى شكل حياة المسيحيين قبل مجيئه؟ هل كانت المساواة تغمر الجميع؟ أكيد لا .

ـ وقف المسيحيون السوريون مع إبراهيم باشا ضد أهل البلد . كان هذا مزعجاً للمسلمين بكل طوائفهم ، بمن فيهم الدروز ، وكان مزعجاً لليهود أيضاً .

ـ حُكم إبراهيم باشا نيابة عن أبيه محمد علي غيّر الكثير في سوريا ، صحيح أنه دام تسعة أعوام ، لكنه لم يترك شيئاً على حاله . لا يتوقف الأمر على المسيحيين وحدهم . أنتم اليهود حصلتم على صلاحيات هائلة .

ـ لو كان هذا صحيحاً ، لتفجرت إشكالات بيننا نحن اليهود وبين المسلمين ، ولكن الواقع أن المسلمين والمسيحيين هم من اختلفوا في ما بينهم ، لا نحن .

***

كانت ملامح وجه أنسام صديقة عماد الدرزية ، تبث شيئاً من الماضي ، جيناتها تقول إن نيران هائلة قد اشتعلت ذات يوم ، وإن الليالي الثلجية دامسة الظلام في جبال حوران ولبنان

كانت تشهد خوفاً كبيراً مما كان يدور خلف الجدران ذات الأحجار السود .

***

التغير الذي طرأ على دمشق ، جعل عائلاتها الثرية تنزح عنها ، وتسكن في النطاقات المحيطة بها . كانت لهم مزارعهم في الماضي ، لكن بيوتهم كانت في قلب المدينة ، وكان هذا يجعل من قلبها حياً ، ويجعل منهم طاقة تشعّ على بقية السكان الأبعد عن المركز . لكن المكان الذي أخذني إليه توفيق ، كان يتعرج بنا بين أشجار الجوز والمشمش في الغوطة الشرقية . وصلنا إلى مزرعة مسوّرة بجدار عادي تتوسطه بوابة لدخول السيارات . أوقفنا السيارة خارج المكان ، لعله كان مزدحماً ، ودخلنا من الباب الذي كان مقفلاً ، بعد أن ضغط صديقي بأصابعه على الجرس الأبيض الكبير ذي الضوء الأصفر ؛ لينفتح الباب بعد دقائق آلياً .

كان مسبحاً معزولاً للعراة في ضاحية من ضواحي دمشق . وكان بإمكانك أن ترى أفخاذ مثقفات تلمع تحت شمس الشام ، ومؤخرات مفكرين هزيلة مرتخية ، وجوع سجناء سياسيين سابقين إلى التهام الأجساد بعيونهم ، قهقات عجائز فاتهن قطار العمر ، وشباب صغار بنظارات وشعور طويلة لتلطيف الجلسة . للحظة ، تشعر أن الكل يريد الانتقام من الكل . تحلّل قيم الطبقة المثقفة أخذ أشكالاً مختلفة ، ولم يعد

يقتصر على بيع النفس للذي يدفع أو الذي يهدّد بالاعتقال والنفي ، بل تجاوز ذلك إلى عرض النفس والجسد في سوق داخلية مشتركة .

قلت لتوفيق : هل تريدني أن أخلع ملابسي وأجلس هنا بين هؤلاء؟

ـ أنا غلطان لأني أحضرتك . أنت أصلاً أصولي . لا تحرجني .

ـ هل يحرجك أن أبقى بملابسي؟

ـ هل تريد أن تتفرج علينا ونحن بالزلط؟

ـ لا . قد يثير غثياني رؤية شحومكم وعظامكم المهترئة .

ـ لكننا دخلنا . أرجوك .

ـ دخلنا أو لم ندخل . لن أفعل هذا . هذا سخف وتفاهة . ولا شيء مثير ولا جميل فيه . لا اعتراض عندي اذهب أنت . أنا راحل . سلام .

ـ طول بالك .

ـ أتركك مع مثقفيك .

غادرت المكان سريعاً ، وكان من بين المتشمسين والمتشمسات في مسبح العراة ، امرأة في الخمسينات ، بجسد نحاسي وشعر قصير ، راحت تتابعني بنظراتها ، ولم تبعد عينيها عني حتى خرجت من الباب الحديدي .

***

التهتك لم يكن مقتصراً على الحرية الجنسية التي منحها البعض لنفسه . كان هذا مفهوماً ، بل ربما عادياً ، ويمكن استيعابه ، ومنح الناس مساحتهم التي يريدونها لأنفسهم من الفسق . التهتك العميق كان في ميزان العلاقة مع الآخر ، وكان يقابل ذلك التفتت في القيم ، تصاعداً لقيم جديدة عند المتدينين من كل طائفة ومذهب ، قيم جديدة في عودتها قديمة في معانيها وإنسانيتها .

***

كانت قد مرت سنوات ، نسيت فيها ناجي ومرسمه ، واللوحات المغبرة التي تراكمت في عمق المكان . ومع انتقالي للحياة في البرامكة ، صرت قريباً من التكية السليمانية أكثر ، وصار طريقي يأخذني إليها مع التواء شارع الحلبوني النازل من جسر الجامعة ، طريق آلاف الكتب المنبسطة على الرصيف . من هناك كنت آخذ الكتب الممنوعة ، ومن هناك كانت مجموعة كتب الفليسوف المصري عبدالرحمن بدوي غنيمة غير عادية ، تمكنت من شرائها مجتمعة بنصف دولار ، كان مبلغاً تافهاً قياساً لقيمة تلك الكتب . كان بدوي ينقل في تلك الكتب المطبوعة في الأربعينيات ، فكر نيتشه وشوبنهاور وما أطلق عليه «ربيع الفكر اليوناني» وغيرها من أعماله ذات اللغة المتعالية والقيمة الرفيعة .

ظلت الكتب القديمة ذات الورق السميك الأصفر تسلب

عقلي ، وتأخذني إلى ما هو أبعد من موضوع الكتاب ذاته . وما بين تلك الأغلفة السميكة وبواطنها ، عاش غبار قديم . ربما كان قد جاء من المطابع التي طبعت بها الكتب ، حاملاً أصوات آلات الطباعة وأحاديث المطبعجية ، ورائحة الحبر ورصاص الحروف ، غبار عاد ليقودني إلى ناجي من جديد .

***

تركت توفيق في عالمه وعدت وحدي من مسبح المثقفين العراة اللعين ، أخذت سيارة أجرة إلى منزل علي سفر في الدويلعة . كان علي ابناً لثقافة قديمة من ثقافات المشرق ، لم يتخلّ عنها ، بل قام على تزويدها بالمزيد من خلال هدوء داخلي نادر . تشكّلت صداقتي معه عبر السنوات ، وكانت تبدأ من كل مكان لتعود إلى بيت أسرته في ذلك الحي الذي يراه الناس شعبياً وفقيراً ، وأراه حزام الفقر الذهبي لشرق دمشق . في تلك البيوت التي بنيت ذات يوم ، على أكتاف المهاجرين الجدد إلى المدينة ، كنت ترى المسيحي والسني والعلوي والدرزي قادمين من مختلف أنحاء الخريطة السورية ، متجاورين ليس في مساكن منعزلة متكتلة ، بل في اختلافهم ذاته . كان اختلافهم يحميهم ، وكان الإسماعيليون القادمون من سلمية وقلعة الموت وذاكرة الفاطميين في مصياف ، أهم محركي الحدث في ما عرف بالطبالة الكبيرة ، التي كانت الدويلعة جزءاً منها . تم سجن علي قبل سنوات طويلة ، في اعتقالات

رابطة العمل الشيوعي . لكن صغر سنه ، جعلهم يفرجون عنه ، ويحتفظون بشقيقة بسام . كان بسام يتحرك في دويلعة مثل فهد ، ينتقل بين حاراتها الضيقة ، وينقل المنشورات من بيت إلى بيت ، حين كانت الثمانينات عقداً مزدحماً بالعمل السري في كل شأن .

أخذوا بسام أكثر من ست سنوات . وهناك صنعوا له عالماً آخر ، كان مؤمناً بالحرية الشيوعية الحمراء ، ولم يتخل عن يقينه ذاك لحظة واحدة .

فتح علي الباب ، كنتُ غاضباً .

ـ ما بك؟

ـ لا شيء . هموم عادية .

ـ طيب . . تشرب متّه؟

ـ نعم . طبعاً .

تعلّقت بذلك المشروب الأميركي اللاتيني قبل سنوات ، يشبه الشاي الأخضر لكنه يشرب بآلات تشبه الأنابيب . زاد من تعلقي به أنه يعطيني وقتاً طويلاً للتفكير في ما أريد ، وزاد من مكانته عندي صور تشي غيفارا ووليد جنبلاط التي يظهران فيها وهما يشفطان ذلك المشروب مما يعرف بالجوزة . كل شيء في الدويلعة يرد على تعصب النظام السياسي . الناس هنا ترفض التعصب ، وترفض الانصياع للقوانين ، لا تراخيص بناء ولا تراخيص لعدادات الكهرباء أو الماء ، لا كراهية ولا حدود .

كان علي صاحب أول إشارة جادة أعطيت لي من المناخ المحيط . كتب أول مقالٍ عن كتابي الأول «البراري» ، ما زلت أذكر درجة عنايته به . بينما تعامل كثيرون مع الكتاب كما تعاملوا مع غيره ، مجاملات ونفاق وميول حسب المصلحة والعداوات . كتابه الصغير «بلاغة المكان» كان احتفالاً استباقياً بدمشق بطريقته الخاصة . لم يكن مجرد مجموعة شعرية ، لكنه كان رصداً للحارات والزوايا ، هو ذاته الذي كنت أقوم به ذهنياً بالتوازي مع الكتابة ؛ عيش المكان بدلاً من التفكير فيه .

مدينة سلمية التي قدم منها علي إلى دمشق ، كانت جداراً قديماً شكّلته السلطات لصد هجمات البدو . لكنها تحولت مع الوقت إلى مشكلة لتلك السلطات جميعها ، فأهلها الذين يتمتعون بقيم البدو وثقافة المعتزلة ، كانوا أكثر من ثار على الأنظمة التي تعاقبت على سوريا ، فكان منهم محمد الماغوط والإخوة الجندي وآخرون لم يتوقفوا عن التمرّد .

***

المصباح الأحمر الصغير في حمام بيت جدي في القامشلي ، حيث كان خالي «يحمّض» تلك الصور ، ما يزال يضاء في زاوية ما بالقرب منّي حين أنظر إلى صورة بالأبيض والأسود ، كذلك ملمس الكرتون الذي كان يطبع عليه الصور . في دمشق كنت أتخيّل أن هذا الضوء يشتعل تلقائياً عندما يدخل المصور في كم الكاميرا الجوالة في الشوارع ، لذلك كنت

أطلب من مصوري الطرقات تصويري بسبب ومن دون سبب . لا أعرف ما الذي كان يفعله المصور حين يدخل في القماش الغامق فوق الكاميرا ذات القوائم الخشبية الثلاث . كانت تلك اللحظات طويلة جداً ، طويلة إلى درجة أني كنت أريدها ألا تنتهي ، وألا يقول لي المصور تعال وانظر إلى الصورة في الماء في درج الكاميرا .

***

كان قطاً أبيض كبيراً ، لكنني أتذكر أيضاً أنه كان ديكاً رومياً ، ربما كان يتحول ما بين الليل والنهار ، كان قطاً وديكاً رومياً معاً .

***

قوس المحكمة العسكرية في دمشق ، جو حار ، وعساكر فارون ، ومتطوعون وزوجات يجرجرن أزواجهن من الضباط والجنود إلى قاعات القضاء العسكري ، رائحة تعرّق وأنفاس وعطور رخيصة .

وسط هذا كلّه ، يسألني القاضي العسكري الأول : لماذا استندتَ في كتابك إلى ابن اسحق وليس إلى الطبري؟

***

كان القط يجلس على عرشه العالي ، فوق الجدار الفاصل بين بيتي جدي ، مدلياً ذيله الغليظ ، ولكنه حين كان يتحول إلى ديك ، كان يذرع الحوش الكبير ، ثم يختار غرفة خالي ماداً

رقبته الطويلة عبر الباب أولا ، متلفتا يمينا ويسارا كي يتأكد من أن الغرفة خالية له ، يخطو برجليه القويتين ، ويتجه مسرعا قافزا فوق طاولة وضعت عليها مرآة كبيرة ، ليبدأ بتأمل ذاته . تمر الدقائق والساعات والديك غارق في صورته ، يسأل نفسه ألف مرة : من هو؟ وكيف خلقه الله على هذه الصورة الفريدة ، لا طاووس ولا دجاجة؟ كانت علاقة ديك الحبش مع المرآة علاقة يومية خاصة . وذات يوم وجد الديك باب البيت مفتوحا ، فتملكه الفضول وخرج ليرى ماذا يوجد في العالم الخارجي ، لكن لصا مرّ من حارتنا ، فسارع إلى حمل الديك والركض به إلى البعيد ، وفُقد الأمل في العثور على الديك ، ومرت الأيام والأسابيع ، حتى رأى جدي رجلا في السوق ينادي على ديك حبش يريد بيعه ، نظر إلى الديك فعرفه على الفور . لم يكن للديك قيمة في نظره ، إلا أنه لم يقبل أن يغلبه أحدٌ على شيء له مهما كان . أمسك برقبة اللص الذي أنكر الأمر تماماً . جاء الناس ليحكموا في الخلاف ، فقال جدي إن هذا الديك سيعرف بيتنا ، ويمكنه أن يخبرهم سلفا بما سيفعله بعد أن يدخل البيت . ذهب الجميع إلى الحارة ، وتركوا الديك وحده ، فسارع إلى باب البيت ، وعاد إلى مشيته الملكية ، ثم دخل غرفة خالي وصعد إلى مرآته ليتأمل ذاته كما اعتاد .

***

نص من 84 صفحة . كان القاضي يقلّبه أمامي ، حالة من أعجب حالات المخابرات السورية وأكثرها غرابة . نص ينتقدني أدبياً وفكرياً ويحلل كتبي ومقالاتي ، ليخلص إلى اتهامي بأني «ضد الدولة وضد النظام وضد رئيس الجمهورية ، وأني أثير النعرات الطائفية وأتآمر مع العدو ، وأنه يجب إنزال أشد العقوبات والسجن بالمدعو إبراهيم الجبين» .

لماذا القضاء العسكري؟ لأنه هو المعني بالجرائم التي تطال هيبة الدولة ومؤسسات الحكم . من المدّعي . شخص لا أعرفه ، قال إنه وجد هذه المعلومات عني على الانترنت ، وإنه غيور على وطنه ، أسوة بأبناء منطقته «القرداحة» . وحين يستدعيه القاضي يقول إنه لا يعرف شيئاً عن تلك الدعوى ، وإن أحدهم كان قد سرق بطاقته الشخصية وقدّم الادعاء باسمه دون علمه . لكن القانون هو القانون . القضاء قد يتجاوز عن حق المدعي الشخصي ، غير أن هناك حقاً عاماً ، وقد اعتبر القضاء أن مجرد ورود تلك الأوراق الأربع والثمانين إلى بريد المحكمة العسكرية رسمياً ، هو تبليغ ملزم لجميع القضاة بالنظر في القضية بمنتهى الجدية ، وعدم إهمالها ، لأن إهمالها سيعتبر تستراً على شخص متآمر طائفي يدعو إلى التطبيع مع إسرائيل ، أي أنا . شيء يشبه الخيال ، أن يناقش القضاء العسكري مقالات تتحدث عن بني أمية والتاريخ ، ورواية أدبية تدور في حارات اليهود في دمشق ، وكتاباً في علم اللغة

وعلاقتها بالسلطات . لكن هذا ما حدث على مدار ثلاث سنوات ونصف السنة .

كان القاضي العسكري الأول بدمشق ، قد اتخذ إجراءاته كاملة ، وأرسل دورية مسلحة إلى مبنى اتحاد الكتاب في المزة ، بخوذاتهم الحمر ، لإلقاء القبض عليّ ، لكنني لا أعمل هناك ، ولم يكن لديه في تلك اللحظة سوى هذه المعلومة ، أنه يمكن لاتحاد الكتاب أن يدلّ المحكمة على ذلك الخائن .

من بإمكانه كتابة مثل هذه الصفحات؟ هذه ليست تقريراً أمنياً عادياً ، تتطلب شخصاً عارفاً بالكتب والتاريخ ، تتطلب مجرماً مثقفاً ، يتقن البحث في ما لا يمكن للقضاء في دولة المخابرات والرعب أن يتجاهله .

***

اقتربت من البوابة التي تفصل المتحف الحربي عن سوق الحرف اليدوية ، كانت الطريق تسبح بالمياه التي تفيض من سقاية شجيرات التكية . حين رآني ناجي ، نهض وعانقني ، ليبشرني بخبر غير عادي . فعلى الرغم من سنه التي كانت قد اقتربت من المئة ، إلا أنه كان يفخر بأنه أنجب طفلاً من زوجته الجديدة . تعلقت روحه بالطفل ، وصار موضوعه الأوحد طيلة الوقت ، وبدا أن تغيرات كثيرة طرأت على شخصيته . صار حيوياً ومتفائلاً وكثير الابتسام .

***

ديك الحبش ينقر المرآة، والقط يمسح ظهره بخاصرتي.
كنت صغيراً بحيث كان بوسعي امتطاء ظهر القط الأبيض.

***

يسألني القاضي: كيف تقول «لا فاعل إلا الله»؟ هل تسخر من الذات الإلهية؟

- لست أنا من قال هذا.

- من إذاً؟ هذا في كتابك.

- في كتابي. لكن من قاله هو ابن مضاء القرطبي. في كتابه «الرد على النحاة»، وأنا كنت أنتقده. كان يكفّر كل من يشتغل بالنحو، ولذلك قال «لا فاعل إلا الله».

- لم أفهم. هل تحاول التذاكي علي؟ من ابن مضاء هذا؟

- هذا كان قاضياً مثلك يا سيادة القاضي في دولة الموحدين.

كان القاضي العسكري يحكّ رأسه، ويزيد من عبوس وجهه وتقطيب حاجبيه، وينظر إليّ بازدراء مقلباً في ما بين يديه من أوراق.

***

فريدريك وسيلفي كانتا سحاقيتين، لكننا لم نكن معتادين على هذه العلاقات في ذلك الوقت. أما توكو فقد كانت يابانية. كلهن حضرن للدراسة في الشام أيضاً. كان ينقص ملامح العابرين في المدينة، ملامح آسيوية. لكنها

ستتجاور مع ملامح صديقي الأوزبكي الدمشقي في الحانة القديمة في شارع العابد . صديقي الأوزبكي برهان بخاري يعتقد أنه امتداد حقيقي وحتمي لعمر الخيام ، لذلك كان ينظر إلى نفسه كعالم وسكّير في الوقت ذاته ، عالم إسلامي ، وعالم عرفاني مخمور بالماضي والمستقبل ، وكنت أدوّن في ذاكرتي أحاديث برهان معي ومع الآخرين . كان قد عمل صبياً في محل «حمصاني» في طفولته ، لكنه غادر المصلحة إلى العلوم والمعرفة ، ولم تمت تلك المهارة في دمه ، فكان يطلب من النادل دوماً وفي أيّ مكان يجلس فيه ، عدّة «المسبّحة» ليقوم بتحضيرها مع الثوم والزيت والحمص ، أثناء مناقشته لروايات هيرمان هيسه ، والتراث العالمي الذي كان يصبّ في دمشق دون جدال ، وحين كنا نخرج من هذه الزاوية إلى تلك ، كان يصف لي دمشق . ليست دمشق هذه ، لكن تلك التي رآها في طفولته . يتصوف أحياناً ويبدأ بالحديث عن مبانٍ حديثة ، كان يوجد في موضعها قبل أن ترتفع ، بيوت لأمراء وسلاطين أيوبيين ومماليك . لا يمكن أن يكون قد شاهد هذا ، في عقوده المعدودة ، فهو ليس ابن مئة عام ، ولا مئتي عام ، وفي بداية التسعينات كان فقط يخطو في عقده الخامس ، لكنه بقي هكذا حتى مات .

***

أكاد أختنق من هذا الحبس الذي وضعوني فيه . هل هذا أنا أم شخص آخر؟ هل هذا أنا الذي كنت أثير رعب الملايين؟ أم أني مجرد جسد ضعيف رقّت عظامه وتهالكت شرايينه؟

***

أحضر لي إسماعيل ، جاري في حي الديوانية ، رواية ممنوعة . كان بائع كتب يفرش بضاعته على رصيف حي الحلبوني . والرواية كانت كتاباً غلافه أزرق ، كتب عليه «مدار الجدي» ، رواية هنري ميللر ، مترجمة إلى العربية ، لكن إسماعيل كان يغلفها بغلاف ورقي آخر يخفي غلافها الأصلي . قرأت مدار الجدي وأعمال هنري ميللر مبكراً . غيّر في عقلي الكثير . ولم أزل أتخيّله مع شخوصه وفي عوالمه ، ما بين باريس وبيغ سور وكليشي ، وكأني قرأتها للتو أو صباح هذا اليوم . كنت أفكّر في نقل اللغة ، من لغة ميللر إلى العربية . كيف أمكن للمترجم أسامة منزلجي أن يمضي بلا رقيب لغوي ليحوّل مفردات منفلتة من كل ضوابط متخيلة ، إلى لغة الشارع في العالم العربي؟ وهل كان هذا الخيار هو الوحيد أمامه؟ هل كان عليه أن يؤدب تلك اللغة؟ حتماً لا . كان يجب أن يترجمها كما هي ، ولتحدث هي لاحقاً التغيير الذي تودّ أن تحدثه .

***

لم يكن ما يدور ، صراع أجيال فكرية ، كان تجاور ثقافات ،

ولم تكن تلك الثقافات ترغب في أن تتناحر ، لذلك مضت جنباً إلى جنب في دمشق ، دون أن تحدث التغيير ، وكان لا بد من شرارة تنفجر بين تلك الأنماط . لكن حملة الأنماط لم يريدوا هذا ، كان شيء ما يمنعهم ، ويجبرهم على التخالط .

***

تجددت تلك الأحاديث السرية ما بيني وبين ناجي ، وعاد يسرّب لي المزيد مما احتوته الوثائق التي حصل عليها من الشعبة الثانية . ليس هذا فقط ، بل ما نشأ عن تلك المعلومات المدونة في أوراق المخابرات السورية ، خلال العقود التي تلت .

ـ ألا ترغب برؤية جورج؟

ـ أي جورج تقصد؟

ـ هذا شخص مهم . صاحبنا ، تعرفنا عليه حين وصل إلى دمشق ، وكلفونا بإعداد تقرير تفصيلي عن التحقيق معه .

ـ وصل من أين؟

ـ المهم أنه وصل ، وعرفناه ، لم يتمكن من خداعنا .

***

ذهبت بنفسي إلى قاضي التحقيق العسكري . كان برتبة رائد ، يرتدي لباسه العسكري الكامل . نظر إليّ باستغراب ، وبدأ حديثه :

ـ لدينا هذه الإضبارة . هذا الملف . سمّها ما تشاء ، ولدي سؤال وحيد .

ـ تفضل .

ـ هل أنت من كتب هذه الكتب وهذه المقالات الخمس المرفقة بالملف؟

ـ سأجيبك .

ـ قبل أن تجيبني . إذا قلت نعم ، فسأوجّه لك خمس تهم ؛ إثارة النعرات الطائفية ، إهانة مؤسسات الدولة ، إهانة وشتم وتحقير رئيس الجمهورية ، النيل من هيبة الدولة ، الدعوة إلى التعامل مع العدو الإسرائيلي . لكن إذا قلت لا ، فسأضطر إلى توقيفك في السجن ريثما ينتهي التحقيق ، وقد يستغرق وقتاً طويلاً .

ـ كنت سأقول : نعم . هذه مقالاتي وكتبي .

ـ حسناً . هذا جوابك . إذاً . وقّع هنا . هذه هي التهم . وهي حتى الآن ادعاء النيابة العسكرية ، ولم تثبت بعد ، وأرجو ألا تخبرني بالمزيد .

كان متحفظاً جداً . كلماته التي قالها لي كانت محدودة للغاية . نهض وصافحني وانتهى الأمر . قال إن التبليغ لحضور الجلسات سيصلني إلى عنواني الذي اخترته ، بعد أن زودته بعنوان بيتي في البرامكة .

بعد سنوات ، سيقول لي الرائد حسن عبيد ، الذي أصبح أحد قادة الجيش السوري الحر الذي ثار ضدّ بشار الأسد ، إنه كان يحقق معي في تلك اللحظة ولم يكن يستطيع التفوه

بكلمة ، لا زيادة ولا نقصان . كان يريد أن يبعد عني الفخ الذي نصب لي . لكنه لم يكن يعرفني حينها ، حتى إنه لم يكن يثق بي . كان واثقاً من أن النظام الذي هو جزء منه ، نظام شيطاني إجرامي ، فتصرف بارتجال وشجاعة . وبناء على ما قلته ، تمكّن من جعلهم يحاكمونني طليقاً لا معتقلاً . كان هذا ما يقدر عليه هو ، أما أنا فلم أكن أعرف ما الذي يدور من حولي .

***

علي يعيش في دمشق بلا تخلٍ عن لهجته . لكن لهجته لم تكن لهجة عنف ، كانت لهجة البصمة . كان شيء ما يجعل من رائحة تراب سلمية حاضراً دوماً في النبرة والكلمات واليد التي ترتب الكتب في المكتبة ، كما لو أنها مجوهرات صائغ .

***

أثار ناجي اهتمامي من جديد بشخوصه التي تطلّ برؤوسها كشياطين مقيّدة مع ربطات الورق القديم . هذه المرة عرض علي رؤية أحد تلك الكائنات . لم يعد الحديث عن زمن قديم مضى ، بل عن هذه اللحظة . لم يطل صبري ، بينما طلب لنا ناجي كأسين من الشاي الداكن المخمّر من دكّان جاره . وقبل أن ألحّ بالسؤال ، دون أن أنفّره من الإجابة ؛ من هو جورج الذي تتحدث عنه؟ كان قد بدأ يتكلم :

ـ بلغونا عن انفجار في البريد المركزي ، فهرعنا إلى المكان ؛ ليتضح أن الرجل الذي أرسل الطرد باسمه ، كان قد فقد عيناً من عينيه ، بعد أن انفجر الطرد بين يديه ، فنقلوه على الفور إلى مشفى المواساة في المزة . ذهبنا إلى هناك ، وحققنا معه ، وكان من طرف النيابة المحامي العجوز هيثم المالح تعرفه .

ـ نعم أعرفه . لكن لماذا انفجر الطرد؟

ـ كان معدّاً لينفجر في يد من يحاول فتحه . طرود كثيرة مثل هذه كما تعلم ، قتلت سياسيين ومفكرين وشخصيات مطلوبة من جهات عديدة .

ـ هل كان مطلوباً لجهة ما؟

ـ نعم ، كان مطلوباً للموساد ، وكان القرار قد اتخذ في تل أبيب لتصفيته ، طالما لم يكن من الممكن القبض عليه .

ـ هل كان مناضلاً فلسطينياً ، مثل جورج حبش؟

ـ لا . كان بريئاً من هذه التهمة . كان جورج ضابطاً ألمانياً نمساوياً نازياً .

***

شبحٌ حيٌ عرفته المدينة في تلك الأعوام . عرفه الجميع ، جلسوا معه وانفجر فيهم وحدثهم واستعرض عليهم . كان بالنسبة إليّ حالة مختلفة ، كان شبحاً غير موجود فيزيائياً . في سنتي الأولى في دمشق ، جاء إلى طاولتي في اللاتيرنا . كنت غاضباً ، كالعادة . قال إن هذه الروح النارية التي أظهر بها ، كما

رآها هو ، جميلة جداً إذا بدرت من عجوز مثله ، يتقبلها الناس . لكن إن كانت من أخلاق فتى صغير مثلي ، فإنها ستعتبر إعلان حرب على الآخرين . تابع مصطفى الحلاج ولحيته تتحرك مع فمه وحنجرته : بس طوّلْ بالك ، لا تتغيرْ ، ابق كما أنت . هم سيتغيرون مع الزمن ، كان الحلاج رساماً غير عادي ، كانت فلسطين ومصر والشام تنصهر في وجهه ، بغيض في غالب الأحيان ، عصبي في وجه من يحتقرهم ، ثقافته رفيعة ، وخياله أوسع من الخيال . كان جزءاً من المدينة ، وتفصيلاً من ذاكرتي . سجائره ذات الرائحة الكريهة ، وصوته المتحشرج ، ونظارته السميكة ، كانت كلها تنظر في قلب ساحة الميسات ، حيث مرسمه . ثم تنظر من جديد في أزقة العفيف ، حيث بيته . كان أعلى من الآخرين ، لكنه كان يتسلى بهم ، ويبعدهم عنه في اللحظة التي يشعر بها أنه قد اكتفى منهم ، وأنه لم يعد قادراً على تحمل المزيد من غبائهم .

***

«يتعدى المكان والزمان ، كانت له الخوالي من الحارات ، ويترك إذ يستذكرُ كُلَّ الحقول التي أمستْ ظلالاً للبيوتْ . منذ التقاطع حسمَ بالعينين الامتداد ، جرى صوب الغوطة وعند الجامع ركعَ» .

قرأت هذه الكلمات التي تصف المكان . كان علي يكتبها في التدوين الحيّ لما حوله ، في الدويلعة ، وفي حارات الشام ،

بينما كانت المدينة تتتفاور بالقادمين من كل مكان ، كلٌ منهم يحمل معه أنين موتاه الأولين ، الذين تركهم في المكان الذي جاء منه إلى دمشق . نادرون من كنت أراهم يكبرون معي ، أراقب وهم يتحدثون أمامي ، عدد الشعرات البيض التي نمت في جباههم أو سوالفهم . لطالما ادّعيت أنني أكبر سناً من عمري الحقيقي . كنت أخجل من عمري الذي تصوّرت أنه لم يتح لي متسعاً لتجارب غنية ، لكن هذا ، كان مبكراً للغاية ، وحين رميت نفسي في التجربة وراء التجربة ، صارت تنقصني أعمارٌ عديدة ، لأشبع من العيش . تحوّل العيش إلى وسواس آخر ، لذلك لم أعش ، وربما لم أعش بعد .

***

إخاد اليهودي ليس وهماً . أصلاً لم أحتج لمثل هذا الإنكار يوماً ما ، لكنني أقوله كي ألوّح به ، كي أثير به انتباه من يعتقد أن الأشياء حقيقية وذاك الذي يراها مجرد أوهام .

***

أي أنواع الشياطين لم تجذبها دمشق إليها بعد؟ ضابط نازي في بداية الستينيات ، بعد انهيار الرايخ الثالث بسنوات؟ قال ناجي إنه تذكر جورج قبل فترة حين كان يبحث عن وثائق خاصة به هو ، من أجل تسجيل المولود الجديد ، فعثر على محضر تحقيق من تلك التحقيقات التي أجريت مع جورج .

ـ جورج لم يكنْ اسمه جورج . كان هذا اسمه المستعار .

الاسم الذي جاء به إلى دمشق ليعيش فيها حتى هذه اللحظة .

ـ وماذا كان اسمه الحقيقي؟

ـ ألويس برونر .

ـ برونر من؟

ـ شخص عادي صار شخصاً مهماً جداً ثم عاد وأصبح رجلاً مهملاً من جديد ، بعد أن كان بين يدي ، رجلاً محطّماً ، بين الحياة والموت في تلك الليلة في مشفى المواساة بالمزة .

***

قال لي الحلاج حين رآني قادماً بزي غريب : دعنا نذهب اليوم إلى الغوطة . كنت قد اشتريت من صديق تونسي معطفه التقليدي المنسوج من وبر الجمال . لونه بين الأغبر والأحمر والأزرق . كانت قبعته تجعلني قادراً على إخفاء ملامحي ، نصف وجهي الأعلى على أقل تقدير . تبقى اللحية والقامة ، كانتا كافيتين لإثارة الراقصات الغجريات . رقصنا أنا والحلاج ، هو رقص رقصة أنتوني كوين في فيلم زوربا ، وأنا كنت شخصاً آخر ، بالمعطف الوبري . لم يتعرف أحدٌ إليّ . كان مشهداً من السينما . ليل بأكمله تقضيه متنكراً بثياب رجل آخر ، لتفعل أشياء أخرى لا تفعلها عادة ، تطلق جسدك للموسيقى التي لا تفهمها ، وتترك للمشاهدين أن يسرحوا بعقولهم ، كان الحلاج يدرك هذا . قال لي : أنت أعطيتهم ما ينقصهم ، الإثارة

والدهشة . عالمهم فقير ، وإن كانت تتبعثر في أنحائه المتعة والأموال .

***

حتى يبرهن لي على مصداقية قصته ، زودني ناجي بعنوان بيت الألماني ألويس برونر . كتب على قصاصة مثلثة اقتطعها من زاوية إحدى لوحاته الكرتونية ، «شارع جورج حداد ـ دمشق ـ الدكتور جورج فيشر هاتف 332699» إضافة إلى كلمات توضيحية أخرى . قال إن برونر اعتاد أن يشرب القهوة وحده في مقهى «المشيرية» بشكل يومي . لم أكن أحتاج إلى التفكير في الأمر . قرأت سابقاً عن برونر ، وعن دوره في سفك دماء الآلاف في عهد هتلر ، وعرفت القليل عن حياته في دمشق ، وتخيلته وهو يمسح بيديه غبار الزمن عن قطعة معدنية حافظ عليها سنوات طويلة ، كان صليبه النازي المعقوف الأسود منقوشاً على ميدالية من البرونز تحيط به الدائرة البيضاء وسط الدم الأحمر ، يستحضر عمله كمساعد لأدولف آيخمان ، متخوفاً من أن يلاقي مصيره ، بعد أن اصطاد الإسرائيليون آيخمان في الأرجنتين ، التي عاش فيها متنكراً يحمل اسم ريكاردو كليمانت . نقله رفائيل إيتان من بوينس آيرس إلى إسرائيل ، لتجري محاكمته هناك ، ثم شنقه وحرق جثته ونثر رماده في البحر المتوسط ، لكن ذلك كلّه كان يجري استقباله في ذهني ، على أنه خلط بين الخيال والواقع ، لذلك لم أكن

أصدّق معظم ما أقرأه عنه ، خاصة حين يجري تصويره في حوار نادر أجري معه وهو يلوّح بكبسولة الزرنيخ ، السم النازي القاتل الذي اشتهر أعضاء الحزب بوضعه بين أسنانهم قبل أن يتم القبض عليهم . كان يكفي أن يضغط النازي على تلك الكبسولة بين ضرسين من أضراسه ، لتنفجر ، ويندفع منها الزرنيخ الذي سيتكفل بقتله على الفور ، قبل أن تجري إهانته أو تعذيبه أو سحب الاعترافات منه ، أو حتى تنفيذ حكم الإعدام به .

***

الأشخاص هم المدن . لا ، المدن هي الأشخاص . ربما لا هذا ولا ذاك . الأشخاص صور المدن ، آلاف وملايين الصور المزيفة للنسخة الأصلية الواحدة .

***

قال ناجي إن إلياهو كوهين بقي أكثر من سنة ، بعد وصوله إلى دمشق ، وهو يبحث عن برونر ، وكان برونر يخطط لإقامة علاقة وثيقة مع الضباط البعثيين الشباب الذين يقتربون من الاستيلاء على كرسي الحكم في دمشق ، لكن كوهين كان يرسم لهم سيناريو آخر . وبعد انقلاب الثامن من مارس في العام 1963 ، اعتقد اليهودي الشرقي أنه هو المنتصر . لكن الذئب النازي ، كان يبتسم حينها في مخبئه في دمشق ، فقد كان قد اطمأن إلى مستقبل أفكاره التي حملها معه طيلة

رحلته الشاقة والخطيرة من برلين إلى دمشق ، عين الشرق .

***

صوت إزرا باوند النبوي على اليوتيوب . قصيدة «الملاح» التي ترجمها خالي صبحي ، تأتي من عميق المعرفة بالذات . «هل لي بغية الحقيقة في ما أغني ، أن أتلو رطانة الرحلة . وكيف أنني في أيام المشقة تحمّلت مراراً . سكنتُ إلى مقامات الأسى المريرة ، وجيشان البحر الرهيب ، وكيف قضيتُ هناك ، ليالي الحراسة المضنية قرب رأس السفينة ، وهي تغوص نحو الجرف» .

***

مكعّب الهويات

وضعت على الطاولة الكبيرة أمامي ، ثلاثة عناصر ؛ كأس النبيذ ، والقلم والمفتاح الكبير للمكان الذي كنا فيه أنا وإخاد . قلت : هذا إبراهيم باشا ، وهذا القلم يمثل الدروز ، أما المفتاح فهو العثمانيون الأتراك ، انظر ماذا حصل ؛ فرض إبراهيم باشا على دروز حوران الخدمة في الجيش ، بعد أن كان قد أعفاهم منها ، فأعلنوا الثورة ضده . لكن القرار المصري كان حاسماً بالقضاء على ثورة دروز حوران ، فتم إرسال عشرات الآلاف ، وخلال تسعة أشهر تم إخماد تلك الثورة ، وظهرت في تلك الأيام ، امرأة أجنبية غير عادية ، دلّتني عليها أوراق عالم الاجتماع العراقي علي الوردي ، الذي رصدها لأسباب بالغة الذكاء في كتاباته . كتب الوردي من تحت قبعته الفيصلية أن تلك المرأة كانت «امرأة بريطانية . وكان لها دور لا يستهان به في إثارة الشاميين على الحكم المصري . هي الليدي هستر ستانهوب» .

***

لم يمت مظفر النواب في ذلك الفجر الدمشقي ، لكنه كان قد بدأ طريق الباركنسون الذي يعيش فيه حتى لحظة كتابتي

لهذه الكلمات . بعد أيام عدنا لمناقشة كتاب أدونيس عن محمد بن عبدالوهاب في مطعم القصبجي في حي التجارة في دمشق . لم يكن أدونيس بطل اللعبة ، فقد كان الأهم هو التفكير في اللحظة التي صعدت فيها الوهابية ، وتأثيرها على دمشق .

***

ستانهوب ، كما يروي الوردي ، كانت قد أصيبت بخيبة في الحب ، فآثرت السفر إلى الشرق الأوسط ، فوصلت إلى إسطنبول ثم انتقلت منها إلى القاهرة واستقبلها العرب وكأنها ملكة ، وفي العام 1813 استقرت في لبنان وشيدت لنفسها قصراً يشبه القلعة فوق دير مهجور في قرية جون ، وعُرف قصرها بين الأهالي باسم دار الست ، ثم لم تلبث أن اتخذت زي النساء المحلي ، وبعد قليل لبست عمامة ومداساً برأس منعكف ، وصارت تدخن النرجيلة ، وتحمل السوط والخنجر ، وشرعت تدرس اللغة العربية وولعت بعلم النجوم والخيمياء ، وأحاطت نفسها بحرس من الألبان وحاشية من الزنوج وفرضت عليهم أن يسلكوا معها حسب قواعد التشريفات الملكية ، واستطاعت أن تكون ذات نفوذ وسلطة كبيرة جدا بين سكان المناطق المجاورة ، ولا سيما الدروز منهم ، فكانوا يحترمونها ويطيعون أمرها الى درجة تبعث على الدهشة . في البداية رحب بها الأمير بشير ، إلا أن تدخلها المستمر في شؤون الدروز

وإيواءها لمئات من اللاجئين من المناحرات بين زعمائهم ، جعله ينأى عنها . وعندما احتل إبراهيم باشا الشام ، أدرك ما لها من نفوذ ، وطلب منها أن تقف على الحياد ، ولكن الحياد لم يكن من شيمتها فصارت من أشد الناس طعناً في الحكم المصري . وقال علي الوردي إن إبراهيم باشا لم يسترح من تلك المرأة إلا عندما ماتت .

لكن العثمانيين تمكنوا في العام التالي من إراحة بلاد الشام من إبراهيم باشا نفسه وجيشه المصري ، الذي خرج من سوريا ، مخلفاً وراءه عدداً كبيراً من الجنود الذين فضلوا البقاء وعدم الالتحاق بقيادتهم ، وكان من بينهم الكثير من العبيد سمر البشرة وأعراق وأجناس مختلفة استوطنت سوريا ، حتى إن لهجاتهم بقيت حتى اليوم قريبة من اللهجة المصرية .

***

كان برونر يخرج من بيته في تمام الثامنة صباحاً . يمشي بضعة أمتار قرب سياج الورد المحاذي لبيته ، ثم ينعطف نحو الشارع الرئيسي ؛ ليشير بيديه إلى سيارة مايباخ ألمانية أربعينية الطراز ، كانت تنتظره كل يوم في الموعد نفسه . وجهه المشوّه وشاربه الذي يعلو فمه الكبير ذي الشفتين المنتفختين ، كان يجعله يبدو يونانياً ، أو تركياً . لم يكن يشبه الألمان ، لكن مشيته كانت تفضح مهنته القديمة ، الجسد المنضبط رغم الشيخوخة ، مع حركات القدمين الإيقاعية على الأرض ، كأنما

كانت قدماه تتشبثان بالطريق في كل خطوة ، كي لا يميل يميناً أو يساراً . كانت مشية قاتل ، ولم تكن مجرد خطوات لرجل عجوز .

***

سكان دير الزور ودمشق ، يتحدرون من جغرافيات لا عدّ لها ولا حصر ، مدن وقرى وأعراق وقبائل تضخ أنسالها في المدينتين . جدّي علي أغا كان قادماً من الرقة من أبناء الغانم الظاهر شيوخ قبيلة زبيد التي سكنت الفرات الأعلى قبل قرون ، واستقر أخيراً في دير الزور ليعمل حفيده حسين في المحكمة مع الشيخ محمد سعيد العرفي ، قبل أن يصبح قاضياً شرعياً في المدينة الجديدة التي أنشأها الأتراك ، بدايات القرن العشرين . كانت تلك هي المدينة الجديدة على الطريق ما بين لواء دير الزور وديار بكر ، وكانوا قد اختاروا لها اسم الحسكة باشتقاق من اسم قديم . عمامته وجبته اللتان تظهران في صوره التي أعلقها على حائط بيتي أينما رحلت ، توحيان بأنه من الطبقة التي أرادت أن تتعلم في عهد مظلم محدود الإمكانات ، كاسر كان ممن يسمونهم بالخرشان ، وهي عشيرة تعود إلى بني صخر أحد فروع قبيلة طيء الشهيرة في الجزيرة العربية ، وأكثر البلدان التي تنتشر فيها هو الأردن ، غير أن الأردن كان معبر القبائل النجدية إلى بلاد الشام ، ومعبر القبائل العربية الشامية إلى الجنوب أيضاً . مظفر كان مختلفاً عن هذا التكوين . تقول

وثائق عائلته إن جدها الذي يعود إلى نسل الأئمة الاثني عشر كان قد هرب من الاضطهاد نحو الشرق . وهناك حيث الهند ، عرفوا مكانته ، فقاموا بتنصيبه «نواباً» عليهم ، أي والياً أو حاكماً ، ومن هنا جاء اسم العائلة التي قرر أحفادها العودة من الهند والسكن في أحد شوارع بغداد ، حيث سيحمل الشارع الاسم ذاته «شريعة النواب» . غير أن الملامح المختلطة بين العربي والهندي بقيت تقول الكثير على وجه مظفر وإخوته .

أما ناصر فتعود أسرته إلى فرعين ؛ أمه حفيدة الذي يسمونه حتى اليوم بـ«سبع البصيرة» أي الشيخ عيسى ، الصوفي ذي الكرامات الشهيرة وذي المكانة المقدرة ، لذلك كان نساء دير الزور يطلقن على أم ناصر لقب «السيدة» أي حفيدة «السيد» الولي . أما والده فيعود إلى عشيرة القلعيين ، الذين ينتسبون إلى قلعة الرحبة ، حيث سكن التغالبة من ربيعة .

لطالما استهوتني خرائط النسب ، كما شدّتني شواهد القبور ، كما هو حال الوثائق القديمة ، صور تفصيلية لحركة المجتمعات ، كل تغيير فيها يعكس تغييراً سياسياً أو سكانياً ، مجزرة هنا ، أو حرب هناك ، أو موجة تجارية تضرب منطقة أو مجاعة تعصف بأخرى . وحتى العام 1837 كانت تلوح أضواء خفيفة من بلدة قديمة ووحيدة على مجرى نهر الفرات ، اسمها دير الزور ، بينما كانت قد تشكلت من حولها بادية مستمرة التغير ، بفعل هجرات القبائل القادمة من نجد والعراق . كان

هؤلاء يتعاقدون في أحلاف ويتجاورون في السكن، مشكلين تهديداً للتجارة على طول النهر القادم من الشمال إلى الجنوب الشرقي، حيث سيلتقي مع نهر دجلة في العراق، وفي الفضاء الذي صار مسرحاً لداعش فيما بعد. كانت دير الزور هي الحلقة الوحيدة التي تربط ما بين حلب وبغداد، فبنى الأتراك مدينة جديدة قرب موقع الدير العتيق الذي كان يسمى لاقا في عهد الأموريين، وأزوروا زمنَ الرومان.

أخذ المهاجرون يقدمون إلى المدينة الصغيرة من كل اتجاه، وفي الوقت ذاته قامت السلطنة بتوزيع الأراضي على البدو النجديين على امتداد الفرات خارج المدينة، لتضمن استقرارهم وتخليهم عن الغزو وانصرافهم إلى الزراعة. ومع مرور الزمن، توسعت المدينة على ضفتي نهر الفرات، وصارت متصرفية عثمانية تركية تحكم مباشرة من الأستانة، حينها كان في بلاد الشام ثلاث متصرفيات فقط؛ القدس وجبل لبنان ودير الزور. تلك المدينة الصغيرة التي يغمرها الغبار، كانت تحكم كلاً من الرقة والحسكة وتدمر والموصل وعانة، التي قدم منها جد سمير.

كثيراً ما وصف الناس خالي صبحي بأنه متعجرف ومتعالٍ، وكان هذا صحيحاً، لكنه لا يعود فقط إلى ثقافته الرفيعة. بل إلى جذور عائلته التي ألفت التعاطي مع الأشياء والأشخاص بهذه الصورة، فقد كان جدي لأمي موسى الحاج

الحديدي هو الحاكم العسكري لتلك المدينة ، دير الزور .

ما يزال سكان المدينة ، يتغنون بمكان فيها يدعى «هرزة موسى الحاج» وهو موضع أنشأه موسى الحاج في العام 1850 لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال جسر خشبي يدخل إلى عمق عشرة أمتار داخل نهر الفرات ؛ ليجلس جدي فيه ويحكم في شؤون الناس ، وقد وصفه الشاعر العراقي حسن التكريتي في قصائده حين زار دير الزور في تلك السنة فقال «على هرزة أبو عاشج يسبحان/ اكذلن سود والحاجب يسبحان/ ريام الدير هالوردن وسبحان/ ومنهن ما تهيا لي حدا» . كان موسى الحاج الذي لقب بـ«أبو عاشق» هو الحاكم العسكري للمنطقة الواقعة من عانة العراقية إلى جرابلس شمالاً على الحدود التركية السورية اليوم ، وكان نسبه إلى قبيلة نعيم المقدّرة كفيلاً بدعم احترام الأهالي له ، علاوة على شخصيته التي مكنته من قيادة المنطقة آنذاك بفضل التفويض الممنوح له من قبل السلطان شخصياً والذي كان يدعى «بوردي» . غير أن اللوحة السكانية في بلاد الشام ، والتي كانت تتحوّل باستمرار مثل شاشة سينمائية ، كانت تشهد في تلك الأيام من القرن التاسع عشر ، قادمين جدداً أرادوا تغيير الذهنية جذرياً ؛ إذ لم يأت العام 1860 حتى كانت الوهابية قد وصلت إلى دمشق ، بعد أن قويت شوكتها في الجزيرة العربية وصحراء نجد . وبالرغم من تمكن التيارات الصوفية والطرق وشيوخها من نظم المجتمع الدمشقي في

عقود منضبطة ، إلا أن الفكر ينتشر بصور لا يمكن توقعها .

مات مؤسس تلك الحركة ، محمد بن عبدالوهاب ، في مطلع تسعينات القرن الثامن عشر ، إلا أن أتباعه واصلوا عملهم من أجل بسط سيطرتهم على البلاد ، وفق عقيدة الفتح ، فأثناء صلاة العصر في يوم من أيام العام 1803 تقدم كردي شيعي من الموصل ، صفوف المصلين في مسجد الدرعية ، وطعن أمير السعوديين عبدالعزيز بن محمد ، انتقاماً منه بعد أن هدم الأَضرحة في كربلاء الشيعية قبل سنتين ، لكن ابنه سعود خلفه في حكم الجزيرة العربية ، وفي مواصلة نشر فكر محمد بن عبدالوهاب . وبعد خمس سنين فقط ، طالب الأمير سعود رجال الدين في دمشق وحلب باعتناق الوهابية ، لكنهم لم يوافقوا على ترك مذاهبهم ، فقرر شن حرب بدأها من جنوب سوريا ، حتى حاصرت قواته دمشق خلال عامين ، بعد أن سيطر على مناطق واسعة من قبل ، سواء في نجد أو العراق أو الحجاز ، وحتى حمص وحلب .

كان الوهابيون يعتقدون أنه يجب عليهم إعادة فكر ابن تيمية إلى منبعه في دمشق . جاؤوا لنصرته والدفاع عنه ، لكن فكر ابن تيمية كان قد تغيّر كثيراً قبل أن يصل إليهم ، وما وجدوه بين أيديهم إنما كان نسخة ناقصة من فلسفته الواسعة .

***

إنه الخلط من جديد ، خلط التركيبة السكانية للمشرق ،

الذي لم يتوقف يوماً واحداً . كان يحصل في هذا الشبر أو ذاك من الخريطة . وقبل أقل من مئة عام فقط من هذه اللحظة ، كان قد فر أكثر من مليون إنسان من المناطق التي شهدت صراعاً بين حاكم نجد عبدالعزيز بن سعود والشريف حسين حاكم مكة ، وبعض أمراء المناطق في الجزيرة العربية ، وانتقلوا إلى السكن في كل من العراق وفلسطين والأردن والكويت ومصر وسوريا .

***

حرارة دمشق لم تكن تنخفض عن الثلاثين درجة في ذلك الربيع الذي شدتني فيه خطواتي لمراقبة برونر . ومع ذلك فقد كان يرتدي معطفاً سميكاً من الجوخ ، أكبر من قياسه بقليل . كان يحاول أن يخفي بالأكمام الطويلة ، آثار محاولة الاغتيال الثانية التي تعرض لها ، حين أرسل إليه طرد آخر من «جمعية أصدقاء الأعشاب الطبية في النمسا» . هذه المرة فقد برونر ثلاثة من أصابع يده ، ورؤوس أصابع يده الأخرى . كانوا مصرين على قتله .

***

استطعت الدخول إلى تلك الزنزانة في القلعة بعد سنوات طويلة . كان قد كتب على جدارها بحروف غير منقطة ، كلام بقي من أثره «ما يَصنَعُ بي أعدائي؟ إنَّ جَنَّتي وبُستاني في صدري ، أين رُحت . فَجَنَّتي مَعي ولا تُفارِقُني ، إنَّ حَبسي خلوةٌ ، وإخراجي مِن بلدي سياحةٌ ، وقتلي شهادة» .

وعلى جانب الجدار الآخر كتبت كلمات تبدو كالشعر «أنا الفقير إلى رب السماوات/أنا المسكين في مجموع حالاتي/لا أستطيع لنفسي جلب منفعة/ولا عن النفس لي دفع المضراتِ» .

***

سألني أحد القضاة العلويين في جلسة خريفية أمام قوس المحكمة العسكرية : لماذا كتبت عن قبور بني أمية في دمشق؟ وسألني : كيف تصف اليهود السوريين بأنهم كانوا لطيفين ، وتقول صراحة إنك تتعامل معهم ولديك من بينهم أصدقاء؟ وسألني : من هو الشخص المسؤول برأيك عن كتابة المصحف بلهجة قريش ، واستثناء بقية لهجات العرب ، عمر أم عثمان؟ . كل هذه الأسئلة ، وجمهور المحكمة يستمع ، والصمت يطبق على الجميع ، وبعضهم كان يهزّ رأسه موافقاً .

***

صعدت بسلمى إلى جبل قاسيون . كان الليل هو الطريق إلى الأعلى ، ودمشق كانت تقترب ، ولا تبتعد كما تفعل الأشياء حين نغادرها .

***

توفيق الذي ألح على أن أرافقه إلى مسبح المثقفين العراة ، كان ينظر إلى المجتمع السوري من زاوية خاصة ، يشعر أن مسافة تطور كبيرة تفصله عن الزمن الذي يعيش فيها الناس ، وبعد أن

تركـتـه في عـالمه ، جـاء للقـائي بعـد أيام . قـال إنه يشـعـر بالإحباط ، لأنه كان قد ثبت لديه أنني متدين مقنّع في ثياب علماني . وأن عليّ أن أعيد النظر في قناعاتي وأفكاري ، وروى لي كيف أن الحدود بين الأشياء لا يجب أن تبقى على حالها ، هذه حياة ، وللحياة أفق مفتوح .

ـ صحيح . أرجو أن تغير الموضوع .

ـ ليس الموضوع هو المهم . المهم أنك تتوقف عند أمور تبرهن على أنك تقليدي ، محافظ ، متخلف .

ـ نعم . . وأنا مرتاح إلى هذا الذي تسميه تخلفاً .

ـ هل تعرف أن صديقتي صاحبة صالة عرض اللوحات ، قد حجزت لنا غرفة في الفندق ، في الشيراتون .

ـ لنا؟

ـ لنا أي أنا وهي . أنت لا علاقة لك بهذه الأمور .

ـ نعم .

ـ يمكنك أن تتخيل ، ليلة ساحرة ، حتى إنها أحضرت أختها معها ، وقضينا الليل في ثلاثية فريدة .

ـ طيب .

ـ ماذا؟ هل تستفزك هذه الأحاديث؟ أنا أريد أن أستفزك بها ، لعلك تتطور .

ـ أنتم تحولون دمشق كلها إلى مسبح للمثقفين العراة .

***

الحياة في دمشق تشبه الانهماك في حل مكعّب روبيك الفيزيائي الملوّن . كل وجه منها يحمل هويات وأعراقاً وثقافات مختلفة عما يحمله الوجه الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس . وعلى من يريد تركيبها منسجمة أن يوائم بين كل لون صغير من ألوان الوجه الواحد ، لكن الهويات مستمرة في الانقسام والتشكل طيلة الوقت . وهذا يجعل حيلة روبيك أمراً لا نهاية له .

***

قال لي القاضي العسكري : ما هو مبررك للقول إن قبيلة قريش والنبي محمد كانت لغتهم مختلفة عن اللغة العربية الفصحى؟

ـ لأن هذا ما كان فعلاً ، لغة قريش مختلفة ، في تراكيبها وحروفها وألفاظها .

ـ كيف تقول مختلفة؟ هل تريد أن نعاقبك بأشد العقوبات؟

ـ يا سيادة القاضي . هذا بحث ، ولا علاقة له بمخالفة القوانين .

ـ كيف تقول هذا؟ طبعاً أنت تخالف القانون . الطعن في أهداف الثورة مخالفة للقانون ، وتخريب لغتنا العربية الفصحى وتشكيك الناس بها ، مخالفة للقانون . ألم تسمع بمرسوم السيد رئيس الجمهورية لدعم اللغة العربية وتعزيزها والحفاظ عليها؟

ـ سمعت طبعاً .

ـ تقول سمعت ، ولكن في الوقت ذاته تكتب كتيباً أو ما تسميه بحثاً عكس اتجاه مرسوم الرئيس! سنواصل التحقيقات ، ونؤجل الجلسة حتى الرابع من الشهر القادم .

***

جزء من نسيج المدينة أن تحتفظ بشكل من التفكير التقليدي ، لا يمكن ترك القيم تتفجّر ، لعل هناك من يجد لنفسه دوراً في تكسيرها ، ويرى أن هذا ضروري ، لكن نمطاً قديماً عليه أن يستمر .

الوحيد الذي حدثته عن مسبح المثقفين العراة ، كان برهان بخاري ، الذي قال لي : عادي جداً .

ـ عادي جداً؟

ـ نعم . أنت تتخيل أن دمشق مدينة محافظة؟

ـ لا أتخيل هذا . أعرف تعقيداتها ، لكن هذا ليس سبب استنكاري للحالة . ما أزعجني هو افتعال الانفتاح لا الانفتاح ذاته .

ـ دعني أحدثك عن الشام ، كان أهل الشام يزوجون أبناءهم مبكرين ، بسن صغيرة جداً ، وكان الواجب كلّه يقع على عاتق العريس . العروس عليها أن تستلقي فقط ، لكن العريس كان عليه أن يقوم بكل شيء . وهنا المشكلة .

ـ كيف؟

ـ لحظة ، دعني أطلب من جوزيف أن يحضر لي «خسكاري» (وكان يقصد حصته من الخمر) . يأتي جوزيف البدين ، نادل بار فريدي ، بعد أن يشير إليه أبو عرفان بسبابة يده القصيرة : خسكاري جوزيف . يحضر له كأسه ، ويواصل حديثه :

ـ كان أهل الشام يذهبون إلى شارع البدوي ، وكان شارع البدوي قديماً شارع العاهرات ، عدم المؤاخذة ، بيوت دعارة مشكل ملون ، ومن أديان وأعراق مختلفة . يحضرون واحدة من هاتيك العاهرات ، ويعقدون عليها عقد زواج مؤقت ، الحلال والحرام كان أهم شيء عندهم .

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم يقولون إن العريس أصابته «الفرحة» بسبب العرس والزواج ، أي أنه لا ينتصب أثناء الجنس . بعد ذلك ، يحتاج من أصابته «الفرحة» إلى سيدة تقوم بعكس مشاعره ، يسمونها «المزعلّة» وهذه ستحل له عقدته .

ـ كيف ستحلها؟

ـ تعلّمه أصول الجنس . كان هذا أمراً متطوراً يتناسب مع تطور مدنية الشام . ثقافة جنسية . وكان الناس يعيشون في ظلام . من كان يعرف كيف يتصرف في هكذا مواقف وهو ما يزال ابن اثنتي عشرة سنة؟

ـ جيد .

ـ لكن الأهم . لم تسألني ماذا حلّ بسكّان شارع البدوي في دمشق؟

ـ ماذا حلّ بهم؟

ـ قرر الدمشقيون التخلص نهائياً من حي العاهرات ؛ لأنه كان يتسبب بمشاكل كثيرة . لذلك قرروا استتابة العاهرات قبل أن يغلقوا بيوتهن .

ـ ذابت العاهرات؟

ـ نعم . كان هذا هو المصير الطبيعي . ماذا كنت تريد أن يفعلوا بهن؟ يبيدونهن؟

ـ لا طبعاً . معك حق .

***

مسبح المثقفين العراة ، توسّع بعد ذلك ، وأخذ معسرتي يتردد عليه مصطحباً معه رشيد الذي كان يفضحه من أول لحظة يدخلان فيها ، بعد أن يخلعا ملابسهما ، فلم يكن رشيد قادراً على التحكم بانفعالات جسده أمام هول ما يراه .

لكن المرأة الخمسينية التي بقيت تراقب خروجي من المسبح في ذلك اليوم ، لم تتركني وشأني . كنت أعرفها من قبل ، علا الحدوي . والدها كان بعثياً قديماً ، ولهذا نشأت في بيت عجّ بالسياسيين والمثقفين ، قبل قدومها إلى دمشق من مدينتها حماة ، وكانت أسرتها نموذجاً للأسر الحموية المتحررة ، على النقيض من صورة أهل حماة التقليدية التي التصق بها

التشدد الديني . ابتسامتها الودودة كانت سرّ نجاحها المهني في الحقل التجاري مع رجال الأعمال الدمشقيين الجدد الذين أرادوا ربط أسمائهم بأسماء وكنى لعائلات اشتهرت في الأربعينيات والخمسينات من القرن العشرين ، على أنها هي واجهة الحياة السورية ثقافياً وسياسياً واقتصادياً .

***

يسرع خطواته بلا سبب . كان يتوقع أن شخصاً ما يراقبه ، أو حتى يتربص به لقتله . كرجل عجوز ، هيئته وهو يمشي بسرعة ، تستعيد ركض برونر في غابات هامبورغ هارباً من محاكمات نورنبرغ . كان يلهث بصوت منخفض .

***

قرب باب شرقي ، وفي مقبرة البروتستانت أمرّ على قبر ميخائيل مشاقة ، أو ما أتصوّر أنه قبره . كان مشاقة دمشقياً باختياره أيضاً . صحيح أنه كان يوناني الأصل ، لكنه توحّد مع دمشق حتى صار مثلها متعدداً رحباً . خلال سنوات طويلة تلت ، عدت إلى القبر مئة مرة ، لكنني لم أكن أعثر عليه . شيء ما قام بمحوه من ذاكرتي ، أو أنه اختطف من مكانه ، أو اختلط الأمر عليّ بصورة ما . لا أعرف . لكن ميخائيل مشاقة كان من الأرواح التي ترافقني في الشام .

***

مقهى «المشيرية» في شارع النصر ، تعاقبت عليها الأزمنة حتى صارت مكاناً صاخباً للعب الورق وطاولة الزهر ، كان آخر ما يمكن للإنسان تخيله أن يكون برونر أحد رواد هذا المكان . سقف عالٍ وزبائن من طبقات متدنية ، عساكر فارون من قطعاتهم ، وسائقو شاحنات . لم يكن في المشيرية ما يجعلها مكاناً مثيراً لأحد ، لكنها كانت مختبئة خلف مبان أخرى ، ولا تطل على الشارع الرئيسي . كانت قريبة من دار الإذاعة القديمة وسوق الحميدية وزحام البشر .

أصوات صبيان المقهى وهم ينادون على الفناجين ، ويتحركون مثل قطارات تتقاطع سككها ، تأخذ برونر إلى إيسن في ألمانيا ، حيث عاش سنوات متخفياً في شخصية صبي مقهى مثل هؤلاء . بعد أن خلع بزة الضابط النازي ، وقبل أن يضطر إلى الهرب خارج ألمانيا التي كانت السلطات الجديدة فيها تبحث عنه . تذكّر كيف عمل سائقاً لدى الجيش الأميركي دون أن يكتشفوا أمره ، وكيف تنكّر بشخصية متطوّع في الصليب الأحمر ، ليهرب إلى روما ، ثم إلى مصر ، قبل أن يصل أخيراً إلى دمشق .

هنا كان عليه أن ينتحل شخصية تاجر يعمل في الاستيراد والتصدير ، قدّمت له جهات مجهولة وكالات أجنبية لبضائع أدخلها إلى سوريا ، لكن الإسرائيليين والألمان اكتشفوا أنه يعيش في دمشق ، فطالبوا الحكم البعثي بتسليمه ، غير أن

البعثيين كانوا ينكرون وجوده

***

لم تنته جلسات تلك المحاكمة في القضاء العسكري . بقيت حبلاً طويلاً يقيّد يدي . بإمكانهم جرّه في أيّ وقت يرغبون ، وكان القضاة يتبدلون ويتبدلون ، فيما استمرت الجلسات سنة بعد سنة .

***

انتشر شريط فيديو سراً بين السوريين . كان خالي صبحي يظهر فيه ، يتحدث من باريس عن توريث الحكم قبل إعلان موت حافظ الأسد بفترة طويلة . لم يكن هذا مطروحاً على الإعلام وبين الناس . كان حديثاً صادماً ، لكن كثيرين كانوا يعقدون الندوات لمناقشته في بيوتهم ، بعد مشاهدة الفيديو ، كانوا يهمسون بخطورة الأوضاع .

***

فتحت علا بيتها كصالون ثقافي ، اجتمع فيه الفنانون والكتاب ومخرجو السينما ، كانت تبدو بريئة ومخلصة في الانغماس أكثر في الجو الثقافي ، لكن هؤلاء الذين كانوا يترددون على صالونها ، لم تكن الثقافة همهم الوحيد ، فقد كانت المرأة الجريئة ، فريسة محتملة لكل واحد منهم ، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ، حتى المعارضين منهم لنظام الحكم ، لم يمنعهم كون علا كانت قد استحقت بجدارة لقب

«عشيقة الوزير» بعد علاقتها الغرامية السرية وعلى مدى سنوات بأحد الوزراء العلويين الأقوياء ، من محاولة إيقاعها في شباكهم ، ولو لفترة قصيرة ، قبل تركها إلى غيرها .

دعتني علا إلى صالونها ، كما تفعل مع كثيرين ، وأصرت على أن تحضرني بنفسها بسيارتها الحديثة ، بعد أن أمرّ عليها في مكتبها وسط دمشق . أرادت أن تظهر لي وجهاً آخر غير الذي رأيته في مسبح العراة .

***

قصصت على إخاد أشياء عن كريستا سالاماندرا ، الأميركية التي قدمت إلى دمشق ، لتبحث في ظواهر ما بعد الحداثة ، منطلقة من الطبخ الشامي . أسماء الطبخات والوصفات ، ومكوناتها وتقاطع الثقافات فيها . ثم ما لبثت أن انتقلت إلى دراسة الدراما التلفزيونية . كانت كريستا تفكّر في المطبخ والمسرح معاً ، لذلك كان عليها قبل أن تنتقل إلى العمل على الشاشة أن تعمل على وسائل التأثير .

قال إخاد : ما بعد الحداثة انتهت .

ـ نعم . لكن هذا كان قبل أن تنتهي . أتحدث عن اهتمام لامرأة قدمت إلى دمشق قبل ثلاثة عقود . ذهبت كريستا حين انتهت ما بعد الحداثة ، وحين جاء عصر ما بعد ما بعد الحداثة ، جاءت دوناتيلا .

ـ من هي دوناتيلا هذه أيضا؟ هل كل من درسوكم كانوا من النساء؟

ـ لا . . كان هناك آخرون ، لكنهم لم يكونوا يكترثون بنا . أذكر أوليفييه الفرنسي الذي كان مبتعثاً من قبل وزارة الخارجية الفرنسية ، علماً أن تخصصه كان في الجغرافيا . جاء ليدرس بلاد الشام ، وآخرين أيضاً كانوا يتحركون من حولنا ، لكن دوناتيلا الإيطالية كانت حالة مختلفة .

ـ لم تذكر كثيرين من المستشرقين الرجال .

ـ بعضهم لم يكن مستشرقاً . بعضهم كان شرقياً أصلاً ، لكنه جاء ليقرأ حياتنا .

ـ مثل من؟

ـ مثل الدكتور عمر كامل .

ـ عربي!

ـ مصري ألماني .

ـ ماذا يريد مصري ألماني من دمشق؟

ـ أرسل لي عمر كامل إيميلاً يطلب فيه التواصل معي ؛ لأنه كان قد قرأ الجزء الأول من روايتي «يوميات يهودي من دمشق» . بدا لي شخصاً مختلفاً ، لا يستهويه موضوع اليهود الشرقيين ، فقط من أجل كسر المحظور . كانت لديه أفكار مغايرة . كان يحفر مثلي في المشرق .

ـ نعم ، حيث أنا وسيرة العائلة والآخرين .

ـ نعم .

ـ قال عمر كامل إنه يريد الحضور إلى دمشق ، بشكل سرّي لدراسة التأثيرات التي كتبت عنها في الرواية ، وزيارة المواقع والحديث معي حول الأحداث والتفاصيل . وأنا رحبت بذلك .

ـ لماذا السرية؟

ـ أنا طلبت السرية ، وهو كان يعرف لماذا ، لأنه من غير المسموح الحديث عن هكذا أمور هنا كما تعلم .

ـ لم أعد أعرف ما هو الممنوع والمسموح هنا .

ـ جاء عمر وأقام في دمشق فترة ، وتحركنا معاً في هذه الأحياء . وقابلنا بشراً ، وتحدثنا طويلاً . ووضع الرواية ضمن أبحاثه في قسم الشرق أوسطيات في جامعة لايبزيغ .

ـ مثير جداً .

ـ مصري وعربي ومسلم يدرس يهود دمشق الذين كتب عنه سوري عربي ومسلم ، ويصب هذا كله في قسم عليه لافتة الشرق الأوسط في جامعة في ألمانيا!

ـ تداخل الثقافات كما أقول لك دوماً . لم يعد مفاجأة .

ـ أرجو أن تعيدنا للحديث عن النساء . ماذا عن دوناتيلا؟

***

«الشيء الوحيد الذي أندم عليه اليوم ، هو أنني لم أقتل المزيد من اليهود» كانت هذه هي الكلمات التي قالها برونر في مكالمة

هاتفية مع مجلة «بونته» الألمانية . تذكرت نبرة برونر تلك ، حين رأيته من جديد في بهو فندق الميرديان في دمشق ، وحيداً أيضاً . لم يكن لدي ما أفعله مع ضابط نازي ، سوى مراقبته ، كما أراقب بقية الوجوه التي تتحوّل في أزمنة دمشق وأمكنتها ، قراءته بشكل أو بآخر وتأمل الحالة التي جاء منها ، كان هذا منتهى فضولي .

***

جلست إلى جوار علا ، في سيارتها ، بينما رفعت هي فستانها ووضعته بين ساقيها ، لتتمكن من قيادة السيارة براحة أكثر . كشفت عن فخذيها النحاسيين ، وأخذت تحدثني عن معاناتها مع المعارضة السورية .

ـ يكلفونني بجمع التواقيع على البيانات السياسية ، ثم لا يضعون اسمي بين الموقعين .

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف . ربما لا يعترفون على كوني معارضة ، أو ربما لا ينظرون إلي على أني من مستواهم الفكري . ربما لكوني مسلمة سنّية .

ـ لا أعتقد . هل أنت متدينة؟

ـ ما هذا السؤال؟ هل يبدو عليّ أني متدينة؟

ـ لا .

ـ إذاً!

ـ لا أعرف .

ـ أو ربما بسبب علاقتي السابقة مع الوزير .

ـ ربما . هذا السبب أقوى .

ـ لكني على علاقة بشخصيات مغضوب عليها ، تهاجم النظام ليلاً نهاراً .

ـ على علاقة بالدرجة علاقتك السابقة نفسها مع الوزير؟

ـ نعم ، وليلاً نهاراً أيضاً .

***

عماد كان سليل أولئك الوهابيين النجديين الذين حاصروا دمشق ، جدّه فضّل البقاء مثل كثيرين غيره ، ويبدو أن الحياة في بلاد الشام كانت قد طابت لهم . بات بعضهم يعرف بـ«العكيلات» ، أي تجار الجمال النجديين . وهؤلاء عاد معظمهم إلى السعودية بعد أن أصبحت دولة غنية بالنفط ، وكان من بينهم عائلات كبيرة ومسؤولون مرموقون في مؤسسات الحكم ، لكن عماد لم يكن في هذا الصوب ، فلم يشغل باله لا العودة على طريق أسلافه ولا العمل في أيّ منصب ، كان يحب الاسترخاء والاعتماد على الآخرين .

***

تساءل إخاد هل كانت آثار تنظيمات وإصلاحات السلطان عبدالعزيز التي فرضت عليه بعد حرب القرم ، قد بدأت فعلاً

تظهر في الحياة السورية آنذاك؟ . قلت : نعم . أخذ المسيحيون يعيشون عهداً جديدا ، فتدفقوا على المدارس التي كان محظوراً عليهم دخولها من قبل ، وتم تعيين بعضهم في وظائف حكومية . تغيرت ملابسهم التي كانت مميزة ، لكن الحروب لم تتوقف ، والحاجة الماسة للجيش العثماني الضخم ، كانت تتزايد ، وفي الوقت الذي خصّ فيه السلطان الأقليات بدفع بدل عن الخدمة العسكرية الإلزامية ، كان هؤلاء يرفضون الالتزام بقرار السلطان . استمر هذا طويلاً ، حتى قرّر أحمد باشا حاكم دمشق التركي فرض الأمر بالقوة ، ليس فقط ما يجب عليهم دفعه حينها في تلك السنة ، بل عن كل السنوات التي تخلفوا فيها عن الدفع . لم يكن مسيحيو دمشق مرتاحين ، ليس فقط بسبب قرار أحمد باشا ، بل لأن أخبار الحرب الطائفية في جبل لبنان كانت تثير مخاوفهم . وصلت أنباء ثورة شعبية وانتفاضة فلاحية فجّرها الموارنة ضد الإقطاعيين الدروز . لم يتحمّل العقل التركي ثورة من هذا النوع ، لأنها كانت خروجاً على النمط البنيوي للدولة ، وكان أكثر ما أزعجهم تأييد الكنيسة المارونية لذلك الحراك . وخلال أسابيع قليلة من ذلك الصيف في العام 1860 هاجم المسلحون الدروز أكثر من ثلاثمئة قرية من القرى المسيحية في سهل البقاع والجبل ، فوقعت المجازر في دير القمر وزحلة وحاصبيا وجزين وراشيا . ضخمت الأرقام التي تحدّثت عن مقتل عشرات الآلاف وتدمير مئات

الكنائس ، وكان الذعر قد بدأ يسيطر على بلاد الشام قادماً من جبل لبنان .

ترك الأتراك الطائفتين تتصارعان ، وكانوا ميالين للدروز أكثر من المسيحيين ، حتى إنهم صادروا أسلحة المقاتلين المسيحيين ، وزودوا الدروز بالسلاح للسيطرة على زحلة القريبة من دمشق . حينها ساند المسلمون السنة والشيعة الدروز في حربهم تلك ، وشهدت بعلبك أحداثاً دامية ، شارك فيها الجميع ضد بيوت المسيحيين ، وامتدت النيران في كل اتجاه . حينها فضّل كثير من المسيحيين في صور والجليل الأعلى وصيدا التحول إلى الإسلام خوفاً من الوقوع في أتون الحرب الطائفية ، وكان هذا يقترب أكثر فأكثر من دمشق التي بدأ الناس يرون صباح كل يوم كتابات جديدة على جدران كنائسها تحتفل بسقوط زحلة وتنذر المسيحيين .

***

عاد ناصر إلى دير الزور ، وبقيت في دمشق ، انشغلت بالحانة الليلية قرب دار الكتاب المقدس ، عليّة أخرى غير عليّة «أبو شمس» . كانت تلك العليّة الدمشقية ، المكان الذي أستمتع فيه بسماع صوت قدميّ على السطح الخشبي ، كلما انتهيت من صعود الدرجات ، وقبل أن أصل إلى الطاولة . وهناك استدرجتني إليثيا ، المستشرقة الإسبانية ، بصوتها الممتزج بأصوات عدة ، مثل فرقة أندلسية عبرت سقوط

غرناطة ، دون أن تشعر ببرارة اللحظة . بقيت تغني كما لو أن العالم ثابت على صورته الأولى .

كانت دمشق مسرحاً كبيراً لهؤلاء في عقدي الثمانينات والتسعينات ، وكأننا كنا مادة درس لا حدود لها بين يديهم . لم يكن هذا يزعجني ، كان يستفزني تهافت المثقفين على المستشرقين والمستشرقات . وكما هم اليوم يسمعونهم ما يطربهم ، وما يسهل عليهم فهمه ، وما يناسب أولئك المثقفين قوله ، عرقياً وطائفياً وسيكولوجيا . كانوا يفعلون الأمر ذاته . وهذا يعني ان المدخلات والبيانات التي تلقاها هؤلاء الدارسون ، كانت خاطئة من البداية ، لذلك كان من الطبيعي أن تكون مخرجاتها خاطئة .

الجنس يحرّك كل شيء ، والذهاب إلى الآخر ، كان نوعاً من الغزو ، وكان المال يترافق مع الجنس ، لذلك لم يكن صعباً على أيّ قادم جديد إلى المدينة ، سيساهم بعد سنوات في صناعة صورتها ، أن يتقمص صورة رامبو الشاعر الفرنسي ، أو أيّ متفجّر أو متشرّد شهير آخر من صفحات التاريخ ، وكان بعض هؤلاء يشعر أصلاً أنه يعيش حياةً ثانية لكائن عاش في الماضي ، كما في حالة خليل ، كان خليل صحفياً يتمتع بروح المغامرة ، لكنه لم يكن يملك إلى جوار تلك الروح أي شيء آخر ، كان يبحث عن السلطة مهما كان الثمن ، ولذلك كان ، حين يأتي لزيارتي ، يستعرض بطولاته بسيجار غليظ ، يقول في

كل مـرة إنه أهدي إليـه من أحـد الأشـخـاص الخطرين ، مـثل عبدالله أوجلان الذي كان يعيش في دمشق حينها ، أو حتى تجار السـلاح المكلفين بتأمين احتـيـاجات أوجلان كـافة كـان خليل مـقـربـاً من هؤلاء ، يكتب عنهم الكتب ، ويقـول إنه يرافقهم في رحلاتهم البعيدة في الجبال وأرض المعركة .

كانت إليثيا تبكي ، أرادت مني أن أوصلها إلى البيت في آخر السهرة . تركت أصدقائي وذهبت معها ، كان بيتها في برج الروس ، غير بعيدٍ عن تلك العليّة الليلية . دخلت مع إليثيا بيتها المستأجر . خلعت معطفها الجلدي الأسود وذهبت إلى المطبخ . سمعت دقاً خفيفاً على الباب . لم أجب . قالت لا تهتم . بعد قليل ، ارتفعت أصوات النقرات على الباب ، قالت إليثيا : لا تهتم . فلم أهتم . لكن بعد دقائق أخرى أصبح الدق على الباب خبطاً عنيفاً .

***

صالون علا ، ضم الطبقة التي أرادت أن تعلن أنها هي المعارضة السياسية لنظام الأسد ، فيما كان المعارضون الفعليون يقبعون في المعتقلات ، أو يعزلون أنفسهم بعيداً ، وصوت الأقداح التي تتصادم بين رواد الصالون ، كان يصل بالتأكيد إلى فرع المخابرات القريب من بيتها ، حيث طبقات من الأقبية المليئة بالزنازين .

المرات القليلة التي قبلت فيها دعوة علا لزيارة صالونها ،

كانت كفيلة بجعلي أبتعد مسافة عن هذا المناخ . كانت في كل مرة تعرفني على عشيق جديد لها ، تتحدث عن الأفلام الغاضبة للمخرجين السينمائيين السوريين الذين اضطهدهم نظام الأسد ، بينما كان يعبث بلحم كتفيها المشدود ، صديق جديد يعمل في منظمات حقوق الإنسان . تحدثني عن الاعتقال الطويل للدكتور عبدالعزيز الخيّر ، فيما كانت أصابع غليظة لصديق آخر ، مهندس بترول في عقده السادس ، تندس تحت تنورتها القصيرة أمامي وأمام الحاضرين . تروي قصة ضاحكة عن مسرحية أدّاها ممثلوها في معصرة زيتون قرب دمشق ، وهي منشغلة بالعبث بخصل شعر فتى ثالث غريب الأطوار ، يبدو وكأنه من غجر أوروبا الشرقية ، ولا أحد كان بإمكانه أن يعرف كيف تنتقل المعلومات ، ولا في أي اتجاه يجري تبادلها بين أطياف تلك المروحة اللانهائية من عشاق علا .

***

«الكرسي الألماني» الرهيب ، أشهر آلات التعذيب في السجون السياسية السورية ، كان من بين الخبرات والنصائح التي قدمها برونر للمخابرات في دمشق ، التي طبقت بدروها تلك الفكرة الوحشية ، وعممّتها على المدن والأرياف ، بعد أن اعتمد اللاجئ الألماني النمساوي النازي مستشاراً أمنياً لدى حافظ الأسد ، مقابل منحه ملاذاً آمناً ، على أن يبقى مطموس الملامح ، وبعيداً عن أعين الناس .

رأيت برونر بعد ذلك مرات عديدة ، لكنه لم يرني مرة واحدة ، ولم ينتبه لوجودي ، كأنني لم أكن قريباً منه . كان وحشاً ضارياً في لحظاته الأخيرة ، أسداً هرماً يلفظ أنفاسه ، بعد أن قاد عمليات الاعتقال والإبادة ، وسجن وهجّر أكثر من مئة ألف يهودي نمساوي ويوناني وفرنسي ، إلى معسكرات الموت وأفران الغاز ، كما فعلت سلطة آل الأسد ، التي اشترت نصائح ذلك النازي ، بعد ستين سنة بالسوريين .

ورأيت برونر من جديد في فيلم سينمائي ، استغرق كوينتن تارانتينو في كتابته أكثر من عشر سنوات . إنه كريستوف فالتز ، الألماني النمساوي أيضاً في «أوغاد مجهولون» ، كان الدور الذي لعبه فالتز صورة طبق الأصل لبرونر ، وربما كان الكولونيل هانز لاندا صائد اليهود ، النسخة المتخيلة لبرونر الغائب في سوريا المجهولة .

***

صحن جامع الشيخ محي الدين ، الزيارة الألف ، لم تكن كفيلة بجعلي أخرج من التصور الأول ، أن مجرد الخطو من مدخل البناء الذي رفعه السلطان سليم الأول في الصالحية على نهر يزيد ، في ركن أبو جرش ، بعد أن رأى الشيخ محيي الدين في منامه ، خطواتٌ في المنام ذاته ، كنت أصعد سطح الجامع خلسة ، وأراقب البيوت من الأعلى ، وأكثر ما كنت أطيل النظر إليه آلة الجزري التي تركها هناك ، والتي كان يمكن

رؤيتها من سطح جامع الشيخ الأكبر . كانت الآلة محركاً كبيراً سبق به الزمن ، لكنه متروك في أرض ديار أحد البيوت ، دون أن يلتفت إليه . كانت آلته ذاتية الحركة ، لا تحتاج لإنسان كي يمنحها الدفعة الأولى من الطاقة ، وكان كتابه «الحيل» يضم رسومات لأكثر من مئة آلة ابتكرها الجزري مستعيناً بالماء وحده . كان ما يشدّني إلى الجزري ابن القرن العاشر ، ليس فقط حيله وأفكاره ، بل جذوره التي تعود إلى الجزيرة السورية ، من حيث أتيت أنا .

غير أن صحن الجامع ، كان يعجّ بالأشكال ، زنوج وترك وبخاريون ، كلهم يستظلون بظل الشيخ . جرّبت أن أطلب من الشيخ ، لكنه لم يكن يساعد ، حتى جاءت لحظة عرفت فيها أنه لن يتركني بعدها . كنت أراه يكتب بيده «وآتيناه من لدنا علماً» ، آخر حروف كتابه «تفسير القرآن العظيم» قبل أن تفيض روحه .

***

ما وجدته في تفاصيل القرن التاسع عشر ، يشير إلى أحمد باشا كان قد راقب ما كان يحدث بعين هادئة ، ولم يتراجع عن قراره القاضي بأن يدفع المسيحيون البدل النقدي على الفور ، رغم حساسية اللحظة ، واستدعى رجال الكنيسة الدمشقيين وطالبهم بالضغط على رعاياهم للانصياع إلى ما قرّره . حينها صدرت فتاوى من العلماء المسلمين بالرأي الشرعي القائل إن

تلك الأموال يجب أن تدفع ، ولا مبرر لاستثناء أيّ من أبناء الأديان الأخرى ، ما دام مسلمو دمشق ملتزمين بدفع ما عليهم .

***

فعل خليل كل ما يمكن فعله ، ولم يقل مرة لماذا يصر على ذلك كله ، أصدر المجلات ، وجثا عند ركبتي آصف شوكت صهر حافظ الأسد كي ينعم عليه ببرنامج في التلفزيون الرسمي . عرض على المخابرات السورية أن يذهب بجولة على المعارضين السوريين في الخارج ، بذريعة صناعة أفلام وثائقية ، وفي الوقت نفسه ، يتمكن من تحقيق غرضين ، الأول جلب المعلومات ؛ التفاصيل والتحديثات والعناوين الدقيقة ونقاط الضعف ، والثاني محاولة إقناع هؤلاء بالعودة إلى سوريا والتصالح مع النظام ، بضمانته هو .

وكانت الليلة التي ألقي فيها القبض على أوجلان ، الأصعب في حياة خليل . بدأ يشعر أن دوره انتهى ، جاء إلى بيتي ، وجلست أستمع إليه وهو يتأمل في الاحتمالات القادمة ، ماذا سيحصل له؟ وماذا يمكنه أن يفعل الآن؟ إلى أين ستتوجه تلك الطاقة والسلاح والتمويل والعلاقات التي سخّرها حافظ الأسد لأوجلان الآن ، بعد أن أجبره الأتراك على طرده من سوريا ، ثم إعطائهم إحداثيات رحلته وصولاً إلى القبض عليه في نيروبي في كينيا ، ثم سوقه مكبلاً إلى سجنه في

جزيرة إمرالي في بحر مرمرة . سألني خليل : ما هو الاسم الذي يمكن أن نمنحه لخليفة أوجلان الآن؟

ـ وهل له خليفة هنا؟

ـ يجب أن يكون له خليفة .

ـ نسخة أخرى تصنعها المخابرات؟

ـ لا علاقة للمخابرات . .نحن نقدمه للمخابرات . ما رأيك باسم كاوا؟

ـ كاوا الحداد اسم عالق في الذاكرة الكردية .

ـ نعم . لهذا أسأل . شخص يليق به أن يلبس البدلة المفصلة سلفاً ، بدلة القائد الكردي .

كان خليل ذكياً ومثقفاً ، لا بوصلة وبلا سفينة ، وكان يثق بي لسبب أجهله ، وكنت أحترم تلك الثقة ، وأظن أنها كانت نابعة مثل غيره من المتورطين ، من حاجته الماسة إلى شاهد ينظر في عمق شخصيته ، ويدوّن ما كان يفعل دون أن يحكم عليه .

***

أراقب جسد سلمى العاري ، خصرها المنحني كانحناء الأقواس الثلاث الوردية في بيت يوسف عنبر . خصرها حيلة هندسية ، ومنحدر أبيض ينزل بي إلى نهر من الليلك يندفع على امتداد ساقها .

***

ـ خرجت من بيتي في البرامكة . كان بابي أمام باب كلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق . عشرون متراً لا أكثر . دخلت إلى القاعات . كنت مدعواً إلى مناسبة هناك ، لم أعد أذكر عمّاذا كانت . لو حاولت سأتذكر . لكن لا يهم . وبعد انتهاء الحدث ، تقدم مني شاب وشابة ، وعرفاني باسميهما . قالت الفتاة ذات الشعر القصير إنها من إيطاليا ، وإنها هنا لدراسة اللغة العربية والفنون معاً ، وإنها تريد لقائي . أعطيتها بطاقتي ، ورحبت بها ، ومضيت . في اليوم التالي اتصلت وحضرت إلى بيتي .

قالت إن اسمها هو دونا ، دوناتيلا ديلارتي . وإنها تعمل على الحصول على الماجستير والدكتوراه في موضوع محدد . الدراما السورية ، أي الأعمال التلفزيونية التي ينتجها السوريون ، وإنها تريد مساعدتي في بحثها هذا . أرادت أن أضع لها برنامجاً تدريسياً يشمل قراءة مفصلة في تطور الدراما السورية .

***

ـ وتقولون إن الأقليات ليست بحاجة إلى حماية؟

سأل إخاد ساخراً

ـ إخاد . . اسمعني جيداً . المتاجرة بحماية الأقليات ، ليست جديدة على المشرق ، وهي اليوم تعود وترفع قرنيها من جديد ، بتشكيل عناصرها من جديد . غالبية مجهّلة ومتطرفون

يعتدون على أديان وطوائف وشعوب لا يميزون بين أقلية وأكثرية ، إلا أن الصوت يعلو فقط لحماية الأقليات منهم . لكن الأمير عبدالقادر كان يتحضّر للقيام بذلك فعلاً ، ولم يكن يتصنعه ، لأن المشرق كان على وشك الانفجار حقاً .

ـ ألم ينفجر المشرق بعد؟ حينها واليوم . ما معنى الانفجار إذاً؟

***

لم تكن علا تريد شيئاً مني . كانت تخفي رغبةً بأن تريني يومياتها لحماً ودماً . عرفتُ أني سأدوّن هذا يوماً ما . لم تكن منسجمة مع نمط حياتها ، لكن الأوان كان قد فات ، ولم تعد قادرة على الخروج من دائرتها التائهة . كانت تشعر أنها مدينة حماة ، على صورة امرأة ، ينتهكها الجميع ، بينما تحاول هي أن تبدو ذات مكانة وتأثير مثلهم . لكنهم لا يسمحون لها بهذا أبداً . يئستُ من حربها تلك ، أما أنا فلا وقت لدي لليائسين . خصوصاً بعد أن بدأت أرى بين رواد صالونها ، أعضاء مجموعة «حراس الأرض» القدامى . اختلطت الوجوه ، وتداخلت الحيوات بين المراكب السكرى التي تسبح في زمان دمشق .

***

قرّرت فتح الباب ، ما الذي يجعل الإسبانية تتهرب من طارق الليل هذا؟ قد يكون للنبيذ دوره آنذاك ، إلا أن ما أذكره

أن فروسيتي منعتني من البقاء مكتوف اليدين والباب يكاد ينخلع ، ولم يكن هناك ما أخفيه أصلاً ، فقد كنا وصلنا لتونا .

فتحت الباب ، وسط نداءات من إليثيا ، كانت تقول : لا أرجوك ، إنه صديقي . لكن كان الوقت قد تأخر كثيراً ، فقد ظهر عملاق إسباني ما إن اتضحت الرؤية من خلف الباب . سألني بالعربية الفصحى : ماذا تفعل في بيتي؟

وددت لو أنني كنت كائناً غير مرئي ، أو وليّاً من أولياء الله من أصحاب الخطوة ، أو أني لم أدخل ذلك اليوم من باب العليّة ذات الأرضية الخشبية . لم أكد أرد على الرجل حتى بادرني بلكمة عنيفة . جعلت لغتي الفصحى في الرد عليه أكثر بلاغة ، فلم أكن أتوقع أنه يمكن أن يفهم العامية السورية .

دار حوار عنيف بالعربية الفصيحة بيني وبينه . لم يتغلب عليّ ، فقد وعيه وسقط على الأرض ، كانت الإسبانية تولول . ولم تمض لحظات إلا وكان العملاق ينهض ببطء ويشهر سكيناً طويلة . غادرت المكان بسرعة ، وأنا أتمتم باللعنات والزفرات على الإسبان والمستشرقين والغرب والشرق معاً .

بعد أيام ، صادفت إليثيا وصديقها العملاق الإسباني في مقهى الرواق في العفيف ، تقدّما نحوي ، يعتذران ، كانت صدمة التلاقي المعرفي بالنسبة إليّ ، هي أن يتحدث معي العملاق الإسباني بالعربية العامية ، قال إنه سوري ، وإنه ظن أنني أنا الأجنبي ، لأن شكلي ولحيتي أوحيا له بهذا ، وأنا

فعلت ذلك أيضاً . لتتصارع الأذهان واللغات في مدينة الجنون واللكمات والكلمات .

***

انتماء خليل إلى أقلية دينية ، جعله بارعاً في التموضع بين المربعات على رقعة الشطرنج ، وطاقته الهائلة تمكنه دوماً من البحث عن احتمال بديل ، وحين يشعر باليأس من هذا الاحتمال ، يغادره بسرعة ، وهذا ما فعله مع الجميع ، حتى مع «الملك» الذي أغدق عليه الأموال كي يكون مستشاراً سياسياً وإعلامياً له . كان الملك هو اللقب الذي أطلق على تاجر السلاح والعملة في السوق السوداء ، والذي كان ثمن سكوت المخابرات السورية على نشاطاته تلك ، تقديمه خدمات يطلبونها منه بالمقابل ، وكان يكفي أن تذكر اسمه بين صرافي العملة الصعبة السريين ، حتى يمنحوك ثقتهم ويعطوك ما تطلب بأفضل الأسعار ، كانوا يفعلون هذا لأنهم يحسبون حساب الملك ، فإذا غضب عليهم سوف يقطع أرزاقهم دون رحمة؟ ملف أوجلان كان بيد الملك ، وحين أرخى حافظ الأسد يده عن الإمساك بذاك الملف ، أسقط من يده ذاتها كل ما يتعلق بأوجلان ، وهكذا صار الملك بلا قيمة بالنسبة لخليل ، فلم يعد يزوره ولم يعد يحضر من زياراته له علب السيجار الفخمة .

***

أخذت أعرض الصور على كومبيوتري المحمول، صوراً بالأبيض والأسود، قلت له: بدت دمشق مكتظة بالسكان. لم يكن عدد قاطنيها في أواسط القرن التاسع عشر أكثر من مئة ألف نسمة، حسبما قال الرحالة الإنكليزي جيمس سلك بكنغهام، الذي زارها في الثلث الأول من ذلك القرن، غير أن عدد الدمشقيين كان قد ازداد في العقود التي تلت، بسبب الحرب الطائفية في المناطق المحيطة بالمدينة. اندفع اللاجئون الذين هربوا من المجازر محتمين بالمدينة الآمنة، حتى أصبح عدد الذين يعيشون فيها قرابة مئة وأربعين ألف إنسان، وكانت من بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين الذين سكنوا في الحي المسيحي داخل السور القديم، ومن لم يجدوا مكاناً ينامون فيه، سكنوا الحدائق والبساتين والطرقات. قام الدمشقيون بمساعدتهم، لكن هذا لم يكن كافياً، فقدرة المدينة على استيعاب النازحين كانت تتضاءل مع الوقت، خاصة حين واجه هؤلاء خطر الهجمات التي كان يشنها دروز ومسلمون سنة عرب وأكراد، من أهل المدينة ذاتها. طلب الأمير عبدالقادر من أحمد باشا أن يتحضّر لأيّ طارئ قد يحصل، فالأمور تنذر بتكرار ما وقع في جبل لبنان، لكن حاكم دمشق التركي لم يستجب، فلجأ الأمير إلى القنصل الفرنسي كي يساعده في تجهيز ألف مقاتل غالبيتهم من المهاجرين الجزائريين الذين قدموا معه إلى دمشق. كانت علاقة أحمد باشا بمسلمي

دمشق سيئة للغاية ، فهو لم يكن قد نسي أنهم قتلوا عمّه سليم باشا قبل ثلاثة عقود . حديث ممثلي الدول الغربية وقناصلها لم يجد نفعاً معه . كان يريد للمجزرة أن تقع . نصب مدافعه في قلعة دمشق وأمام أبواب المساجد ، استعداداً للحرب مع المسيحيين .

أيام الحج كانت مختلفة في تلك السنة ، فقد شهدت احتفالات بانتصارات الدروز على المسيحيين ، ما أثار ذعر مسيحيي دمشق ، الذين لاذوا ببيوتهم وبالصمت بانتظار القادم المجهول . إنه عيد الأضحى . كان يخلو هذه المرة من الباعة المسيحيين والأطفال الذين اعتادوا مشاركة المسلمين ألعابهم ، وقد لاحظ المسيحيون حينها أن ساكني المدينة من الموظفين الأجانب قد بدأوا بمغادرتها يومياً . لقد بلغ الاحتقان ذروته ، وباتت دمشق مدينة للصمت بعد أن كانت تضج بالحياة . أخذت حرارة الصيف تغلي الماء في الكوز ، كما يقول الدمشقيون ، فالثلث الأول من شهر تموز يكاد يكتمل .

***

الصديق الوحيد الذي لم يتخل عنه خليل ، بعد ابتعاده عن الملك ، كان فهمي ، الشيوعي التقليدي الذي كان نموذجاً أكثر تقدماً من خليل ، ولعل خليل كان معجباً به إلى درجة كبيرة تجعله يحسده أحياناً ، وفي أحيان أخرى كان يخضع له . فهمي أيضاً كان من أصحاب المهمات المتبادلة مع المخابرات ،

تاجر ابن تاجر ، لكنه اختار أن يكون شيوعياً ، وجد في هذا الخيار فرصة للتحول إلى زعيم ، وقد حقق شيئاً من هذا الحلم ، وإن بصورة مقزّمة .

دمشق آخذة بالتحول إلى عش دبابير من الأعراق والأديان والجنسيات كافة ، وكان هذا المناخ ملائماً لظهور شخصيات مثل خليل والملك وفهمي ، ولأن فهمي شيوعي فقد كلّف بملف الشيوعيين العرب الذين حضروا إلى دمشق هاربين من أنظمة الحكم في بلدانهم ، ولأنه درس في روسيا قبل سنوات ، فقد كلّف أيضاً بملف التواصل مع المافيا الروسية بعد تفكك الاتحاد السوفييتي . لم يتمكن خليل من اللحاق بخطوات فهمي ، فارتضى أن يرافقه في الخفاء ، وكان التمثال الأبيض لهوشي منه الزعيم الفيتنامي يبتسم في صالون خليل ، في البيت السري الذي يملكه فهمي ، ليعقد فيه الاجتماعات الحساسة ، ويشرف خليل على حراسته وادعاء ملكيته للتستّر على فهمي ، وكان فهمي يخطط لأمور أخرى أكثر خطورة من بيت صغير اشتراه ببضعة ملايين .

***

خالد شقيق عماد ، وبعد أن خرج من سجنه الطويل ، أخذ يتحضر للعودة إلى العمل السياسي ، لكن عمله كان قد بدأ يتخذ شكلاً جهادياً ، وبدلاً من التضحية بنفسه مقبوراً في زنزانة ، كان قد قرر التضحية بها محبوساً في سجن جديد في

مناخ الحرية . كان لديه هو الآخر ثأر شخصي مع نظام الأسد ، ثأر انتهاك روحه وجسده ووعيه .

***

لم أكن قد زرت الكثير من المناطق السورية ، لكنها كانت تعيش معي ، حتى إني لم أعد أذكر إن كنت قد زرتها أم لا . لا أتذكر أني زرت حماة ، لكني أذكر تماماً المقاهي التي كنت أجلس على كراسيها أمام النواعير ، ولم أعد أذكر هل زرت حمص أم لا . لكن شوارعها التي لا تشبه شوارع حلب ودمشق ما زالت في ذاكرتي البصرية . أعرف هذا تماماً ، ولا أشك فيه .

سلمية ، مدينة أصدقائي الإسماعيليين ، كانت بالنسبة إليّ مثل تدمر أو درعا ، أي إنني أعرفها جيداً ، لكن كانت زيارتي الأولى حين قررت أن أتحدث مع علي عن فكرة في رأسي .

***

كثيرون يعتقدون أن حياتهم لا تنطوي على أحداث مثيرة ، لكن الحياة كلها أحداث مثيرة . يتوقف الأمر على الطريقة التي تنظر بها إلى الأشياء . من يهتم؟ نعم . من يهتم؟ كثيرون يهتمون . بعضهم لم يولد بعد . التاريخ يهتم . المخابرات العالمية التي تراقب وترصد . مراكز الأبحاث . المتطفلون . النمامون . المدققون في جماليات العيش وفنونه . كل هؤلاء .

***

كل الأشياء العظيمة في دمشق تبدأ من الشعر ، وتنتهي إليه . دمشق مدينة شعرية . سحريتها قادمة من هناك ، من شعريتها . لغتها شعرية ، وعمارتها شعرية . أشجارها مرسومة كما ترسم الأشجار في القصائد ، وأنهارها السبعة مقاطع شعر . مصائر كائناتها مصائر شعرية لا مصائر روائية . ولأنها كذلك ، كانت دلائلها وإشاراتها شعرية أيضاً .

بحثت في ذلك . ومن بين العابرين من شعراء المدينة ، عثرت على إسماعيل العمود . كان الجميع يظنه قد رحل منذ زمن طويل ، لكن حين سألت عنه ، عرفت أنه كان ما يزال حياً حينها . قلت لعلي : لنصنع فيلماً عن إسماعيل العمود ، أحد العابرين مثلنا في هذا المكان ، لاذ اليوم بمدينته القديمة سلمية ، وغاب تحت الغبار .

تحمّس علي . كتبت الفيلم في يوم واحد . كان كل شيء قد تراكم في رأسي على مر السنين . ذهبنا إلى التصوير . طريق دمشق سلمية ، حيث كانت تلك المرة الأولى التي أعبر فيها مداخل المدينة بين التلال .

صوّر علي الفيلم في يوم واحد أيضاً ، وجلسنا إلى عملياته الفنية . كان إسماعيل العمود شاعر قصيد نثر رائداً . كتب في البدايات ، قبل محمد الماغوط وغيره ، لكنه كان من نمط مختلف ، لذلك ظهر الفيلم مختلفاً ، الفيلم الذي بدأته بمشهد من محاكمة طه حسين أمام النيابة ، حين كان الضابط يسأله

عن كتابه «في الشعر الجاهلي» كان ما يحدث معنا في الحياة، قد حدث حقاً في حيوات أخرى، ومع آخرين في زمن مختلف. هذا لأن الزمن في دمشق لا ينتمي للزمن العالمي الذي يعرفه البشر، مدينة شعرية زمنها زمن شعري، كان فيلماً مدهشاً، حصد الجائزة الذهبية في القاهرة لأفضل إخراج. لم يكن بطله العمود، ولا أنا ولا علي. كان بطله المكان، والمكان كان واحداً لم يتغير طيلة زمن الفيلم، كانت سلمية.

ماذا رأيت في سلمية؟ رأيت الشمس، الأفق الذي يختبئ خلف التلال، والجفاف الذي جعل من أهلها ثورة جاهزة، لكن طيف الحسن الصبّاح كان غائباً عن المدينة. مررت بالشوارع كلها، وبالحقول الشمالية الشرقية. لم يكن هناك غير البيوت المهجورة. سكّانها غادروها إلى الشام وحلب وإلى المعتقلات السياسية والمنافي.

***

ما طلبته دونا، كما أحبّت دوناتيلا أن أناديها بعد أن صرنا صديقين، لم يكن مجرد الحديث عن تطوّر صناعة المسلسلات التلفزيونية. هي طلبت هذا. لكن ما كنت أراه كان مختلفاً، فبالتوازي مع تدمير النخبة السورية، كانت تجري برمجة جماعية تقوم بها السلطة، عبر وسائل عديدة، لم يكن التلفزيون بعيداً عنها.

السلطة إذاً. السلطات مجتمعة، عبر شاشة صغيرة تبث

الحكايات ، شهرزاد من نوع مختلف تتحكم بالعقول .

لذلك وضعت برنامجاً للبحث ، لم يكن لتدريس دونا وحدها ، بل كي أعيد بنفسي قراءة الزمن وتضاريسه ، منذ أن تم تأسيس التلفزيون السوري ، بالتزامن مع تلفزيون مصر ، أيام الوحدة وعبدالناصر ، وظهور أصحاب الكاريزمات التي اشتغلت على وعي الناس ، المواضيع والأفكار وسوق الإنتاج ، استبدال النخب بالممثلين والنجوم ، تداخل الشأن العام مع الترفيه ، إعادة كتابة التاريخ من جديد ، سحق التلقي الطبيعي ، مقابل شبكة تأثير شديدة الخطورة ، لا تتوقف عن العمل ، تديرها المافيات والمخابرات والمال الفاسد والمثقفون العراة ، منذ أن قرّر نائب رئيس الجمهورية عبدالحليم خدام وأولاده دخول سوق الإنتاج الدرامي ، وحتى دخول شقيق الرئيس ماهر الأسد وخازندار مال الأسد رامي مخلوف وأسرته السوق ذاتها ، سوق التلفزيون وسوق العقول .

***

يصعب عليك أن تميّز بين المجرم والبريء حين تنظر إلى النخب السورية ، فالنظام الوحشي أيضاً صنعته نخبة اختارت بنفسها هذا الشكل من الأداء . لم تفعل هذا بسبب وحشيتها فقط ، بل لأن هناك أفكاراً تقف خلف ما فعلته . وبالتوازي مع نخبة النظام كانت نخب أخرى رأت أنها هي المعارضة ، لكن أيضاً كان صعباً معرفة الكيفية التي واجهت بها تلك النخب

المختلفة قسوة النظام وهمجيته وأفكاره .

عرّفني خليل على فهمي ، الذي كان يحتفل بافتتاح ماركة ثياب عالمية شهيرة ، تمكن من جلبها إلى سوريا ، وصار وكيلاً لها في دمشق . قال له خليل إنه شديد الإعجاب بي ، وإني الشخص المناسب لأكون من بين الكتاب الذين يجدر أن تتعامل معهم دار النشر التي أسسها فهمي . لم يؤسسها في الواقع ، ولكنها كانت مثل ذلك البيت ، داراً مملوكة لفهمي في الخفاء ، بينما ادعى أحد مثقفي حلب أنه صاحبها ومؤسسها .

الاجتماع الأول بيني وبين فهمي كان مثيراً . لم يخجل الرجل من مصارحتي بأفكاره ، كنت أتحدث عن مشروع كتاب لي ، بينما استطرد هو في إبداء إعجابه الشديد بالمالتوسية ، وإبادة الملايين من البشر ، وكان مستغرباً بالنسبة إلي أن يؤمن شيوعي يفترض به الانحياز للعدالة وللفقراء ، بنظرية كهذه تدعو إلى التخلص منهم ، لكنني استمعت جيداً إلى ما كان يقوله على مدى ثلاث ساعات دون توقف .

***

تستطيع أن تلوذ بجدار في دمشق ، وتعيش حياتك كلها ، حتى آخر لحظة ، دون أن يشعر بك أحد . تستطيع أن تجمع الكثير من المال ، بإمكانك أن تربح في مدينة البركة ، دون أن تحمل همّ الرزق . لكن إن أردت أن تكون مؤثراً فستكون المدينة كلها ضدك ، وسيعمل على اختبارك كل متر مربع منها وأنت

تتحرك في مساحتها الرحبة ، لهذا كنا نكتب ونصنع الأفلام ونتشط في المحافل والزوايا ، نتدخل في الملفات والمفاصل الحساسة ، دون أن نركن إلى تصنيف يجعلنا في سياق الكل . كان السياق الوحيد المتماسك هو سياق السلطة ، وإن لم تكن منها ، فأنت هدف حتماً .

***

قال لي علي إن هناك ما فاتني في دراسة يهود الشام ، القصيدة المدورة ، الأغنية ، التي انتشرت بين اليهوديات في دمشق ، وكانت تقوم على بنية كتابية متصلة ، قصيدة تغنيها البنات في المدارس القديمة ، عثرت عليها لاحقاً بين الفلسطينيات . كانت فكرته أن السرد الشعبي في الأغنيات الطفلية يحمل أسراره ، لأن التدوير هو سر الثقافة الشعبية .

اكتشفت أنني أكتب بهذه الطريقة بالضبط . تركيب طفلي؟ ربما ، لكن له شرعيته التي يستمدها من وجوده في الذاكرة البشرية ، ولماذا القالب المعتمد والمتعارف عليه؟ ما الذي يجعله ضرورياً؟ لا شيء .

«خد جديا» التي تقول كلماتها : «أبونا اشترى جدي بقرشين . هاي القصة يا نور العين . إجى الخيزران وضرب الكلب اللي عض القط اللي ببطنو الجدي اللي أبونا اشتراه . إجت المي وطفت النار اللي حرقت الخيزران اللي ضرب الكلب اللي عض القط اللي ببطنو الجدي اللي أبونا اشتراه . إجى التور وشرب

المي اللي طفت النار اللي حرقت الخيزران اللي ضرب الكلب اللي عض القط اللي ببطنو الجدي اللي أبونا اشتراه . إجى الجزار ودبح التور اللي شرب المي اللي طفت النار اللي حرقت الخيزران اللي ضرب الكلب اللي عض القط اللي ببطنو الجدي اللي أبونا اشتراه» .

***

سنة بعد سنة ، كانت أشباح أصحابي تبتعد ، كنت أفكر فيهم ، وأرى كيف تغشيهم ضبابات الفرات . كان يصنع جداراً من التشويش ، أكثر من مجرد تشويش على الرؤية . كانوا هم يغيبون في ما وراء النهر . كان كاسر يحاول جمع كلمة المعارضين للنظام ، إسلاميين وعلمانيين ، لكنه كان يفشل ، فلا الإسلاميون كانوا يرغبون بهذا ، ولا العلمانيون . كان يتوهّم ، ولم يكن لديه من يعينه على ذلك سوى بعض الشباب من عازفي الأعواد والغيتارات ، وهؤلاء كانوا منبوذين في دير الزور ، يعيشون على هامش المجتمع ، في بيوت أمهاتهم وغرفها الكبيرة ذات الأبواب العالية .

***

سكن معي أسامة في بيتي في دمّر . كان مختلفاً عن الآخرين . كأنه لم يكن ابن شقيق أدونيس . حاولت مجموعة «حراس الأرض» استقطابه ، لكنه كان أذكى منهم . لم يرد أن يلوّث نفسه بأهداف ضئيلة . كان حالة بحد ذاته . يترجم ويقرأ

ويكتب الشعر والقصة . كان يفكّر بحرية . المرة الوحيدة التي جمعتنا ، أسامة وعمّه وأنا ، كانت حين أعطانا أدونيس قصيدته «أبجدية ثانية» بخط يده ، قبل أن يطبعها في كتاب . قال لي حينها : أنت لا تعرف الوهابيين . توجد لديهم كتب سرية . السنة عموماً هكذا ، لا يطلعونكم على تلك الكتب السرية . يطّلع عليها ابن باز وابن عثيمين . قبل ذلك كان يمكن أن أقتنع بأن أدونيس يصدر عن وعي علماني تماما ، لكنه لم يكن كذلك . أسامة كان متعالياً على تلك الأفكار . كان يأتي من جبلة كل مرة ، مشغولاً بتفاصيل بسيطة . هل سيتسع الزيتون في القطرميز الجديد أم لا؟ هل سيتمكن من كتابة هذه القصيدة بصورة تتحرر فيها من سطوة التراث أم لا؟ كان أسامة إسبر طبيعياً ، وكان يبرر لي بين الوقت والآخر مأساة أدونيس ، بعد أن احترق والده الشيخ في الحافلة . حياة الفقر والحاجة . كان يتحدث عن آخر كما لو كان يتحدث عن شخصية قرأ عنها في رواية .

***

بقي علي يعيش ، دون أن ينتبه ، مواصلاً العمل الهادئ الذي كانت قد بدأت به جدّته . في العام 1840 كانت سلمية مهجورة يعاد إعمارها على يد الأمير إسماعيل بأوامر من العثمانيين ، فقد كان السلطان قد أصدر فرماناً جاء فيه «تتوقف الملاحقة عن كل من يرغب بإعمار شرقي نهر العاصي وغرب

البادية السورية ، كما يعفى من الجندية من دفع ضريبة الدولة» . وكان هذا الفرمان بداية رحلة الأمير إلى شرقي العاصي إلى سلمية التي كانت تدعى مدينة الأئمة . تقدم الأمير نحو حمص ، ثم توجه إلى الشمال الشرقي صوب سلمية . ويقال إنه بعد أن نزل فيها ، قيل له إن هذه ليست سلمية بل المشرفة ، فرحل من جديد حتى وصل إلى ما تم التثبت من كونها مدينة الأئمة ، حيث القلعة القديمة . حينها جمع الأمير الإسماعيليين من كل مكان قدر عليه كي يسكنوا في مدينته ، حينها ضمت الجدة فطوم ولديها علي وأحمد إلى صدرها في نهر الخوابي ، وطلبت منهما الرحيل إلى سلمية .

***

في جبلة ، التي كانت مدينة سنّية متعددة الثقافات ، قبل أن يهبط إليها العلويون من الجبال ، مررتُ لزيارة الشيخ محمد علي إسبر ، كان قريباً لخالي صبحي من ناحية زوجته ، عالماً علوياً جليلاً ، يقضي وقته في القراءة والكتابة والتأمل ، وكان مسحوراً بأبي ذر الغفاري . لم يكن ينظر إلى النظام ، على أنه يمثل العلويين ، ولعله كان آخر العلماء الذين تبقوا من تلك الطائفة التي دمّر تكوينها الروحي حافظ الأسد ، كي لا ينافسه أحد . لوهلة تشعر أن الشيخ كان يعيش خارج الزمن ، يسكن في زمنه الخاص . في حديقة بيته ، جلستُ على الأرض مع امرأة سبقتني إليها ؛ في ظل شجرات الفتنة التي يفوح عطرها

ليـــلاً ، كـــان أهل جـــبلة يطلقـــون على تلك المرأة «أم علي أدونيس» . لكننا لم نتحدث عن ابنها ، كانت تشرح لي طريقة إعـداد الأكلة العلوية الشـهـيـرة «المتـبلة» التـي تتكون من لبن مخلوط بالحبوب .

الرطوبة كـــانت ملمح جـــبلة الأســـاسي ، رطوبة على الجدران ، تظهر كبقع تقشر من طلائها ، وخطوط متعجرة ترتسم عشوائياً من الأسفل إلى الأعلى ، ورطوبة أخرى على الوجوه ، تعكس الخمود العميق الذي كان يعيشه أهلها . كان الأوان قد فات ؛ لأن الستينات كانت قد أحكم فيها الأسد طوقه على رقاب المدينة وما حولها من ضيع وأرياف .

قدّم لي أسامة صديقه مجد ، عشنا معاً فترة في بيت دمّر ، كان سليلاً لعائلة حكمت القرى العلوية قديماً ، بفضل سطوتها العشائرية ومكانتها الإقطاعية . سرعان ما تحولنا إلى صديقين إضافيين في ليل دمشق . كان شاعراً أيضاً ، استولت على تفكيره الدقة ، فصارت وسواسه الدائم . كان جدّه الأغا واحداً من أكبر ضحايا حافظ الأسد ، فقد كان الأسد قد أمر جنوده بأن يصادروا جرار الأغا الزراعي ، لكن ليس في أيّ وقت ، بل طلب منهم أن يختاروا اللحظة التي يكون الأغا فيها راكباً عليه ، كي يهينه أكثر ، ويكسر شوكته .

شقيق الأغا إبراهيم ، كان مسؤولاً كبيراً في ما عرف بدولة العلويين ، التي أعلنتها قوات الاحتلال الفرنسية في العام 1925

في الساحل السوري .

كانت تلك الدولة ، حلماً عابراً ، تمسك به كثيرون ، وأعادا إحياءه بصور مختلفة ، وإن كان من المستحيل البقاء في دولة العلويين التي أعلنت وانهارت يوماً ما ، فلا بأس بتحويل سوريا كلها إلى دولة بديلة للعلويين ، تضمن هيمنتهم على كل مفاصلها .

وكان إبراهيم يرى أن الدولة العلوية تشبه لبنان ، لا سوريا السنية ، ولذلك رفض مع طبقة من الأعيان العلويين مشروع الاتحاد السوري الذي يجعل من الساحل جزءاً من سوريا ، التي ستشمل دمشق وحلب وحمص وحماة ودير الدزور وإدلب وحوران والسويداء وغيرها ، وهو أحد الموقعين مع سليمان مرشد ، على الرسائل المؤرشفة في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية (سوريا/لبنان ـ المجلد 492-493) والتي وجهت إلى الحكومة الفرنسية رافضة ضم الساحل إلى الدولة السورية . كانت كلمات إبراهيم هذا ذات وقع خاص ، لم يتغير مع مرور الوقت ؛ «دولة ليون بلوم رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ؛ سيدي : عطفاً على برقياتنا وكتبنا السابقة ، نتشرّف بعرض ما يأتي : إنّ العلويين الذين يشكّلون الأكثرية الساحقة من سكّان حكومة اللاذقية ، يرفضون الرفض الجازم رجوعهم إلى النير الإسلامي السنّي ، ويذكّرون فخامتكم ورجال البرلمان الإفرنسي على اختلاف الأحزاب ، بتعهدات المفوضين الساميين باحترام

الاستقلال العلوي ، وعدم إحداث تغيير إلا بعد أخذ رأي العلويين وموافقتهم ، وهذه التعهدات تشهد في نظرنا على الأقل كل حكومة فرنسية ، بل تفيد شرف فرنسا وكرامتها . إننا نؤكد لفخامتكم بمناسبة المفاوضات الإفرنسية ـ السورية أن كل اتفاق مع السوريين على قضيتنا مهما كان صغيراً لا يفيدنا مطلقا ولا نعترف به ولا بقانونيته ، بل نعدّه خروجاً من قبل المفوض الإفرنسي على مبادئ فرنسا السامية ، وعلى وعودها بل وعلى مبادئ الإنسانية التي لا تجيز لشعب أن يتحكّم بمستقبل شعبٍ آخر دون رضاه» . لكن آخرين مثل الشيخ عبدالرحمن الخيّر ، كانوا يرفضون مثل هذا النهج في التفكير ، ولهذا أطلق الناس على الخيّر لقب «الشيخ الرئيس» لينصبوه رئيساً على الطائفة العلوية . كان الخيّر ممن هاجروا من القرداحة ، وسكن الميدان في دمشق ، وأخذ يوقّع هكذا ؛ عبدالرحمن الخيّر الميداني . كان الخيّر يرى غير رأي كثيرين من نخب العلويين ، منذ أن أسس مدرسته «التهذيبية» في القرداحة ، قبل أن يعتقله الفرنسيون ويصادروا كتبه ومخطوطاته .

***

سوريا بلاد الجنون والآلهة . وإذا كان نائب بدين في البرلمان السوري حمل اسم سليمان مرشد قد أعلن نفسه إلهاً ، وصار له أتباع يعبدونه وطائفة تنتسب إلى اسمه ، فما الذي يمنعني أنا من ذلك؟ أشاهد الشريط ذاته ألف مرة ، عشرة آلاف

مرة . أعيد مشاهدة حياتي . كل الصور ، كل الضحايا ، كل اللحظات التي اتخذت فيها قراراً بإعدام أحدهم دون أن يرف لي جفنٌ ، كل الابتسامات التي كنت أرسمها متعمداً على وجهي . لم أكن أتقن الابتسام . لا شيء يدعو للابتسام . ممددٌ هكذا . في عزلتي . ماذا يفعلون خارج هذه الغرفة؟ ماذا يفعلون؟ تذكرت أن من أعدموا سليمان مرشد في العام 1946 كان هؤلاء الدمشقيون أنفسهم . لن يغفر لنا الظلاميون العقل الروحاني الإبداعي الذي نمتلكه .

***

بقي مجد يزدري آل الأسد ، بحكم ازدراء أسرته لهم ، وبالتالي كان يزردي معهم كل ما نتج عن حكمهم من أنساق اجتماعية وسياسية وثقافية ، بما في ذلك المجموعات التي تشبه «حراس الأرض» ، وكان هذا ما يميّزه ، مثل أسامة ، عن الآخرين ، رغم أن الآخرين كانوا يحيطون به من كل جانب ، أقارب وأبناء عمومة ممن أصبحوا عصب النظام وقوته الضاربة في أركان الدولة . كان الأسد بحاجة ماسة إليهم ، فمن غيرهم تكون شرعيته مجروحة في بيئته الأم ؛ إذ لا بد من مصادقة الإقطاع والعشائر العلوية الكبرى على مقام وليّ الأمر . وشيئاً فشيئاً اختار مجد لنفسه أن يخلع الرداء كله ، متخذاً هيئة الناقد للظواهر والأدب ، مبتعداً عن الفوضى السورية .

***

في حي الروضة في دمشق ، دخلت منزلاً معتماً ، شغلت مكتبة عملاقة مساحة صالة كبيرة فيه . كان صديقي البحريني عبدالرحمن النعيمي الذي لجأ إلى دمشق مع القادمين إليها ، قد واعدني فيه لشرب القهوة . كان يريد أن يقدم لي هدية ، عبارة عن نسخة ممنوعة من كتاب «حرب العالمين الأولى» . كان النعيمي معارضاً للحكم في البحرين ، قليل الكلام ، صوته منخفض وهامس ، وكان الكتاب الممنوع من تأليف خالي صبحي . حرب العالمين الأولى كانت العنوان الذي اختاره له ، ليجمع ويحرر كل ما أمكن حول الحرب على العراق ، مقالات وتحليلات ومعلومات تضع الحدث في سياقه التاريخي ، ثبّت فيه خالي في مقدمة الكتاب بعض العبارات التي كان الجنود الأميركيون يكتبونها على القذائف الصاروخية : «إلى صدّام وعَرَبه ، مع تمنيات (الكفرة)» علق على هذا بالقول : لقد طهّرني المشهد من آخر الأوهام حول علمانية الغرب . انتشر الكتاب بين الناس حينها سرّاً ، وكان غزواً من نوع آخر في مملكة الصمت السورية ، وكان خالي يتحدث حينها عن اللغات العديدة المتشعبة والمتنوعة ، التي يمتلكها الأميركيون في الإرسال والاتصال . الإنتاج والتكنولوجيا التي استخدمت كوسيلة سياسية ، تمثلت في حظر تصدير التقنية العالية لممارسة الضغوط على شعوب العالم ، وكذلك تكريس حالة تناقضية ثقافية سياسية عالمية ،

مثل «الرأسمالية» و«الديمقراطية» ، إضافة إلى قيام الولايات المتحدة بتصدير أسلوب حياة خاص إلى العالم ، دون استيراد أي شيء عملياً ، من المجلات المصورة الأكثر انتشاراً من الرواية إلى ماكدونالد ، دجاج كنتاكي ، البرامج التلفزيونية البوليسية الأكثر شيوعاً من البرامج الثقافية والإخبارية والتربوية .

***

صور بالأبيض والأسود

سحرني الظهور على الشاشة ، ومخاطبة الملايين ، وأكثر منه ، كانت تشدّني لعبة التآمر مع المشاهدين أنفسهم . جرّبت في برنامجي أن تكون لما أقوله مستويات مختلفة ، مستوى عام ، ومستوى يثير العامة ، ومستوى آخر يحمل الشيفرات التي يعرف السوريون كيف يفكونها وهم في بيوتهم أمام الشاشات .

***

الطريقة التي كنت أروي فيها لصديقي اليهودي تلك اليوميات كانت قد أدخلته وأدخلتني معه في ذلك الزمن عبر اللغة وحدها ، صباح التاسع من تموز ، وجد مسيحيو دمشق أبواب بيوتهم معلّمة بالصلبان التي رسمها أحد ما بالكلس ، كأنما كانت تلك الإشارات دلائل للإشارة إلى أهداف قادمة . عرف أحمد باشا من فعل ذلك ، فألقى القبض على عدد من الصبيان الدمشقيين المسلمين ، وأمرهم بمسح وتنظيف الحي المسيحي وإزالة تلك العلامات ومحوها بمكانس الزبالين ، وهم مكبلون بالسلاسل على مرأى من جميع الناس . اعتبر مسلمو دمشق أن هذا المشهد إهانة بليغة لهم ، فتضاعف الاحتقان في صدورهم . طاف موكب المهانين في شوارع الشام ، وحين بلغ

باب البريد قرب الجامع الأموي ، رآه المصلون فانفجروا بالصياح ضد المسيحيين ، وتوجهوا نحو الحي المسيحي والغضب يسيطر عليهم . انضم إلى هؤلاء كل من الأكراد والدروز والشواغرة والميادنة والبدو . كان أحمد باشا يراقب صامتاً ، حتى إنه سمح لجنوده بمشاركة المهاجمين في فعل ما كانوا يفعلونه ، وكانت مراكز البعثات التبشيرية أهدافاً للمهاجمين الذين قاموا بإحراقها ونهبها ، كما نهبوا الكنيسة المريمية والبطريركية الكاثوليكية والكنيسة الأرمنية والقنصليات الروسية والفرنسية والأميركية والهولندية والنمساوية واليونانية ، فقتل القنصل الأميركي والهولندي ، ولم يتعرض أحد بالأذى للقنصلين البريطاني والألماني حليفي السلطان التركي .

***

لم تكن سلمى تمثالاً مرمرياً صامتاً . كلماتها الممتلئة بالبهجة ، كانت المعادل الآخر لقلقي .

***

آثار خطوات الأمير عبدالقادر على شوارع دمشق الحجرية ، كانت تقودني إلى الأماكن التي تحرك فيها في زمنه . لباسه الأصلي الذي وضعته على جلدي ، كان يجعل من خلايا جسدي خلايا حادة الحس ، بوسعها أن تشعر بلهيب الحرائق ، وأذناي كانتا تسمعان الصرخات . كنت أريد هذا ، حتى أستغرق أكثر في الماضي الذي لم يغادر بعد .

طلبت مني الأميرة بديعة ، بصوتها الذي حفرته كجذع دالية ، سنواتها التسعون ، أن أتكتم على دور جدها في إقناع السلطان العثماني بمشروع كان قد قُدّم إليه . قالت إن دور الأمير في ذلك ، ساهم في تقسيم العالم الإسلامي ، لكني لم أستطع إغماض عينيّ عن رغبة الأمير عبدالقادر في تغيير المشرق ، كان تواقاً إلى المستقبل ، بينما يعيش جيلنا اليوم مأساة الفقر الفكري والعزوف عن التنمية .

***

لم يفلح الأمير عبدالقادر في إقناع زعماء الدمشقيين الغاضبين بخطأ ما يقومون به ، فقرر الاكتفاء بحماية المسيحيين بنفسه بالتعاون مع وجهاء الشام . ذهب معهم إلى الحي المسيحي وأخذوا يبحثون بين الحطام عن ناجين أو مختبئين بين بقايا البيوت المحترقة ، وتم تجميع الكثيرين في القلعة بعد أن نصبت لهم الخيام .

في بيتها في الروضة ، أخبرتني الأميرة بديعة ، كيف جاء فردناند دي ليسبس إلى دمشق ، إلى بيت الأمير عبدالقادر ، وعرض عليه مشروعه لشق قناة على الأرض المصرية تصل البحرين ببعضها البعض ؛ البحر المتوسط والبحر الأحمر . كان يريد منه أن يقنع السلطان العثماني بالمشروع . وكان من الطبيعي أن تدور مناقشة مشروع كهذا في دمشق دون سواها ؛ إذ كيف يمكن لمتغير كبير مثل هذا أن يحدث دون أن يكون

لدمشق دورها في دفعه إلى الأمام . رأى الأمير أن مشروع قناة السويس سيجعل من المشرق قبلة للعالم من جديد ، وسيجلب له الحضارات كلها ، لترفع وعي سكّانه وتغيّر أحوالهم .

لكن الإسلاميين رأوا أن القناة كانت مؤامرة ، وأنها فصلت سيناء الآسيوية عن مصر الإفريقية ، وأبعدت جناح الأمة في بلاد الشام والحجاز ونجد والعراق عن جناحها في مصر والمغرب .

***

كانت الفكرة في رأسي ، وكان السؤال قديماً على لساني ، إلا أن إخاد كان هو من طرحه ؛ ماذا فعلت الدول الكبرى الغربية من أجل حماية مسيحيي دمشق حينها؟

- لم تفعل شيئاً .

- كيف لم تفعل؟ قامت قيامة الصحافة الغربية ، ونشرت صحيفة النيويورك تايمز رسالة جوابية من الأمير عبدالقادر تصف ما حصل .

- أعرف هذا صديقي . لاحظ كيف وصف الأحداث ، ولاحظ الأرقام الواردة في رسالته أيضاً ، لا توجد عشرات الآلاف كما قالت المصادر التي ذكرت «طوشة النصارى» ، لكن عدد ثلاثة آلاف ليس قليلاً . كانت مجزرة ، لكن ماذا فعل الغرب لحمايتهم كما تقول؟

- هل بقي أحد من الملوك والأباطرة لم يكرّم الأمير

عبدالقادر ويرسل له وساماً بسبب حمايته للمسيحيين؟

- لا . معك حق . كلهم فعلوا . لكن كيف أنقذوا المسيحيين؟

- لم ينقذوهم .

- أنا أقول لك . فتحوا لهم باب الهجرة ، وجاءت سفن فرنسية وبريطانية ورست على الشواطئ اللبنانية لترحيلهم بعيداً عن الحرب الطائفية . استطاعت تلك السفن نقل أعداد كبيرة منهم .

- صحيح .

- ما هو صحيح أكثر ، أن مسيحيي دمشق كان ينتظرهم مصير آخر . أعيدك إلى حنا بولاد . إياك أن تنساه .

***

لم يقل لي أحد من الذين بحثت في ما لديهم عن الأمير عبدالقادر ، أيّ معلومة عن الشيخ سليم العطار والمفتي محمود الحمزاوي ، ولا عن دور لهما في حماية مسيحيي الشام من تلك الأحداث . كانت الخريطة السكانية الحالية لدمشق ، تقول بنفسها ما حدث . تفسّر كل ما تم طمسه .

***

لم يكن من بين أصدقائي الدمشقيين من يمكن اعتباره واحداً من أحفاد مرتكبي تلك المجازر . كان سبب هذا غامضاً بالنسبة إليّ ، ولم أستغربه ، بقدر ما بحثت بكدٍ في كيف جاء

آباء وأجداء هؤلاء؟ وأين ذهب أحفاد أولئك؟

***

باءت المحاولات الأولى للعجوز المحبوس بالفشل . انتحاره كان خطة هزيلة ، فقد اكتشفته الممرضة وهو آخذٌ بالتحول إلى اللون الأزرق ، بعد أن ربط غطاء السرير حول رقبته . كان يريد أن يشنق كالذين شنقهم من قبل ، لكنه لم ينجح .

***

ـ هددت السفن البحرية الفرنسية بالتدخل في دمشق لحماية المسيحيين ، وأرسلوا قوات إلى رياق ، لكن الأمير عبدالقادر خرج بمقاتليه لملاقاتهم هناك ، وهناك دار حديث عن أمرين رفضهما الأمير ؛ الأول كان التقدم العسكري الفرنسي نحو دمشق ، وهو ما كان يدرك خطره الأمير بعد ثورته الكبيرة في الجزائر . الثاني كان أخطر من وجهة نظر الأمير عبدالقادر ؛ نقل المسيحيين الدمشقيين إلى الريف الفرنسي وتوطينهم هناك ، وهذا ما يعكس تفكير الأمير عبدالقادر المستقبلي ، فماذا لو تحوّلت دمشق إلى مدينة تطرد أبناءها ، خاصة إن كانوا من الذين يحملون على أكتفاهم أهم صناعة في ذلك الزمن ، الحرير . رفض الأمير هذا كله ، وهدّد الفرنسيين بأنه سيغادر إلى الجزائر من جديد وسيواصل ثورته ، وسيمزق الاتفاقية التي عقدها معهم بوقف الحرب قبل سنوات ، إن هم تقدموا نحو دمشق أو أخذوا المسيحيين الدمشقيين في البواخر .

ـ هذا بحث الحرير ذاته .

ـ هذا هو الموضوع أصلا . انظر إلى خريطة الحرائق في دمشق . أين كانت الأنوال؟ وهل بقي منها شيء؟

ـ كانت في الحي المسيحي ، ولم يبق منها شيء .

ـ لم يقم عبدالقادر بحماية المسيحيين من المسلمين المتعصبين فقط ، بل قام بحمايتهم من الأوروبيين أيضاً ، حين منعهم من الهجرة ، وأعاد توطينهم في حيهم في مدينتهم دمشق .

***

بدا الشارع المستقيم والكنائس والحي المسيحي وقد دمّر تماما ، وهبّطت السقوف وخلعت الأبواب والنوافذ . الصور توحي بأن تلك الحارات صارت مثل الآثار ، حتى طرقاتها محروثة . جرّبت المشي في الطرقات ذاتها ، كي أتخيل وصول فؤاد باشا من إسطنبول . أرسله السلطان لتدارك الأمر وإجراء التحقيقات اللازمة ، فقد خرجت الأوضاع عن السيطرة .

***

داخل سلمى ، يسكن شخص يشبهني ، يجادلني في أفكاري ، وغالباً ما يقتنع بما أقول ، لكنه ينقلب عليّ كل مرة ، ويقنعني بما يشاء . كان جداله معي مثل ممارسة الجنس ، لا غالب ولا مغلوب ، لا بد من شراكة في اللحظة والخروج من الجسد .

ـ أنت مجنون .

ـ لماذا تقولين هذا؟

ـ واضح ، لا ضرورة لشرح الأسباب .

ـ لكني لا أريد أن أكون مجنوناً .

ـ لا بأس . أنا أحبك هكذا .

ـ وأنا أحبكِ هكذا . لكني أعترف لك أن الشيء الوحيد الذي فعلته دون جنون ، هو جنوني بكِ .

***

ـ ماذا فعل فؤاد باشا؟

ـ قرّر إلقاء القبض على ثمانمئة رجل . جلب معه قضاة أتراك ، وأصدرت محكمته أحكامها على سبعة وخمسين شخصاً ، قضت عليهم بالإعدام شنقاً ، وعلى أكثر من ثمانين بالإعدام غيابياً ، لأنهم كانوا قد فروا . الحكم على أكثر من مئة جندي عثماني بالإعدام رمياً بالرصاص . وطال الحكم بالسجن مدى الحياة أكثر من مئة وثمانية وستين رجلاً .

الحكم التالي كان هو الأكثر تأثيراً . فقد قضت محكمة فؤاد باشا بنفي أكثر من مئة وخمسة وأربعين دمشقياً خارج البلاد ، وتكرر هذا الحكم والأحكام التي سبقته ، كلما كشف التحقيق المزيد .

لكن فؤاد باشا كان يريد معاقبة دمشق أيضاً ، فلا يكفي برأيه أن تعاقب الجناة ، لذلك حكم على المدينة أن تقدّم ألفي

رجل للجيش العثماني على الفور ، يساقون بعيداً عنها ، وقام بسجن الطبقة الرفيعة في دمشق ، من علماء وتجار وأعيان ووجهاء وأعضاء لمجلس حكم المدينة ، مع مفتي دمشق وخطيب وإمام الجامع الأموي ، وشمل النفي والإبعاد عن دمشق كثيرين من بينهم المفتي والإمام اللذين اختيرت لهما قبرص ، ثم تم نقلهما منها إلى أكثر من مكان بعدها ، ولم يمض وقت طويل حتى أمر بإجلاء أعيان دمشق كلهم عنها ، ولم يكتف فقط بالمفتي طاهر الآمدي والشيخ عبد الله الحلبي وعمر الغزي وأحمد الحسيبي وعبد الله العظم ومحمد العظمة وآخرين . نفوا إلى قلعة الماغوصة في جزيرة قبرص ، وبعد أن مضت عليهم فيها سنتان ، صدرت الأوامر بنقلهم إلى إزمير ليبقوا فيها ثلاث سنين طويلة . أما أحمد باشا فقد صدر عليه الحكم بالإعدام رمياً بالرصاص ، مع قادته العسكريين . المسيحيون الذين أشهروا إسلامهم أثناء الحوادث ، أمرهم فؤاد باشا بالعودة إلى المسيحية ، وصادر من مسلمي دمشق أربعة أحياء كاملة ، ومنحها للمسيحيين ، وأمر بأن يدفع مسلمو ويهود دمشق تعويضات للمسيحيين ، ممن تضرروا مما حدث ، وشملت تلك المبالغ التي فرضت على الدمشقيين الجميع ، باستثناء ألفي رجل كان الأمير عبدالقادر من بينهم ، بسبب حمايتهم للمسيحيين آنذاك .

***

ـ تغيرت دمشق .

ـ متى؟

ـ تغيرت كثيراً .

ـ عن أيّ تغيير تتحدث؟

ـ أتحدث عن تغيير سكانها بعد طوشة النصارى ، تم قلبها رأساً على عقب . دمّرت نخبتها ، وتم التنكيل بمجتمعها ، ورفعت أسافلها ، وتم استبدال أعيانها بالموالين للسلطة .

كان صديقي اليهودي العائد إلى دمشق ، يشعر بتأثر بالغ ، وأنا أروي له ، كان يعرف القليل ، لكن التفاصيل تصنع الصورة من جديد ، حتى كدنا نمسح الآن عن رأسينا رماد الحرائق القديمة التي اندلعت في العام 1860 وتندلع الآن ، بالأيدي ذاتها ، وإن اختلفت طوائف وأديان وأعراق الجناة .

قال هو أيضاً متنهداً : نعم دمشق تغيرت .

ـ تغيرت بعدها مرات ومرات ، لكن تغيّر دمشق كان ينعكس على الفور على المشرق كله ، المشرق كلّه يتغير حين تتبدل ألوان الشام .

ـ هل ستبقى تتغير؟

ـ ستبقى هكذا ، لا يمكن تثبيتها كصورة فوتوغرافية ، أو لقطة فيديو بمفتاح الباوس .

ـ يمكن للدكتاتورية أن تفعل . فعلت هذا أصلاً .

ـ لا . لم تفعل . هذا وهم .

***

أعدّ أيامي في دمشق منذ اليوم الأول الذي وصلت إليها فيه ، أدّون كل شيء بطريقة ما ، في دفتر صغير ، أو في لوحة إلكترونية خلف دماغي ، أو في تسجيل صغير أو فيلم أو برنامج أو كتاب . لا يوجد راوٍ لروايتي ، ولا أبطال تشحذ الشعور كرأس قصبة الخطاط . ما يزال الخطاط ينثني مع حرف الواو الكبير ، بحبره الأسود في الجقمقية ، وما تزال كتابات حجرية نافرة بالثلث على جدران تصعد أمامي وتهبط كشاشات عملاقة .

***

عصف الاكتئاب بمظفر ، وسجن نفسه في دمشق أولاً ثم في جسده . كنت أرى الباركنسون قدراً غير عادي لنادرين من البشر . كتبت عنه في كتابي الأول ، وعن ليوناردو دافنشي الذي كان من أوائل من وصف ذلك المرض الرجيم «كانوا يحركون أيديهم وأرجلهم المرتعشة ، دون أن يحصلوا على إذن بذلك من الروح» .

لا أحد يعلم بماذا يفكر سجين الباركنسون ، كما لا أحد يعرف ماذا يدور في رأس سجين معتقلات الأسد ، ولا سجين الظلام ، ولا سجين الزنازين الفكرية غير المرئية .

***

اندثر خليل واندثرت معه علاقاته العامة ، فبات قليل الظهور ، لكن اغتيال عماد مغنية قائد العمليات الدولية في حزب الله ، في قلب دمشق ، أعاده إلى ذاكرتي ، فلم يكن

حـدثاً عـادياً ، وشـاءت الصـدف أن يكون الضـابط المكلف بالتحقيق في تلك الحادثة ، صديقاً لي ، تعرفت عليه من خلال مراجعاتي الدائمة للشرطة للحصول على ما تسميه السلطات «غير محكوم» ، وتلك الوثيقة على كل مواطن أن يجلبها إن شاء أن يتم قبول معاملاته مهما كان نوعها ، كي يبرهن على أنه غير مطلوب للسلطات أو غير محكوم بأي جريمة مهما كانت صغيرة أو كبيرة .

كان ذلك الضابط طيباً ولطيفاً ، وعمله في الشرطة يجعله بعيداً عن ممرات المخابرات الخطرة ، قادم من ريف حماة ، لم أعرف إن كان مسلماً أو مسيحياً أو إلى أي طائفة دينية يرجع . كان اسمه يصعب التخمين ؛ «عهد» . لا يهم ، فقد صرنا صديقين ، يستضيفني كلما ذهبت إلى القسم المختص بتلك الورقة ، ويدعوني لشرب القهوة ، وأحياناً يتصل بي لإلقاء التحية .

وحين مررت على الرائد عهد هذه المرة ، كان عائداً من التحقيق في حادث اغتيال مغنية . كان مشتت الأفكار ، وعاجزاً عن فهم الأمر . قال إنهم لم يسمحوا له بإجراء التحقيق ، وإنهم سبقوه إلى هناك . سألته من هم؟ قال إنه لا يعرف . لكنه لم يجد شيئاً ، حتى إن البطانية العسكرية التي وجدها في سيارة مغنية ، لم تكن قد احترقت . علامات كثيرة أثارت استغرابه ، وكان متأكداً أن اغتياله لم يكن بعملية إسرائيلية .

أخرجه من صمته ، حاجبه الذي استأذن قائلاً إن زوجة الملك في الخارج ، وإنها تريد الدخول ومقابلة الرائد ، فأذن لها . زوجة الملك؟ أي ملك؟ لا يوجد في دمشق سوى ملك واحد ، ما غيره . ملك السلاح والعملة والسوق السوداء .

دخلت المرأة ، فطلبتُ أن أغادر ، لكن الرائد عهد طلب مني البقاء . كانت تحمل حقيبة جلدية سوداء فاخرة الصناعة ، متوسطة الحجم ، بدت أكبر من حجم حقائب اليد النسائية المألوفة .

قالت له إن هذه الحقيبة هي ما وجدته في مكتب الملك بعد موته قبل أيام بسبب الفشل الكلوي . فتح الحقيبة ، نظر فيها نظرة سريعة ثم شكر المرأة وطلب منها المغادرة ، وقال إنه سيتصل بها .

خرجت المرأة بالسواد الذي كانت ترتديه ، بينما كان الرائد عهد يفتح الحقيبة ، ويرينا ما بداخلها .

ـ هذا مسدس ماكاروف عيار ٩ مليمتر روسي الصنع ، وهذا بيريتا إيطالي ، أليس هذا الرمز كالرمز المحفور على أسلحة الإف بي آي؟ و هذا . . . .

ـ كأني عرفت صاحب هذه الحقيبة . هذه عينات للبيع .

ـ سأحقق بالموضوع .

ـ لا أنصحك .

ـ انظر رشاش صغير . . الله أكبر . .هذا من نوع عوزي

إسرائيلي ، وهذه قطعة إضافية . كواتم صوت! ما حاجة تاجر سلاح إلى كواتم صوت!

ـ واضح لماذا . أكيد ليست للدفاع عن النفس أو للصيد .

ـ للاغتيالات؟

ـ لذلك قلت لا أنصحك .لا تحاول حتى ، هذا الرجل كان مجرد أداة ، وهناك من يحرّكه . يمكنك أن تتخيل من هم الذين كانوا يصدرون إليه التعليمات .

خرجت من مكتبه ، وأنا أفكر في ماهية تلك العلاقة التي يمكن أن تجمع ما بين صحفي وبائع موت مثل هذا الميت؟ أي حوار كان يدور بين خليل والملك؟ .

***

اتصل بي كاسر بعد أن عدت من بيروت ، كانت مقالتي التي كتبتها ، بعد أن تم توريث ابن الدكتاتور الحكم في سوريا بشهور ، قد أثارت جدلاً بين السوريين ، قال إن سؤالي في المقال أخطر من التوريث ذاته . تحدث طويلاً على مدى ساعات . كان يحتفل بالسؤال كمن عثر على اكتشاف يحدث مرة في التاريخ ، وكان السؤال «لماذا اختارت ملايين السوريين الانخراط في الفساد ونظامه ، بدلاً من الاحتجاج عليه؟» .

***

ما يزال القادمون إلى دمشق يتدفقون إليها من كل مكان . الحج المعرفي إلى الشام ، عادة كونية . زارني ياكوب بيترسون

قـادمـاً من الدنمارك . كـان يبـحث في دمـشق عن التطرف الإسلامي ، لكنه اختار أن يبدأ من جمعيات «حفظ النعمة» ، وتلك التي تجمع الزكاة . ياكوب كان عاشقاً لنا ، للشام . ليس كمستشرق ، بل كمؤمن حقيقي بفضائنا البديع . في مكتبه في قسم كارستن نيبرو علّق صوراً لعلماء دمشق ، وفي بيته في ضاحية من ضواحي كوبنهاغن ، أخذني من يدي ، ليدلّني على صورة علّقها في صدر قاعة من قاعات البيت . الصورة بالأسود والأبيض . سألني هل عرفت ما هذا الذي في الصورة؟ قلت : مدينة قديمة من مدن الشرق . قال : هذه حماة ، وهذا الذي في الصورة الجامع الأموي في حماة ، الذي هدمه الأسد الأب تماماً ، وبنى فوقه مباني حكومية . قال ياكوب : إن أجساد الضحايا السوريين كانت من ضمن مواد البناء التي اختلطت مع الأساسات حينها .

***

بيكار وميزان ومنقلة

خرجت كعادتي قبل ظهر كل يوم ، من تلك الغرفة في بيت الصواف في حارة المصبنة ، مررت بكنيسة الأرمن ، لم يعد الأرمن يذكرون مجازر الأتراك إلا كذكرى سياسية ، لا تعني لهم شيئاً إنسانياً ، ولا يشبهونها بما قد تتعرض له شعوب أخرى بعدهم . انعطفت يساراً نحو ساحة باب توما ، أجريت اتصالا برقم غريب ظهر أكثر من ثماني مرات على هاتفي النقال .

ـ مرحبا . هل اتصلت بي؟

ـ نعم . أهلا أستاذ إبراهيم . معك زياد زياد .

ـ من؟

ـ زياد زياد . ألم تعرفني؟

ـ عرفتك . أهلا وسهلا .

ـ قرأت مقالاتك من لمّا كنت في بيروت ، وقرأت ما كتبته بعدها ، وأرغب بلقائك لأمر ضروري .

كان هذا الرجل قد ظهر قبل أيام على الشاشات في مؤتمر صحفي ، كشاهد ملك على جريمة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري ، وكان يتحدث لصالح المخابرات السورية . لم

ألتق به من قبل ، ولا أعرف ماذا يريد مني .

***

ظهيرة مقهى الروضة الدمشقي في شارع العابد ، لا شيء يرطّب الهواء سوى نافورة الماء الصغيرة . طاولتي الرخامية الصغيرة ، تميل على الأرض الحجرية المتماوجة ، يميل معها فنجانا القهوة اللذان يرسلان بخاراً يفصل بيني وبين وجه صديقي سالم المخرج التلفزيوني صاحب الأعمال المثيرة . قلت له إن اتصالاً غريباً جاءني من هذا الشاهد ، لم أكن أرتاح حتى لذكر اسمه . كان يوحي بأنه يخفي الكثير دوماً ، ولم يكن يتحدث كشخص بريء . سألني : لماذا لم تسأله ماذا يريد؟ قلت : إن سألته ستضيع القصة؟ ربما لن يقول شيئاً . قال : صوّر له أحاديثه . هل تريد أن أزودك بكاميرا؟ لا بد أن تعرف ماذا يريد .

كان بهدوئه الداخلي أكثر المخرجين السوريين إبهاراً ، ليس فقط على مستوى الصورة ، بل على مستوى لغة الصورة ، والعقل الذي يقف خلفها . كان يبحث بطريقته في دمشق وعنها ومن حولها . جمعتنا صداقة من نوع خاص ، قامت على شيفرة سرية لا تحتاج إلى تفاصيل ويوميات . وكثيراً ما شعرت أن أعماله جزء من رصيدي الإبداعي الخاص ، رغم أني لم أتشارك معه فيها . كانت شيئاً سورياً مختلفاً ، لنا جميعاً . لهذا عملت على تفكيكها بشكل دقيق . كان مهووساً بتحليل

العلاقة ما بين الحاكم والمحكوم ، في التاريخ كما في الراهن .

روح هضبة الجولان التي قدم منها محمولاً على كتف خاله ، مع قوافل اللاجئين ، بعد أن انسحب منها جيش حافظ الأسد لصالح الجيش الإسرائيلي ، كانت هوية مضافة إلى الهويات . أرادت لها السلطات أن تكون هوية معلّقة غير مستقرة ، على هامش الهويات وخارج الحياة ، فبقيت في فراغها الإنساني العالي وبقي أهلها يروون قصصاً عن عالمهم القديم الذي زال إلى الأبد .

***

على شاشة التلفزيون السوري ، وسط آلاف السهام المتوجهة إليك ، والمتأهبة لتثقيب جسدك ، كيف يمكن أن تسأل وريث رئاسة المحفل الماسوني في دمشق عن مصير المحفل اليوم ، دون أن تسأله؟ كان هذا هو سبب اختياري له . أردت أن أطرح عليه سؤالين فقط ، وكانت بقية دقائق اللقاء الخمسين لإحاطة سؤالي بما يلزم . الأول عن المحفل ، والثاني عن النخبة البرجوازية الدمشقية التي لم يعد لها أثر ، أو يخيّل إلينا أنها غير موجودة الآن . كان يعرف حين سمع السؤال أنني أرمي إلى هذا الهدف ، وكذلك عرف ملايين السوريين وهم يتابعون .

«من هو الأخ ناظم الصاياتي؟» ابن بائع البطيخ الفقير ، الذي أصبح شهبندر التجار السوريين ، ورافق حافظ الأسد في كل ظهور له أمام صندوق الاقتراع ، ليدلي بصوته معه ، بطربوشه

الدمشقي الذي يعطي الإشارة الكافية . أهل الشام العميقة يوافقون على بقاء الأسد ، وكان الصاياتي الأب رئيس محفل إبراهيم الخليل الماسوني في المشرق ، مع داود الMارديني ومصطفى القباني وآخرين ، لكن محفل إبراهيم الخليل لم يكن الوحيد في سوريا ، فهناك محفل نور الشرق ، الذي كان من أبرز أعضائه الذين عرفوا بـ«الإخوة» ؛ فارس الخوري وعبدالرحمن الشهبندر ذاته ، ومؤسس الإخوان المسلمين في سوريا ومراقبهم الأول مصطفى السباعي . محفل خالد بن الوليد كان يضم قائد الجيش السوري جمال فيصل في أوائل الستينات . ثمت إلى جانب تلك المحافل ، محافل أخرى كثيرة ، كان من بينها المحفل السوري الأكبر الذي ضم الرئيس السوري الجنرال أديب الشيشكلي .

صعق السؤال ناظم الصاياتي ، ولكنه لم يظهر ارتباكه . قال بصوت عريض وهادئ «الأخ ناظم الصاياتي هو إنسان بسيط يؤمن بقول الإمام علي بن أبي طالب : لا تجبروا أولادكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم» .

كان هذا كافياً لإعادة بسط السيطرة على لحظة الارتباك ، ما دام الجواب سيأتي من علي بن أبي طالب في ظل سلطة يحكمها دكتاتور علوي ، وكانت الإجابة اعترافاً ونفياً في الوقت ذاته .

غير أني لم أتوقف عند هذا ، إذ إن «مصلحة» الصاياتي

المعروفة وتجارته الأساسية ، هي زراعة وبيع المشمش بعد تجفيفه ، وتسطيحه على شكل رقائق ، يصنع الناس منها مشروباً رمضانياً يسمونه «قمر الدين» ، ولكن هذا لا يجعل الرؤساء الأميركيين يزورون مزرعته ، ولا يجبر مراكز القرار العالمية على أن تخصص له مكانة خاصة مميزة . «أنت بائع (قمر الدين) . هل قررت أن تحلّ محلّ البرجوازية الدمشقية التي كانت بارزة حتى الستينات ، واضمحلت في ما بعد؟» .

قال الصاياتي حينها «نعم أنا مجرد بائع قمر الدين . لا أكثر» ، ولم يزد حرفاً على ذلك .

لكن ما أردت له أن يصل كان يصل إلى الذاكرة ، وكان الحراس يستمعون ، حراس المحفل ، وحراس الحكم الدكتاتوري ، وحراس الوعي الجماعي السوري في بيوت البسطاء .

لم يتوقف الأخ الأكبر بعدها عن التواصل معي ، كان الكثير من الظواهر يجري تقليبه في حوارات تدور بلا نهاية مع بائع قمر الدين البسيط .

***

اللقاء الأول مع زياد استمر سبع ساعات متواصلة . كان يتكلم بلا توقف ، لم يكن يبدو شخصاً مهماً ، كانت مهنته التي عرف بها في بيروت كـ«حلاق» ، تكفي لجعله موسوعة من الكلام الفارغ ، لكني التزمت بعدم سؤاله عما يريد مني . يصبح الاستماع متعباً ويحتاج صبراً جميلاً ، بطولات

وعنتريات ، لكن بينها ترد بعض التفاصيل الصغيرة .

ـ أنت ابن بلدي . هل تعرف أني من الجزيرة؟

ـ أهلا بك بالطبع أعرف .

ـ يا ابن البلد ، والله هؤلاء الشوام يريدون منا أن نكون في مؤخرة البشر دوماً ، هم وغيرهم . لا بد لنا من أن نتمرد على هذا . لا يجوز .

ـ طبعاً لا يجوز ، لكن ليس الشوام من يريدون هذا . تعرف من الذي يريد .

ـ آه . أعلم . تقصد الجماعة . لكن صدقني هؤلاء لا يعرفون رؤسهم من أرجلهم . ضائعون تماماً .

ـ جماعات لا جماعة واحدة .

كان خطراً جداً التواجدُ مع شخص من هذا النوع ، فرعاته في المخابرات السورية لا يثقون به حتماً ، وكان غريباً أن يتركوه يتحرك ويثرثر بحريته ، إلا إن كانوا هم من أرسلوه إليّ . هل يعقل أنه كان يتصرف من رأسه؟ لكنني كنت قد أخذت منه كل ما أريد ؛ شهادته التي لم يقلها علناً .

***

تكوينان أضيفا إلى يوميات خالي صبحي في باريس ، محمود درويش وإدوارد سعيد . بانكبابه على شعر درويش كان قد بلغ درجة من إدراك الشعر تتفوق على الكتابة الشعرية ذاتها . وبصورة أو بأخرى ، انفتح أمامه أفق للتفكير في العالم

وحوادثه على أنه جزء من سياق شعري دعمته عقيدته الماركسية المتجذرة . كنت أراقب أثر صداقته بدرويش على ذائقته .

أما إدوارد سعيد فقد أكّد له أنه كان على حق طيلة سنوات حياته الماضية ، في العمل الصارم على المعرفة ومن ثم تقديمها بأناقة ، فلم يتردد ، بعد أن ترجم وحرّر كتاب سعيد «تعقيبات على الاستشراق» ، في القول عنه إنه كان «استعارة حية من لحم ودم لفكرة المنفى» ، ويضرب مثله مثلاً بمنفيين صنعوا العالم الجديد ، من نقطة بعيدة في الشخصية هي الإحساس بالفقد ، الذي يتحول إلى دافع غني للثقافة الجديدة . هؤلاء كانوا آينشتاين صمويل بيكيت وفلاديمير نابوكوف وإزرا باوند وآخرين .

المنفى السوري هو المنفى الفلسطيني ، وهو المنفى اليهودي ذاته . منفى جسدي يبعدك عن المكان ، وآخر روحي ذهني يفصلك عن المكان وأنت فيه . بقي صبحي حديدي في المنفى ، كما عاش آخرون مثله ، تبعثروا في الأرض ، وكان شتاتهم علامة الشعب على ذاته . وفي مكان آخر ، من تلك الأرض القديمة ، كان شتات آخر يحدث كل يوم .

***

ـ يوسف عبدلكي بقي يرسم بالأسود لوحاته الكبيرة ، تحول السرد عنده إلى لقطات . ومن ينظر إلى خيوله الغاضبة ،

وأحياناً المنكسرة ، أو ثلاثيته «أيلول الأسود» ، «البِدْء . التّنفيذْ . الأَمَلْ» ، المرسومة في السبعينات بقلم الرصاص ، ثم يتمعن في الأحذية والأشياء التي أخذ يرسمها قبل الانفجار الكبير في سوريا بقليل ، سيجد أن يوسف لم يخرج لحظة عن سياقه . كان يمشي بانضباطٍ منهجي شديد القسوة . قلت هذا لإخاد ، الذي كان غاضباً هذا الصباح ، مزاجه يتغيّر من دون مبررات ، لكنه يبقى يهودياً . لكن لم تلق كلماتي عن يوسف أيّ اهتمام عنده ، كان مشغولاً بأمور أخرى ، لا تبدو واضحة في عقله ، لكنه مشغول بها دوماً . شعرت بالحرج ، لأني تحدثت دون أدنى رد فعل منه ، وكأن كلامي كان سخيفاً ، أو أنه قيل في وقت غير وقته . تنحنحت ، ونهضت لأفعل شيئاً ما ، لكن إخاد قاطعني :

ـ أنت تعرف يوسف عبدلكي؟

ـ طبعاً أعرفه . يوسف صديقي .

ـ هل هو بيزنطي كما يقول عنه زملاؤه الفنانون السوريون؟

ـ كيف بيزنطي؟

ـ لها معان عديدة . قد يكون القصد منها ، إشارة منهم إلى أنه مسيحي طائفي ، أو أنه تغريبي جداً . الله أعلم . ربما يقصدون انتماء عمله إلى طراز يشبه الفن البيزنطي .

ـ لا أعتقد أن يوسف طائفي ، ولا أيّ شيء مما تقول . يوسف ماركسي .

ـ نعم من رابطة العمل الشيوعي .

ـ صحيح لكنه غادرها قبل سنوات . ثم عاد إليها ، ماتزال علاقته برفاقه مستمرة ، وهل ترى أنت أن رابطة العمل الشيوعي السورية طائفية؟

ـ صار اسمها حزب العمل .

ـ طيب .

ـ لا أستطيع قول هذا . إلا أنك تستطيع أن تفهم وحدك ، حتى إن اليسار كان يسميها رابطة الأقليات ، غالبية أعضائها من أبناء الطوائف الذين لم يقبلوا البقاء مع الحزب الشيوعي السوري بانشقاقاته .

ـ نعم . مثلما كان تيار رياض الترك الشيوعي يتهم بأنه تيار إسلامي عروبي . تريد أن نتحدث عن يوسف أم عن الرابطة؟

ـ عن الرابطة .

ـ حسناً لا يمكنني أن أنسى البيان الذي أصدرته الرابطة في بداية الثمانينات ، حين كان الصدام قد بدأ بين الشعب ونظام حافظ الأسد ، نقله عباس كامل العضو السابق للرابطة الذي بقي معتقلاً أكثر من أربعة عشر عاماً في سجون الأسد . قال كامل إن الرابطة رأت في خضم أحداث الثمانينات أن «البورجوازية التقليدية ، ممثلة بالحلف الرجعي الأسود المشكل داخل سوريا (من الإخوان المسلمين وبعث العراق) والمدعومة من محيط عربي وعالمي ، تجد فرصتها في الانقضاض على

السلطة ، وكل من الشريحتين يقاتل الآخر بجزء من جسد الشعب السوري ، والمفروض العمل من القوى الوطنية على خلق تيار ثالث يخلّص الشعب من بين أرجل المتقاتلين ، ولكن الرابطة ستراقب الصراع وتطوره ، علما بأنها ترى أن الحلف الرجعي الأسود أخطر من السلطة القائمة ، ومن يتوهم أنه من خلال الوصول إلى السلطة سيعطي بعض الحريات مخطئ جدا ، لأنه قادم من خلال أزمة تؤهله أن يحكم بشكل فاشي وعلى أرضية طائفية ، وقد راقبت الصراع وقالت إبان ذروة الأزمة إن الصراع وصل مرحلة كسر العظم ، وإنه إذا دخل عصام العطار (كورنيلوف) دمشق ، فإنه يجب نقل البندقية من كتف إلى كتف والقتال إلى جانب كيرنسكي (حافظ الأسد)» .

ـ هل رأيت؟

ـ نعم . لكن لهذا جذوره الفكرية في علاقات المثقفين السوريين ببعضهم البعض ، بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية والعرقية ، حتى حزب العمل ذاته ، تغيّر كثيراً مع الوقت .

***

توقفت سيارة أتت من آخر الشارع بصورة جنونية . نزل منها اليزيدي وابن الروسي ، قاما بلصق ورقة على علبة الكهرباء القديمة قرب شجرات الكستناء ، وركبا السيارة وغادرا بسرعة كما جاءا .

اقتربت من الورقة ، طبعت عليها صورة الجندي الروسي الأعرج ، وكتب تحتها بالألمانية «رجل مريض مفقود ، خرج قبل أيام ولم يعد إلى المنزل» . تبدّد .. كما تبدّد مثله آخرون . .عشرات الآلاف من القتلة تبددوا في كل مكان .

***

لم يكن سمير معجباً مثلي بياسين الحافظ ، ربما كان ما يجعله يعتدّ به ، فقط كون الحافظ من مدينته دير الزور ، لكن ياسين الحافظ كان موضوع جدال مستمر بيني وبين ناصر وكاسر ، خاصة حين كانا يأتيان إلى دمشق ، كاسر لمتابعة محكمتين ، أولاهما أنه رفض دفع فواتير للبلدية رآها تقهر المواطن وتهين كرامته ، والثانية حين انتحل شخصية طالب جامعي في كلية الأدب الإنكليزي ، فألقي القبض عليه في قاعة الامتحانات . أما ناصر فكان يزور دمشق للابتعاد عن المدينة الفراتية التي كانت تقتله كل يوم بسمٍّ بطيء .

لم أشعر مثلهما أن الرجل يحمل لطخة بسبب انتمائه السابق إلى فكر البعث . كان يعبر نحو فكر جديد ، حين تعمّق في الماركسية الجديدة بعد الفشل في حصول الثورة التي اعتبرها الجميع حتمية تاريخية . ابتدع ياسين الحافظ مفهوم «الفوات التاريخي» وكان يصوّبه مباشرة نحو حالة التخلف الاجتماعي العامة لدى السوريين والعرب عموماً . اشتقه من فوات اللبن ، وانفصاله عن مائه . غير أن خيبة الحافظ كانت

بسبب إيمانه بأن المثقفين في مقدمة الطبقة العاملة ، وحدهم قادرون على إحداث التغيير ، وأن التغيير لن يتوقف على وجود البرجوازية العاجزة عن فعل ذلك . الليبرالية التنويرية كانت أمل ياسين الحافظ ، لكنها لم تنجح في يوم من الأيام ، لا بالتموضع في موضع الليبرالي ولا بتحمّل عبء التنوير . أما الجوهرة التي استطاع أن يقبض عليها ، فكانت تحليله لموقف الأقليات الطائفية والعرقية من الديمقراطية ، وقد تفرّد بفهمه هذا ، دون أن يتمكن أحدٌ من متابعة ما توصّل إليه ، ربما كان السبب في أن موقفاً كهذا سيصطدم مع جراح المجتمع ، ومع باطنيتها التي ألفتها طويلاً في غض الطرف عن مشكلات ، وتأجيل معالجة مشكلات أخرى .

***

بقي محمد يكرّر أمامي أنه يجب أن يذهب . «صار لازم روح» ، ولم يكن يقول إلى أين ينوي الذهاب .

نامت عيون الناس في دمشق في تلك الليلة ، ولم ينم محمد . كان قد قرر الذهاب . صعد إلى الصخرة التي تعلو جادات المهاجرين . صخرة ومغارة كانتا تربضان كصقر وأفعى فوق البيوت . أراد أن يطير كحمائم الشام .

في الصباح عثروا عليه ميتاً ، بعد أن ألقى نفسه في الهواء ، ليرتطم بجروف الصخر الحادة . انتحر محمد تحت تلك السماء التي كانت تحلق فيها الحمائم ، على المصطبة ذاتها ،

التي تكشف دمشق . لم أكن أعرف كيف انتحر ، لكني تخيلته مات هكذا . وحين روى لي أشقاؤه الحادثة ، كانت مطابقة تماماً لما تخيلت . كان العالم شديد القسوة عليه ، ولم يكن هو يريد مواجهة تلك القسوة . بقي طيفه يزورني في كل مكان وكل زمان ، نصلح معاً مدخنة على سطح ، أو نقرأ القصائد ، أو نتأمل ليل دمشق من بيت أمه في أعالي المهاجرين .

***

كان كاسر يثرثر مع نفسه مستنداً إلى باب البيت ، وهو ينهش في الوقت ذاته قطعة لحم بمتعة كبيرة ، كان يتحدث عن موسيقى الغجر ، وعن تأثيرها على الثقافات المحلية ، لأنها تترحّل مع قوافل الغجر وتعبر الحدود دون حسيب أو رقيب ، وتنتقل معهم حين يعبرون منطقة هنا أو نهراً هناك ، بحيرة قريبة أو وادياً أو جبالاً أو صحارى رملية أو ثلجية .

لم ترق أحاديث كاسر عن الغجر لسليمان ، الذي سارع إلى تغيير الموضوع . لكنّي أعدت الحديث إلى ما كان عليه ، سليمان سليل أسرة كردية مقاتلة من جنوب تركيا ، أتت به أمّه تحمله صوب الشمال السوري ، ليتزوجها غجري طيب ، سيصبح والد سليمان الشرعي ، ووالد أشقائه الذين استوطنوا المدينة ودرسوا في مدارسها وجامعاتها . لم تفهم دير الزور هذا ، وكانت تبث حساسياتها تجاهه ، لكنه كان يتجاوز تلك

الحساسيات ؛ ليتحول إلى قلب رحب لا يفكر سوى بالشعر والصداقات الرقيقة .

***

قريني اليهودي في قبونا المحكم ، أخذ يصغي إلى حديث ياسين الحافظ ، وكأنه يسمعه لأول مرة «التأخر العربي العام جعل العقل العربي ، برميلاً بلا قعر ، لا يجمع ولا يراكم ، مع كل صباح نبدأ تجربة جديدة ، وننسى تجربة البارحة ، كما لا نفكر باحتمالات الغد . على الدوام نبدأ من جديد وكأننا وُلدنا اليوم ، أشبه بفئران عاجزة عن اكتشاف أنّ المصيدة تصيد» .

***

الجدل هو السرد ، الحكي ، القص ، هو الثرثرة ، هو حرب اللغة مع اللغة ، وهو الذي لا بديل عنه في هندسة الإنسان مع الإنسان .

***

قال إخاد : معه حق ياسين الحافظ .

ـ معه حق في أيّ فكرة؟

ـ في موضوع الأقليات .

ـ أكيد . جيد أن يصدر عنك هذا ، وأنت ابن أقلية . نسيت أنك يهودي؟

ـ لا . . . لم أنس طبعاً . أضحكتني . لكن متى كان اليهود

أقلية يا صديقي؟ الأقلية تبث الضعف ، اليهود يبثون التفوّق . هناك فرق كبير . لا مجال للمقارنة أصلاً .

ـ أعدنا للفكرة ، لا تستطيع التحكّم بنبرة الغطرسة التي لا تكاد تنام حتى تستيقظ . ما الذي لفتك في تفكير ياسين الحافظ عن الأقليات؟

ـ يقول إن الديمقراطية لا تناسب الأقليات ، لا تتلاءم مع مشروعها . وهذا أعجبني .

ـ هذا كلام دقيق ، وعلمي ، فبالديمقراطية ، لا وجود لأقليات وأكثريات دينية أو عرقية ، هناك مشاريع سياسية اجتماعية ، تتنافس على الصناديق .

ـ والأقليات لا تريد هذا .

ـ لأنه يذيبها في الأكثرية .

ـ ليس فقط يذيبها ، بل يتناقض كلياً مع مشروعها . مشروع الأقليات هو التمايز في المجتمع ، وأخذ حصة بناء على الاختلاف لا على المساواة . في دولة الديمقراطية لا مكان للتمايز بناء على الاختلاف ، بل بناء على حقوق المواطنة والتي تتوزع على الجميع بلا فوارق .

ـ الأقليات تريد أن يكون لها حصّة مسبقة ، قبل دوران العجلة الديمقراطية ، وملء الصناديق .

ـ ربما تخشى الأقليات من هيمنة الأغلبية في حال فوزها في أيّ انتخابات ، وتتوقع أن تسعى الأغلبية إلى تغيير

الديمقراطية ، تحويرها إلى ما يشبه دكتاتورية الأغلبيات ، بدلاً من دكتاتورية الفرد .

ـ لكن هذا لن يجعلنا نتحرك ، سنبقى ندور في الدولاب ذاته .

***

بعد سنوات طويلة من المنفى في باريس ، عاد يوسف عبدلكي إلى دمشق ، لكنه بقي يخشى العودة إلى مسقط رأسه ، القامشلي . كان مصرّاً على أن يبقيها في ذاكرته ، كما غادرها أول مرة ، لكنها كانت قد تغيّرت مثلها مثل دمشق . حتى نهرها الصغير «الجغجغ» تبعثر في البادية وجفّت مياهه ، بعد أن كان نهر ميكدونيوس ، كما كان اسمه أيام الرومان ، يخترق المدينة قادماً من تركيا في طريقه إلى الفرات .

كان يوسف مسحوراً بمدينته البعيدة في أقصى الشمال . شخصية والده عبدالأحد عبدلكي الممتلئة بالرفض ، جعلت من يوسف طفلاً يعيش تحدياً دائماً . عبدالأحد اليساري الذي اعتقل أكثر من اثنتي عشرة مرة في مختلف العهود السياسية ، قبل أن يفصل من حزبه الشيوعي الذي كان يقوده خالد بكداش ، أصبح يوسف بعد انتقاله مع والده إلى دمشق ، دمشقياً أيضاً ، فالخمسة عشر عاماً التي قضاها في القامشلي ، كانت فردوساً من نوع خاص ، انتهى برحيل الأسرة إلى المركز .

***

زياد يتحرك من حولي كشيطان فتيّ . لم أتمكن من التخلص منه . حدثت عنه ردينة ، صديقة الدراسة القديمة ، كانت قد أصبحت مذيعة مشهورة ومراسلة لمحطات فضائية عربية ، بعد أن سكنت في مكان سمّته «جبل النحل» ، قالت إنها لن تستطيع لقاءه دون أن تأخذ الإذن . لم تنس ردينة أن والدها العسكري ذا الرتبة المتدنية ، كان عمله يجبر أسرتها على التنقل من مكان إلى آخر ، ولم تنس أن البيوت التي عاشوا فيها غالباً كانت غرفةً واحدة بلا مطبخ ، فكانت تضطر للخروج إلى ما يسمى بحوش البيت لغسل الصحون ، كانت الحنفية النحاسية أعلى من قامتها ، ينهمر منها الماء البارد المسموم على الأرض ، وكانت لا تجد أحداً تلقي عليه اللوم سوى السنّة ، لأنهم أجبروا والدها وطائفتها ، كما تقول ، على العيش في حياة الفقر والعسكرية ، ولكنها الآن في جبل النحل ، سألتها لماذا جبل النحل؟ فأجابت بتصوف : لأن الإمام علي قال لشعبه : أن اتخذي من الجبال بيوتاً .

ـ الآية تقول : وإذ أوحى ربك إلى النحل .

ـ نعم . لذلك نسمي الإمام علي «أمير النحل» .

وحين سألتها عن أي إذن تتحدث في حال أرادت إجراء لقاء صحفي ما؟ قالت :

ـ الإذن . واضح .

ـ لا . ليس واضحاً . هل هناك من يتحكم بمن تلتقين بهم في حياتك الخاصة؟

ـ لا أستطيع التواصل مع أحد دون أن أخبر مرجعيتي .

ـ مرجعيتك!

ـ نحن نختلف عنك . أنا من القرادحة . مرجعيتي تتحكم بي .

ـ مرجعية دينية .

ـ لا . . . . مرجعية دينية؟ مرجعية من نوع آخر .

روت لي ردينة من قبل أموراً عن علاقتها مع غازي كنعان ، ضابط المخابرات الكبير . كانت تقول إنه اعتاد على أن يتصل بها ، ليروي لها مناماته وكوابيسه ، ويأخذها معه إلى حيث يقوم بتقديم التبرعات للمقامات والمزارات الكثيرة المنتشرة في جبال العلويين . يبدو أن تأثيرها عليه كان كبيراً .

وحين تولى غازي كنعان منصب وزير الداخلية ، وهو المنصب الأخير له ، بعد أن كان الحاكم الحقيقي للبنان على مدى سنوات طويلة ، وجدوه في مكتبه مقتولاً بأكثر من رصاصة . قالوا إنه مات منتحراً ، ولم يصدق أحد رواية السلطة بالطبع .

كانت ردينة قد أقنعت غازي كنعان بأن يسمح للعلويين المساكين ، كما قالت ، بالبناء في حي المزة الجبل وبساتين المزة التي استولى عليها رفعت شقيق حافظ الأسد ، من أصحابها عنوة ؛ أي في جبل النحل كما تسميه ، قرب بيت صاحبي القديم آصف عضو مجموعة «حراس الأرض» التي أعرفها أنا

ولا تعرف ردينة شيئاً عنها . طلبت منه أن يزيل الحواجز التي تمنعهم من نقل الإسمنت ومواد البناء . أرادت أن تعطي كنعان مكانته عندهم ، وألا يبقى مجرد حارس من حراس نظام الأسد الأب ، ووريثه بشار ، ففعل هذا ، وأخذ يتحول إلى رمز من رموز الطائفة .

لكن كنعان كان قد رحل حينها ، وكان أيّ حديث له علاقة باغتيال الحريري أو أيّ شخص على صلة بالموضوع ، على درجة عالية من الخطورة ، ولذلك أصابها الذعر من مجرد طرح الفكرة ، أن تلتقي شاهداً من شهود تلك الجريمة الغامضة الواضحة . أراد زياد أن يقول لي ما لم يقله في إفادته . هذا ما حصل بالفعل . كان يخشى من أن تندثر قصته ، وأراد أن يترك خلفه خيوطاً معاكسة تشير إليه ، حتى يوسف عبدلكي كان يقول لي : لا تتركه يتحدث دون أن تدوّن ما يقول . هؤلاء على اتصال بعالم الإجرام والمخابرات ، ولعلّ هناك ما هو مهم جداً .

***

يوسف عبدلكي كان مختلفاً جداً ، حتى عن رفاقه في الفكر والتنظيم ، مع أنه لم يتخل عنهم مرة واحدة . لوحته «ياطير البرق تأخرت» كانت وحدها نسقاً يتواصل عمّا كان يدور في كهف الشيطان . بين النسق والنقطة ، كانت تجربة يوسف العريضة تمضي بطيئة التحولات ، مؤرخة لزمن كامل .

جد يوسف جاء من الفضاء العالي للجزيرة السورية ، من

«قلعة الأمراء» التي يسمونها «قلعة مرا» التي صارت في خريطة تركيا اليوم . كان حنا يعقوب عبدلكي قد ولد في العام 1877 وعاش في ديار بكر . تعلّم حرفة الخياطة ، وتحديداً حياكة النسيج . عرفه الناس هناك بعد أن توسعت تجارته ، لكن المجازر التي وقعت في الحرب العالمية الأولى كانت قد سبقتها مجازر ارتكبت بحق هؤلاء القلعتمراوية ، فأحرقت محلاتهم وبيوتهم ، حينها أسس حنا يعقوب لجنة سرية سريانية لمساعدة اللاجئين اليونانيين الذين عبروا تلك الأراضي هاربين من الأتراك ، أو في سوقياتهم العسكرية .

افتضح نشاطه ، فهرب بدوره إلى ماردين ، لكن الحرائق لاحقته ، فنزح مع القوافل التي نزحت إلى عامودا . كان هؤلاء المسيحيون القادمون من الشمال ، أبناء مدنية نمت وعششت في جيناتهم ؛ إذ سرعان ما استعادوا نشاطهم التجاري واستقروا في المكان الجديد . عمل حنا يعقوب في بيع الخضار . غير أن التجارة لم تكن همه الوحيد ، كان حفظ الهوية يشغل تفكيره إلى جوارها ، فأسس أول مدرسة سريانية في الجزيرة السورية أواخر العشرينيات وأصبح مديرها .

***

لا أريد أن أكون شاهداً للجميع ، ولا راصداً موثقاً لهم ، ولا راوياً لحوادثهم . أنهكني التعلق بدمشق . مرض حقيقي . أكثر من مرض . ودمشق لا تكف عن استقبال هؤلاء ، وتحريكهم

في خيال الظل أمامي . لم أكتف بالجلوس على كرسي مثل كراسي مقهى النوفرة . اشتريت ذات مرة طاولة من طاولاتها . نحاس ملويّ مثل صلصال فوق سيقان مزخرفة . ربما يعود عمر الطاولة الصغيرة إلى أكثر من مئتي سنة ، لكن انتقالي مع الطاولة إلى حياتي بعيداً عن المقهى ، هو انتقال من جلسة المتفرج إلى ما بعد المقهى بخطوات ، حيث الحياة ، بدلاً من الاكتفاء بالفُرجة عليها .

***

عامودا التي نشأت في الماضي السحيق حول تل شرمولا ، كانت قد بدأت بالتحول عبر المهاجرين الجدد القادمين إليها فراراً من القتل ، ولم تكد أواسط الثلاثينيات تأتي ، حتى هاجمت مجموعة من الأكراد مسيحياً يدعى حنا طبّو مستخدمين أسلحتهم في السوق ، فوقعت طوشة عامودا ، وهي التي يسميها الأهالي «طقّة عامودا» ، و«طبة عامودا» وأسماء أخرى تشير إلى الفوضى التي سادت تلك الأيام ، ودارت رحاها بين المسلمين والمسيحيين . تدخل الفرنسيون الذين كانوا يحكمون سوريا ، واستباحوا عامودا ، فهرب الأهالي من جديد كل باتجاه ، وكان من أولئك الفارين من البلدة حنا يقعوب عبدلكي الذي لجأ إلى القامشلي . وصل المسيحيون السريان إلى القامشلي حفاة عراة ، وأقاموا في الكنائس والطرقات ، لكنهم جمّعوا أنفسهم وخرجوا في مظاهرة كبيرة في شوارع

القامشلي ، حملوا فيها حنا يعقوب على أكتافهم ، وطالبوا باستعادة حقوقهم التي نهبت في عامودا ، فشكل الفرنسيون لجنة جمعت الأموال لإعادة الممتلكات إلى أصحابها ، وكلّف حنا يعقوب بالإشراف عليها ، فوزع كل ما كان تحت يديه ، ولم يمنح لنفسه أي تعويض عن خسائره ، فاختاره الناس رئيساً لبلدية عامودا بالوكالة .

تخريب التكوين السكاني ، كان يجري يومياً ، متخذاً أشكالاً لا عد لها ولا حصر . فوجئ حنا يعقوب بمشروع لإعادة إعمار عامودا بعد الطوشة ، وكان على رأس المخططات شق طريق واسعة وسط البلدة تمر من فوق الجامع الكبير ، ولم يكن هذا ممكن الحدوث إلا بهدم الجامع ، فلم يوافق حنا يعقوب على المشروع ، واعتبره محاولة لاستفزاز المسلمين من جديد .

عاش المهاجر القلعتمراوي حياته يقرأ ويكتب ، ودرس الصحافة بالمراسلة ، وانتقد السلطة الدينية كما انتقد الفرنسيين وتخلف المجتمع ، وترك مؤلفات لم تر النور في حياته مثل «دستور إنهاض الأمة السريانية» و«الصوت السرياني» و«المرحلة السريانية» و«الباب والقلاع» ، وساهم بتأسيس جمعية «رحمات عيتو ولشونو» .

كانت التمثيلات البصرية التي عاشها حنا يعقوب ، تدور في لوحات يوسف عبدلكي ، منصبة على الحدث الجديد في سوريا . لم تكن منقطعة في الوعي ، كما لم تكن منقطعة في

التاريخ ، فسوريا لم تكن بلداً عادياً مثل غيرها . كان يؤرخ لها الرسام والشاعر والروائي والسياسي والمفكر وحتى صانع الزجاج الأزرق والأخضر في باب شرقي .

***

قضيت الوقت أهرب من الآخرين . لم أعد أريد المزيد من الأبطال في ورقي ، لا زياد ولا غازي كنعان ولا الحريري . بقي الشاهد النحيل كشبهة ، يطاردني من مكان إلى آخر . لم أدوّن ما قال ، ولم أستمع لنصيحة يوسف ولا لنصيحة سالم ، وما قاله لي دوّنته هنا في ذاكرة لا حدود لها .

***

في دمشق ، بقيت وحيدة بدرج المكتبة المتوحدة في بيتي ، صورة التقطها مصور فوتوغرافي عابر ، في القباقبية ، وأنا أشير فيها ليوسف عبدلكي إلى جدار من جدران الجامع الأموي ، صوب القطعة التي اكتشفتها من أحجاره الخارجية على ارتفاع خمسة أمتار ، كانت حفراً نافراً للمسيح في مقطع نصفي . خرّب أحدهم وجهه يوماً ما ، لكن بقية الملامح ظلّت كما هي ، أيقونة عالية بعيداً عن متناول الماشين على الأرض ، أحجار الحضارات التي تراكمت فوق بعضها البعض .

***

سلمى نهر الفرات الذي يتدفق بقوة قادماً من الغيب الأعلى في الشمال ، دوامات الماء ، ونوارس المغيب ، والغَرَب

المتمايل مع الريح . سلمى الزهر البري على ذلك التراب ، وبين صخور الشير البيضاء والحمراء . سلمى الثلج الذي يذوب تحت الشمس الحارقة ، يذوب بين يدي ، يطفئني .

اعتدت أن ألاحق سلمى في الحجر الدمشقي ، وفي الهواء الصيفي البارد ، في الغابات والحقول ، وفي موسيقى الوتريات ، وخرافية حروف اللغات السامية .

***

في المرسم في ساروجة ، قال يوسف إن ثلاث موجات شعبية كانت قد وقعت ، من أيام محمد علي باشا ، إلى حركات التحرر ، إلى استيلاء العسكر على السلطة في المشرق . حاول العرب في تلك الموجات دخول الحداثة ، لكن تلك المحاولات فشلت ، وسيستيقظ الناس يوماً ما ، لإدخال مجتمعاتهم في الحداثة رغماً عن الجميع ، وستأتي الموجة الرابعة حتماً .

كان يوسف حينها ، يرمي الحبوب لطيور الحمام ، وكان بين الأقفاص التي بناها في حديقة مرسمه ، قفص غاضب ، يسكنه غراب أسود بجناحين رماديين . كان يحبس الطائر ، ولكن الطائر كان يخفق . لعله كان يريد العودة إلى لوحة يوسف التي خرج منها إلى القفص ، أو أنه كان يفكر بالتحويم فوق دمشق ورؤية تحولاتها بنفسه .

***

زوّرنا علي سفر وأنا ، على كومبيوتره الشخصي في مبنى التلفزيون السوري ، نسخاً من مقالاتي وكتبي ، ووضعنا لها إطاراً يوحي بأنها منشورة في الإنترنت في مواقع مختلفة ، وبصور مختلفة . كان القاضي الجديد قد طلب مني هذا ، كي يقوم بإحضار خبير في الإنترنت ، ويسأله سؤالاً وحيداً : هل يمكن التلاعب بالمحتوى الرقمي على شبكة الإنترنت . فإذا قال : نعم . تنتهي القضية ، لما يسمونه في القضاء ، عدم اكتمال الأدلة ، أو ضعفها والشك بها ، دون أيّ كلام آخر . كان الأمر سرياً وخطيراً . وكان يمكن أن يودي بالقاضي وعلي وأنا معهما . لكن هذا كان الحل الوحيد أمام القاضي النبيل ، الذي قال لي : يمكنني ببساطة أن أنهي هذه القضية ، وأشملك بعفو رئيس الجمهورية ، لكنّي لا أريد لك أن تتلوث بالعفو . البراءة هي ما أريده ، مع علمي أنك مدان .

***

احترق الحلاج في لهيب مرسمه الذي كان يرسم فيه لوحته الأطول في العالم (114 متراً) أراد أن يسجّلها في موسوعة غينيس . «نهر الحياة» اللوحة التي تدور حول المشاهد ، والتي صوّر موفق قات أجزاء منها في فيلم خاص حافل بكائنات الحلاج الغرائبية ، مات بعدما أنقذوه ، لأنه عاد ثانية إلى الداخل لينقذ اللوحة ، لكنه احترق من أجلها . كان الحلاج يقول إنه خرج من تلك السبابة التي اعتاد الأطفال

المصريون أن يشيروا بها إليها «الشامي» بعد أن نزحت أسرته من فلسطين إلى مصر . في ذلك الحريق عاد الحلاج إلى نهر الحياة و إلى تلك اللحظة من جديد دونما رجوع .

***

بعد سنوات عثروا على كاسر ميتاً في بيته في دير الزور . لم يقم بطباعة روايته الضخمة «ها أنا أفعلها يا جاك» ، التي كان عدد صفحاتها قد تجاوز الألف صفحة ، ولم يقم معرضاً للوحاته ، ولم يواصل تدريب الفتيان على التايكواندو ، ولم يعط لأحد تلك النوتات الموسيقية السرية التي كان يدوّنها عن الأشياء والظواهر . مات قبل أن يحدث الانفجار الكبير .

***

مر سليمان بدمشق ، وحين رأيته هناك ، قال إنه ذاهب إلى فرنسا أو حيث تلقي به رحاله . بعد فترة أخذ الناس يشاهدونه في ميونخ التي يعيش فيها حتى اليوم ، حاملاً عصا ربطت في آخرها صرّة الغجري التي تحوي كل صور ترحاله .

***

طحنت دمشق عماد ودمّرت بنيته العصبية ، وألقت الشرطة القبض عليه وهو يحاول سرقة الليرات من هواتف العملة بسلك يمدّه ويعقفه ويدخله في الهاتف العمومي . لم أعد قادراً على رؤيته بعد أن تكررت حوادثه ، فيما واصل هو التحول إلى طينة أخرى . وحين بدأ الدمار الكبير ، عاد إلى دير

الزور كي يساعد الجرحى والمصابين . اعتقلته داعش في المستقبل ، ثم سربّت أنها قامت بإعدامه بقطع رأسه .

***

بقيت مسجوناً في غيبوبتي . أنا لا أموت أصلاً . لا أموت .

***

عدنان العجوز الذي يسكن بمفرده ، وجد مقتولاً بعد أن تم إحراق بيته في شارع بغداد . احترق مع غرفة أبيه المليئة بالكنوز الأثرية . كان أحدهم قد تمكن من إزهاق روحه المتهتكة .

***

كانت عشرات الملايين من العبارات والصور تتراكم في دمشق ، في القسم الرمادي الذي حكمه النظام ، وكذلك في القسم المنفلت من قبضته . لم تكن هناك فوارق كبيرة ، فالحزمة التي تطوّقها الكآبة ، كانت قد تجذرت في العمق ، ولم يكن قد بدأ يفلت منها سوى المجهولين . الذين لم يعرف أحد يوماً أين هم ، ولا كيف يصنعون شكل حياتهم ، ولا كيف يحكمون على الأشياء والظواهر ، لكنهم كانوا يسيرون حتماً نحو المستقبل ، لأن الماضي لم يعد قادراً على البقاء قوياً كما كان .

***

ضربة إثر ضربة ، سكّين لون إثر آخر ، ساهم الجميع في صنع الصورة النمطية التي سيسهل لاحقاً ، تسميتها زوراً «البيئة الحاضنة للإرهاب» . كان ملايين الناس في بُعدهم هم ، بينما عاش الآخرون في أبعاد أخرى ، يرسمون لوحة مختلفة عن الناس ، فوتوغرافيا ناصبها الجميع والكراهية ، الحكم والفساد والمثقفون المؤيدون للاستبداد ، وأولئك المعارضون له على حد سواء ، باستثناء قلة قليلة ، وكانت البلاد كوكباً اتهمه الجميع بأنه كوكب المواطنين البدائيين ، عالماً يستعد لتشن عليه الحرب ، حال رفعه أول صوت يطالب بالحرية . ولم تبق صفة لم تنعت بها ، تلك «البيئة الحاضنة للإرهاب» ؛ التخلف والجهل والبشاعة والفقر والوحشية والتطرّف الديني والعرقي والمناطقي ، جعلوا منها بديلاً عن عدوّهم الأكبر الذي عجزوا عن العثور على وسيلة لمحاربته ، فاكتفوا بمحاربة الضحايا بدلاً من محاربة القاتل ، ولم يكن هذا الفعل تمرداً وقتلاً للأب ، بل قتلاً يومياً ومتواصلاً للأم .

***

استيقظت ليلاً وخرجت لأتنفس هواء أرض الديار قرب شجرة الكبّاد . كان بابان مفتوحين على غير عادتهما ، باب ستناي وباب فادي ، ولا صوت يوحي بأن أحداً منهما في غرفته . اقتربت من باب غرفة فادي . كانت خالية تماماً ، حتى من المفروشات التي وضعها مالكو البيت للمستأجرين ، وهو لم

يكن موجوداً ، لا هو ولا طائراه الفاتنان ، بعد أن قتلت ستناي ثالثهما في لحظة غضب قبل أيام ، وضعت له سم الجرذان في منهل الماء الذي يشرب منه . قطعت مسافة الأمتار العشرة ما بين غرفته وغرفة ستناي . لا أحد ، ولا شيء . غرفة خالية . أخبرني الجيران في اليوم التالي ، أن فادي وستناي هربا معاً بعد أن اتفقا على الزواج ، ولكن فادي لم يكتف بسرقة ستناي من عالمها الليلي ، بل كان قد سرق أثاث الغرفتين معها أيضاً ، واختفى الاثنان في المدينة .

***

أصيبت زوجة سمير بالسرطان . لم يعد يتوفر لديه المال حتى لإعطائها المورفين المسكّن للألم . دمّرت قاذفات بشار الأسد بيته ، فرحل إلى دمشق . ماتت زوجته فقرر مغادرة سوريا أخيراً ، بعد أن أودع ابنتيه أمانة لدى أصدقائه ، تمهيداً للجوء إلى تركيا ثم إلى بلاد الله الواسعة . وفي الطريق ألقت داعش القبض عليه مع ابنه . سربت بعد ذلك أخبار تقول إن داعش قامت بإعدام سمير بقطع رأسه .

***

اختفى ناصر في الإيمان الصوفي . لم يعد له أثر . لا شيء سوى أصوات التمتمات بالآيات والأدعية . في الأيام الأخيرة كنت شديد التوتر ، أشعر أن الموت يلاحقني ، يحيط بي ، كما كان ناصر يهذس به كل لحظة . بحثت عن ناصر . سألت عنه

كل من عرفه وعرفني . وحين يئست ، سألت محرك البحث غوغل عن اسمه . كتبت ناصر عبدالكريم ، فعثر لي على صورة رجل عجوز ملتح ، كتب تحتها «بائع نحاس في السوق العتيق» . تغيرت ملامحهُ ، لكن لم يكن صعباً عليّ التعرف إلى أدق تفاصيل وجهه التي نحتت ببطء من دخان الشعر الرمادي الأزرق ومن عميق الألم .

***

بقيت أنا أيضاً ، محبوساً مع إخاد في ذلك السرداب في دمشق . ومن خرج لم يكن أنا . بقيت الساعة العتيقة ذات البندول النحاسي تتدلى ، تتحرك دون أن تشير إلى الزمن . دخان سجائري ما زال هناك يسبح في الفراغ . بقي إخاد هناك أيضاً .

***

كانت لحظة غير عادية ، عمرها بالفعل آلاف السنين ، تلك التي سبقت صوت الطباشير والألوان البدائية ، وهي تحفّ جدار مدرسة في درعا جنوب سوريا ، حين كتب عليها مجموعة من الأطفال ما شاهدوه على شاشات التلفزيون في مصر وتونس وليبيا واليمن . . . «الشعب يريد إسقاط النظام» «إجاك الدور يا دكتور» «ارحل» ، دون أن ينسى كل منهم التوقيع باسمه الصريح تحت تلك الشعارات «مع تحيات ، بشير وعيسى ونايف أبازيد» .

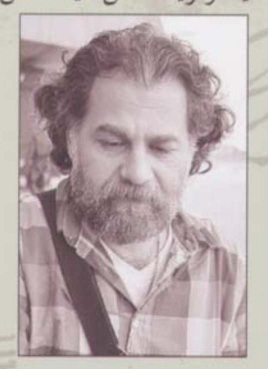
تمّتْ

ORIENTIS OCULUS
HYPERTHYMESIA 21

رواية
NOVEL

عين الشرق هايبرثيميسيا 21

طيورٌ، طيور، آلاف الطيور تخفق فوق خرائط المدينة، ترسم بأمواجها فراغًا جديدًا غير الفراغ. السماء زرقاءُ برتقاليّةٌ بيضاءُ غسقيّةٌ، والغيم يتنفّس كصدرٍ يعلو وينخفض. ينخفض حتّى يلامس حوافّ البيوت الّتي لا سقوف لها، تدركُ العناكب بحكمتها أنّ شيئًا ما سيحصل عمّا قريب، فتبدأ بالتحرّك مبتعدةً عن ظهيرةٍ حائرة. ترمي خيوطها من الأعلى نازلةً عموديًّا بموازاة الجدار الحجريّ، ترى عيونُها الكثيرة ما يدور في غرفة الخلوة في السطح الدمشقيّ، تراقب الوحشة والأثاث المهترئ مقطّع الجلد، المقاعد الّتي هجرها الجالسون من أمدٍ بعيدٍ حول طاولةٍ عليها كؤوسٌ من زجاجٍ أزرق وأخضر رخيصٍ ثمينٍ عُجِن في تنّورٍ في «باب شرقي» باب الشمس.



من الرواية



ISBN 978-614-419-729-5
9 786144 197295

